© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيس التحرير: يحيى يخلف

مدير التحرير: غسان زقطان

مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

غلاف العدد مقتبس من الملصق الذي أعتمدته الأمم المتحدة في الذكرى ٧٥ للنكبة،
وهو من تصميم الزميل الفنان عاصم ناصر المشرف الفني لـ«أوراق فلسطينية».

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٣٢» ربيع ٢٠٢٣

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / + ٩٧٠٢ – ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **خطاب السيد الرئيس محمود عباس في الأمم المتحدة بمناسبة مرور ٧٥ عاماً على النكبة**

٩ **نص كلمة الرئيس محمود عباس أمام الأمم المتحدة في الذكرى الـ٧٥ للنكبة**

"النكبة" في الخامسة والسبعين - ملف

١٩ **تطورات القضية الفلسطينية على ضوء المتغيرات الأخيرة تقدير موقف**

عبد الغني سلامة

٢٩ **٧٥ عاما من الظلم التاريخي والنكبة المستمرة والمتغيرات الجارية**

مروان اِميل طوباسي

٣٩ **أزمنة سحق العظام.. فلسطين والسير عبر الجدار ... القدس والهندسة العكسية المراحل الأخيرة من تحقيق حلم إيرتس يسرائيل**

شذى يحيى

٤٩ **بين النكبة المفتوحة و النكبة المستمرة**

د. وليد سالم

٥٩ **كارل صباغ، بريطانيا في فلسطين قصة الحكم البريطاني لفلسطين ١٩١٧ـ ١٩٤٨، ترجمة محمد عصفور،**

منى عبد الفتاح رمضان

٦٣ **هل من نخب جديدة في دولة الاحتلال الإسرائيلي؟**

عليان الهندي

أوراق الذاكرة

٧٥١ **هند طاهر الحسيني: أنموذج لإدارة الأزمة الحضن الدافئ لأطفال دير ياسين المنكوبة**

عزيز محمود العصا

٨٣ **لجنة الدفاع عن الثقافة القومية *(٢)**

أسماء الغرباوي

٩٥ **تجربة الاتحاد العام لطلبة فلسطين درع م.ت.ف في العراق**

أ.حسام أبو النصر

الفهرس

١١١ جهاد أحمد صالح، الصحافة الفلسطينية قبل سنة ١٩٦٧م
صلاح عبد الرؤوف

أوراق ثقافية

١١٩ «في حَضْرَة الغياب»: مَحْمُودْ دَرْويشْ يَكْتُبُ أوطوبْيُوغرافيا قصيدته
حسن نجمي

١٢٧ النكبة في السرد الروائي الفلسطيني.. نماذج من حضورٍ يتواصل
بديعة زيدان

١٤٧ حكاية الفيلم الأول.. عن الإنتاج السينمائي الفلسطيني قبل النكبة
يوسف الشايب

١٦٥ الأسطورة والخرافة والكرامة أجناسٌ حكائية في السيرة الذاتية الفلسطينية دراسة في بلاغة الخطاب
أحمد عزيز

١٨٣ قصة قصيرة: أوّل الكلام
محمد علي طه

كتب وتقارير

١٩٩ سماء وسبعة بحور عمل ملحمي ينتصر لقضية فلسطين
د. زينات أبوشاويش

٢٠٩ "الترويدة" برنامج تلفزيوني تحيي موسى من خلاله الرسائل المُشفرة في الحب، الثورة، والحرية
فارس صقر

أوراق المؤسسة

٢١٤ مؤسسة ياسر عرفات تعقد الاجتماع الرابع عشر لمجلس أمنائها في القاهرة

خطاب السيد الرئيس محمود عباس في الأمم المتحدة بمناسبة مرور ٧٥ عاماً على النكبة

ترتبط القضية الفلسطينية ارتباطاً وثيقاً بتاريخ وميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان وحق تقرير المصير.

وبناء على ذلك قامت الأمم المتحدة بإحياء الذكرى الخامسة والسبعين للنكبة الفلسطينية.

وهذا كان في قرار اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٢٢، وطلب القرار من شعبة حقوق الفلسطينيين تكريس أنشطتها للاحتفال بالذكرى الخامسة والسبعين للنكبة الفلسطينية في قاعة الجمعية العامة في ١٥ أيار / مايو ٢٠٢٣، وعن طريق نشر المحفوظات والشهادة ذات الصلة.

وقد حضر المناسبة مسؤولون على رأسهم الرئيس محمود عباس، وممثلون للجامعة العربية، ومنظمة التعاون الإسلامي، وحركة عدم الانحياز، والدول الأعضاء، ومنظمات المجتمع المدني.

وفي افتتاح الاجتماع قال: (شيخ نيانغ) رئيس لجنة الأمم المتحدة المعنية، ان المجتمع الدولي يتطلب الإعتراف بواقع وتاريخ محنة الشعب الفلسطيني وضمان إعمال حقوقه غير القابلة للتصرف، ويجب الاعتراف بقدرة الفلسطينيين على الصمود، وقالت روزميري دي كارلو وكيلة الأمين العام ان موقف الأمم المتحدة: يجب أن ينتهي الاحتلال، وشددت على تحقيق حل الدولتين وأكدت على "نود ان نرى دولة فلسطينية مستقلة تعيش جنباً الى جنب مع إسرائيل بسلام وأمن، وتكون القدس عاصمة لكلا الدولتين". وقالت دي كارلو ان النزاع الإسرائيلي الفلسطيني أطول أزمة لجوء في العالم مما أدى الى إنشاء وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين.

***

اعتراف الأمم المتحدة بنكبة فلسطين إنجاز مهم واعتراف يستحق الإهتمام، وكلمة الرئيس محمود

عباس حازت على اهتمام. وسبق ان تحدث أمام الجمعية العامة الرئيس ياسر عرفات لأول مرة في ١٩٧٤/١١/١٣، وقال في خطابه التاريخي: جئتكم يا سيادة الرئيس (رئيس الجمعية العامة) بغصن الزيتون في يدي مع بندقية الثائر في يدي، فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي.

كما ألقى خطابا بمناسبة انعقاد الجمعية العامة في جنيف بتاريخ ١٩٨٨/١٢/١٣.

***

وخطاب الرئيس محمود عباس، يكتسب أهمية تاريخية كونه يعبّر عن حدث تاريخي لأول مرة وهو أعتراف الأمم المتحدة بالنكبة بعد ٧٥ عاما على مرورها.

والقى الرئيس محمود عباس خطابا تاريخياً بهذه المناسبة ننشره في هذا العدد.

هيئة التحرير

نص كلمة الرئيس محمود عباس أمام الأمم المتحدة في الذكرى الـ٧٥ للنكبة

الحضور الكريم،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

في البداية، أتقدم إليكم بالشكر والتقدير على قراركم التاريخي غير المسبوق بإحياء الذكرى الخامسة والسبعين للنكبة الفلسطينية، التي اقترفتها إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني، وتصادف هذا اليوم، الخامس عشر من شهر أيار عام ٢٠٢٣، بعد أن جرى تجاهلها طيلة السنوات الماضية.

إن هذا القرار يُمثل إقرارا من منظمتكم الموقرة بالظلم والإجحاف التاريخي المستمر الذي وقع على الشعب الفلسطيني في العام ١٩٤٨ وقبله ولا يزال، كما يشكل أول دحض من قبلكم للرواية الصهيونية الإسرائيلية التي تنكر هذه النكبة. وكلي ثقة وأمل بأن هذه المنظمة الأممية لن تدخر جهداً من أجل رد الاعتبار للشعب الفلسطيني ولحقوقه المشروعة وإزالة آثار هذه النكبة، أولاً باعتمادها حدثاً سنوياً يؤسس له ضمن قرار أممي، واعتبار الخامس عشر من أيار من كل عام يوماً عالمياً لإحياء ذكرى مأساة الشعب الفلسطيني، التي هي مأساة للبشرية جمعاء، وثانياً عبر العمل على إنجاز الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني، بما فيها حقه في تقرير المصير واستقلال دولته، وعودة اللاجئين إلى ديارهم التي هجروا منها، حتى لا تصبح هذه المأساة وصمة عارٍ على جبين الإنسانية.

وفي هذا اليوم الذي أقف فيه أمامكم، يحيي شعبنا الفلسطيني في أماكن تواجده المختلفة في فلسطين والشتات، وكذلك أصدقاء شعبنا وأحرار العالم في العديد من العواصم والمدن، هذه الذكرى المأساوية التي لا تزال تلقي بظلالها الحالكة علينا. ورغم ذلك فإن الرواية الفلسطينية، المتعلقة بالنكبة والقضية الفلسطينية عموماً، بدأت تشق طريقها إلى وعي الشعوب والدول التي أخذت تكتشف زيف الرواية الإسرائيلية، وذلك بجهود أبناء شعبنا، وبدعم ومساعدة الخيّرين في هذا العالم.

كما أود أن أبلغكم بأن نُصُباً تذكارياً وطنياً يخلد ذكرى النكبة، ويعبر عنها، يجري بناؤه في فلسطين ليصبح شاهداً على هذه المأساة الإنسانية، جنباً إلى جنب مع مؤسسة للذاكرة الوطنية الفلسطينية، وقد أصدرنا قانوناً فلسطينياً لإحياء ذكرى النكبة كل عام.

إن النكبة، أيتها السيدات والسادة، لم تبدأ في العام ١٩٤٨، كما أنها لم تنته بعد هذا العام، فإسرائيل، الدولة القائمة بالاحتلال، لا تزال تواصل احتلالها وعدوانها على الشعب الفلسطيني، ولا تزال تتنكر لهذه النكبة، وترفض قرارات الشرعية الدولية القاضية بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى بيوتهم ومدنهم وقراهم التي هجروا منها بالقوة والترهيب، ولا تزال تحتل أرض دولة فلسطين التي أقرتها جمعيتكم الموقرة وقبلتها عضواً مراقباً فيها، ولا تزال تصادر أراضي فلسطينية وتبني المستعمرات اليهودية عليها، فضلاً عن فرض نظام فصل عنصري «أبرتهايد» على الفلسطينيين، سواء داخل إسرائيل، أو في الأرض الفلسطينية المحتلة منذ العام ١٩٦٧.

لقد اتخذت هذه المنظمة الدولية عبر السنين مئات القرارات التي تُقِر بحقوق الشعب الفلسطيني الثابتة في وطنه، (ألف قرار تقريباً)، ومنها القرار ١٨١ للعام ١٩٤٧، الذي يقضي بقيام دولة عربية للشعب الفلسطيني على مساحة ٤٤٪ من أرض فلسطين التاريخية إلى جانب دولة إسرائيل، وكذلك القرار ١٩٤ الذي يقضي بوجوب عودة اللاجئين الفلسطينيين، وقد كان إلزام إسرائيل بتنفيذ هذين القرارين شرطاً لقبول عضويتها في الأمم المتحدة، ولكن وللأسف الشديد فإن دولاً بعينها في هذه المنظمة عطّلت عن قصد تنفيذ قراراتكم، في ممارسة تجحف بالعدالة والأخلاق والقيم الإنسانية، وتزيد في معاناة الشعب الفلسطيني وعذاباته.

ولذلك فإننا نطالبكم اليوم رسمياً، ووفقاً للقانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية بإلزام إسرائيل باحترام قراراتكم هذه، أو تعليق عضويتها في الأمم المتحدة، لا سيما وأنها لم تفِ بالتزامات قبول عضويتها في منظمتكم الموقرة. (رسالة وزير خارجية إسرائيل موشيه شاريت للجمعية العامة بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٨ التي تعهد فيها باحترام القرارين ١٨١ و١٩٤ وتنفيذهما) وللآن لم يتم ذلك.

إن دولاً كبرى تعرفونها تماماً تقف اليوم مكتوفة الأيدي إزاء العدوان المتواصل على شعبنا، وترفض مساءلة إسرائيل على عدوانها واحتلالها للأرض الفلسطينية وبناء المستعمرات عليها، وتدمير حل الدولتين، وخرق الوضع التاريخي القانوني في الحرم القدسي الشريف. لقد قبلت هذه الدول بأن تبقى دولة الاحتلال دولة فوق القانون، وأن توفر لها الحماية من أية مساءلة أو عقاب، فإلى متى يمكن أن يستمر هذا الحال؟ ومن الذي يعطل تنفيذ قرارات منظمتكم الموقرة؟ ولماذا هذه الازدواجية في المعايير؟

أيها السيدات والسادة،

إن بريطانيا والولايات المتحدة على وجه التحديد تتحملان مسؤولية سياسية وأخلاقية مباشرة عن نكبة الشعب الفلسطيني، فهما اللتان شاركتا في جعل شعبنا ضحية عندما قررتا إقامة وزرع كيان آخر في وطننا التاريخي، وذلك لأهداف استعمارية خاصة بهما، وما كان لإسرائيل أن تمعن في عدوانها لولا الدعم الذي تتلقاه من هذه الدول، فالذي أصدر وعد بلفور هي الحكومة البريطانية، وبتنسيق كامل مع الولايات المتحدة الأمريكية، وقبلت هذه الدول بدون أي تمحيص الزعم القائل بأن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب.

لقد وصف وعد بلفور المشؤوم أغلبية السكان أي العرب الفلسطينيين (بالسكان غير اليهود)، دون أن يذكرهم بالاسم، ووعد بإعطائهم حقوقاً دينية ومدنية فقط، رغم أنهم كانوا يشكلون ٩٦٪ من مجموع عدد السكان في فلسطين.

وأنا أتساءل: أين المنطق والعدالة في هذا الوعد؟ وما هو الأساس القانوني الذي يستند إليه؟ وما هو حكم القانون الدولي في هذا الأمر؟ إنه في الحقيقة وعد من لا يملك لمن لا يستحق.

إن الدول الاستعمارية التي تتحمل مسؤولية تاريخية عن النكبة يجب أن تتحمل مسؤولية تاريخية بالمقابل في إنصاف الشعب الفلسطيني وإنهاء معاناته.

السيدات والسادة،

إن أولى المزاعم الصهيونية الملفقة، والأكثر شيوعاً، هي أن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب ويتوجب إعطاؤها لشعب بلا أرض.

والحقيقة أن وطننا التاريخي فلسطين لم يكن يوماً أرضاً بلا شعب، حتى يعطى ظلماً وعدواناً لمن زعموا أنهم شعب بلا أرض، فلقد عشنا نحن فيها آلاف السنين، منذ أن عمرها أجدادنا العرب الكنعانيون قبل أكثر من خمسة آلاف عام، وبنينا فيها حضارة إنسانية، ولم ينقطع وجودنا الجماعي الخلاق فيها يوماً منذ أن عمَرناها. كيف تكون فلسطين أرضاً بلا شعب وهي التي كانت من أكثر مناطق الهلال الخصيب والمشرق العربي تحضراً، تزخر بالحياة والتطور والثقافة والعمران، (لقد كان في مدينة يافا وحدها، على سبيل المثال، عشرات المكتبات ودور النشر والصحف ودور السينما).

وقد زعموا أيضاً أن الفلسطينيين تركوا بلادهم عام ١٩٤٨ طواعيةً. وحقيقة الأمر هي أن الفلسطينيين هبوا للدفاع عن وطنهم التاريخي، وعن وجودهم على أرضهم، بالرغم من قلة الإمكانات المتوفرة لهم، ولكن الدول الاستعمارية، وبريطانيا تحديداً، وفرت للصهاينة كل وسائل القوة لكي ينفذوا مشروعهم الاستعماري بقوة السلاح، بينما عاقبت كل فلسطيني حمل السلاح، دفاعاً عن نفسه

وأرضه وحقوقه.

وكانت النتيجة أن قامت دولة إسرائيل، لترتكب أكثر من خمسين مذبحة، ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الفلسطينيين، ولتدمر أكثر من خمسمائة وثلاثين قرية فلسطينية، وتشرد ٩٥٧ ألف لاجئ، وهو ما يشكل أكثر من نصف الشعب الفلسطيني في حينه.

وتواصل إسرائيل ترديد هذه المزاعم الملفقة، رغم ما نُشر من شواهد ووثائق سرية صهيونية تُقِر وتعترف بأن الفلسطينيين صمدوا وقاتلوا وقاوموا التهجير القسري، وآخر هذه الشواهد، فيلم الطنطورة، الفيلم الوثائقي الإسرائيلي الذي أنتجه وأخرجه الإسرائيليون أنفسهم، ويعترف فيه الجنود الإسرائيليون الذين قتلوا بدم بارد أكثر من مئتي فلسطيني بجريمتهم المشهودة.

إسرائيل أيتها السيدات والسادة، وفوق كل ما ارتكبته وترتكبه من جرائم بحق شعبنا منذ النكبة وحتى اليوم، فإنها تنتهك أيضاً حرمة المقدسات الدينية الإسلامية والمسيحية في فلسطين، كما أنها تمنع الفلسطينيين من حقهم في حرية العبادة في المسجد الأقصى / الحرم القدسي الشريف، الذي هو حق حصري للمسلمين وحدهم.

ولم تسلم المقابر الإسلامية والمسيحية من اعتداءات الاحتلال ومستوطنيه الإرهابيين، فضلاً عما تقوم به سلطات الاحتلال من حفريات غير قانونية تحت المسجد الأقصى.

ولا بد من الإشارة هنا إلى التقرير الصادر عن مجلس عصبة الأمم عام ١٩٣٠، حول حقوق الملكية في حائط البراق، الذي هو جزء من المسجد الأقصى المبارك، حيث أكد هذا التقرير، وبإقرار جميع الشهود، بمن فيهم رجال دين يهود، أن ملكية حائط البراق والحرم القدسي الشريف تعود حصراً للوقف الإسلامي وحده.

أيتها السيدات والسادة،

تردد إسرائيل مزاعم زائفة أخرى لتغطي على عدوانها وجرائمها، فهي التي تدعي بأن حروبها ضد الفلسطينيين والعرب كانت حروباً دفاعية.

كيف يكون ارتكاب المذابح وتدمير القرى وتشريد نصف سكان فلسطين في العام ١٩٤٨ حرباً دفاعية، وكيف تكون حرب إسرائيل عام ١٩٥٦ واحتلال سيناء وقطاع غزة حرباً دفاعية.

وكيف تكون حرب ١٩٦٧ حرباً دفاعية، وهي التي كشفت الوثائق السرية الإسرائيلية بأنه كان مخططاً لها منذ زمن بعيد، وذلك باعتراف جنرالات الجيش الإسرائيلي؟ وهل الحروب الدفاعية تعني الاحتفاظ بالأراضي التي يجري احتلالها وضمها للدولة الغازية، (كما هو الحال بالنسبة للقدس والجولان السوري)، في خرق صارخ لقرارات الشرعية الدولية، كقرار مجلس الأمن ٢٤٢،

٣٣٨ وغيرهما من القرارات التي لا تجيز الاستيلاء على أرض الغير بالقوة، وصولا الى القرار ٢٣٣٤ الصادر عن مجلس الأمن في ٢٣ ديسمبر٢٠١٦، والذي نص على وضع نهاية للمستوطنات الإسرائيلية ووقف الاستيطان في الضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية؟ وهل الحرب الدفاعية تعني إنشاء مستعمرات على أرض الشعب المحتل ونقل المستعمرين إليها والذين أصبح عددهم اليوم في الأرض الفلسطينية التي احتلت عام١٩٦٧ أكثر من ٧٥٠ ألف مستعمر؟

وهل الحروب العدوانية المتكررة، التي تشنها إسرائيل على أهلنا في جنين ونابلس وغزة وغيرها من المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية، وآخرها الحرب العدوانية الأخيرة على قطاع غزة وقتل الأبرياء من أطفال ونساء، حروب دفاعية ؟.

إن استمرار الاحتلال الإسرائيلي لأرضنا وفرض الحصار الإسرائيلي على قطاع غزة، هو السبب الحقيقي لاستمرار دوامة العنف، وإذا ما ذهب الاحتلال إلى غير رجعة فلن يكون هناك أي مبرر للعنف والحروب.

وتواصل المزاعم الصهيونية والإسرائيلية ادعاءاتها الزائفة بالقول إن إسرائيل جعلت الصحراء تزهر. إن فلسطين، لم تكن صحراء حتى يأتي الصهاينة ويجعلوها تزهر.

فلسطين أيها الأصدقاء بلد متوسطي ومليئة بالسهول الخصبة، وكان بها أنهار وبحيرات، وكانت تصدر منتوجاتها الزراعية إلى العديد من دول العالم قبل أن تقوم دولة إسرائيل.

أما الكذبة الأكبر فهي ادعاء إسرائيل، ومن يدعمها من الدول الاستعمارية، بأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط.

الدولة الديمقراطية الوحيدة هذه هي التي ارتكبت نكبة الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨، وتحتل الشعب الفلسطيني منذ العام ١٩٦٧، وهي الدولة الوحيدة في العالم التي تحتل شعبا آخر، فكيف يستوي الاحتلال مع الديمقراطية؟

الدولة الديمقراطية الوحيدة هذه هي التي جرى تصنيفها من قبل منظمات دولية حقوقية، مثل منظمة بيتسيلم الإسرائيلية، وهيومان رايتس ووتش، ومنظمة العفو الدولية، بأنها دولة فصل وتمييز عنصري (أبرتهايد)، وتنظر محكمة العدل الدولية اليوم في ماهية احتلالها للأرض الفلسطينية، وهي التي تقوم بالتمييز العنصري بين مواطنيها، وتصدر القوانين التي تعتبر اليهود فيها أصحاب حق حصري في تقرير المصير. وهناك الكثير الذي يدحض هذه الكذبة الكبرى

رواية زائفة أخرى تروجها إسرائيل ويتلقفها مناصروها، دون تمحيص أو تدقيق، هي الزعم بأن الفلسطينيين لا يضيعون فرصة لكي يضيعوا فرصة أخرى، وأنه لا يوجد هناك شريك فلسطيني للسلام.

ما معنى إذن أن يقبل الشعب الفلسطيني بدولة فلسطينية على ٢٢٪ فقط من أرض وطنه التاريخي، ويعترف بإسرائيل ويستعد للعيش إلى جانبها بأمن وسلام وحسن جوار؟ وماذا يعني أن يقبل الشعب الفلسطيني بقرارات الشرعية الدولية كلها، ويبدي استعداده لحل الصراع مع إسرائيل عبر المفاوضات السلمية على أساسها؟ وماذا يعني أن يقبل الفلسطينيون بمبادرة السلام العربية التي أصبحت جزءاً من القرار الأممي ١٥١٥ والتي تنادي بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ مقابل السلام؟ وأخيراً من الذي تنكر وتراجع عن تفاهمات العقبة وشرم الشيخ في الأسابيع الأخيرة، قبل حتى أن يجف الحبر الذي كتبت به، والتي جرت بحضور الولايات المتحدة ومصر والأردن، لوقف الإجراءات الأحادية، وتحقيق الهدوء، والالتزام بالاتفاقات الموقعة، للانطلاق نحو الأفق السياسي. فمن هو إذن الذي يضيع الفرص؟ وأين هو شريك السلام الإسرائيلي؟

وفي سياق الحديث عن الروايات الإسرائيلية، تقول إسرائيل إنها تحتفل هذه الأيام بالذكرى الخامسة والسبعين لاستقلالها. فقط أريد أن أسأل عمن استقلت إسرائيل؟، ومن الذي كان يحتلها؟

وهنا أريد التأكيد بأن أهم شرط لتحقيق السلام والأمن في منطقتنا يكمن في الإقرار بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، واستقلال دولته الفلسطينية ذات السيادة على حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧، بالقدس الشرقية عاصمة لها، وحل قضية اللاجئين الفلسطينيين على أساس القرار ١٩٤، وإطلاق سراح جميع الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، ولا يمكن أن يتحقق السلام والأمن بغير ذلك.

نحن أيها السيدات والسادة، لسنا ضد اليهود، ولسنا ضد الديانة اليهودية، ولكننا ضد من يحتل أرضنا، وينتهك حقوقنا، ويعتدي على مقدساتنا.

أيتها السيدات والسادة،

تجري اليوم في إسرائيل أحداث، وترتفع أصوات خطيرة متطرفة، تنكر وجود الشعب الفلسطيني، وتنادي بارتكاب نكبة أخرى بحق الفلسطينيين، تحت سمع وبصر الحكومة الإسرائيلية، دون أن تستنكر ذلك أو تحرك ساكنا، وهناك من ينادي صراحة بقتل الفلسطينيين، وطردهم من ديارهم، وهدم بيوتهم وترحيلهم منها، وهو للأسف ما تقوم به الحكومة الإسرائيلية نفسها، التي يقودها نتنياهو، سموتريتش وبن غفير وغيرهم من غلاة التطرف والاستيطان. إن ما جرى في قرية حوارة من قتل وحرق للبيوت والممتلكات من قبل عصابات المستوطنين الإرهابيين، بحماية الجيش الإسرائيلي، جيش دولة الاحتلال، يثير الرعب ويعيد إلى الأذهان صورة حية لما جرى في النكبة عام ١٩٤٨. إن ذلك أمر في غاية الخطورة لا يمكن ولا يجوز السكوت عليه، كما ويتوجب على المجتمع

الدولي أن يتدخل ويردع العدوان، ويوفر الحماية الدولية للشعب الفلسطيني.

وفي هذا السياق فإننا نحيي كل المواقف التي صدرت عن العديد من الدول وشرفاء وأحرار العالم والقوى المحبة للسلام التي أدانت الجريمة الإسرائيلية في حوارة، ونحيي بشكل خاص الإسرائيليين أصحاب الضمائر الحية الذين توجهوا إلى القرية، وتظاهروا متضامنين مع أهلها، ومحتجين على ما جرى فيها من قتل وحرق ودمار، وتعرضوا جراء ذلك للقمع والاعتداء من قبل المستوطنين المتطرفين وقوات الجيش الإسرائيلي.

لا يجوز أن يقبل أو يسكت المجتمع الدولي على افتراءات ومزاعم إسرائيل الكاذبة، ولا يجوز أن تفلت إسرائيل من المساءلة والعقاب، ولا يجوز أن تبقى إسرائيل دولة فوق القانون في هذا المجتمع الدولي والنظام العالمي، ولا بد لهذه المنظمة الدولية الموقرة التي تعمل على تحقيق السلم والأمن الدوليين أن تحافظ على مصداقيتها، ولذلك فإن أول خطوة يتوجب على الحكومة الإسرائيلية القيام بها هي أن تُقر هي وشركاؤها بالمسؤولية عن هذه النكبة التي لا تزال تتنكر لها، وبالمسؤولية عن المذابح والجرائم التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني وتشريده، والاعتذار وطلب الصفح وجبر الضرر، وتنفيذ كل قرارات الشرعية الدولية ذات العلاقة، وما لم تقم إسرائيل ومن ساندها، وكذلك المجتمع الدولي بأسره بذلك، فإن جذور الصراع ستظل قائمة، وسنبقى نطالب بحقنا أمامكم وفي كل مكان، بما في ذلك المحاكم الدولية، وعلى رأسها المحكمة الجنائية الدولية.

أيتها السيدات والسادة،

إن الحقيقة الساطعة والوحيدة التي نتعامل معها وندعو العالم أجمع أن يتعامل معها، وهي التي تمثل جذر رواية الشعب الفلسطيني، هي أننا أصحاب حق، كنا هنا منذ فجر التاريخ وسنبقى هنا حتى نهاية الدنيا.

من حق الشعب الفلسطيني أن يعيش حراً كريماً في وطن حر كريم، ومن حقه أن يدافع عن نفسه وعن وجوده وحقوقه الوطنية، واسمحوا لي أن أقول إن من حقه عليكم أن تساعدوه على تحقيق حريته واستقلاله وعضويته الكاملة في الأمم المتحدة، وتنفيذ قراراتكم ذات العلاقة، وأن يعيش في أمن وسلام، أسوة ببقية شعوب العالم، ومن حقه عليكم تطبيق قرارات الشرعية الدولية، وتوفير الحماية الدولية له.

الحضور الكريم،

يقف شعبنا اليوم موحداً لإحياء ذكرى النكبة، وأود أن أطمئن الجميع بأننا سوف نحافظ على وحدتنا الوطنية بكل السبل ومهما كانت التحديات، في إطار منظمة التحرير الفلسطينية، الممثل

الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، والالتزام بالشرعية الدولية.

وأخيراً أود أن أُحيي صمود أبناء شعبنا الفلسطيني في فلسطين وفي مخيمات اللجوء والشتات، وفي المقدمة منها القدس درة التاج وزهرة المدائن على ثباتهم في أرض وطنهم، وأُحيي بكل فخر واعتزاز شهداءنا وأسرانا وجرحانا البواسل، وأقول لهم جميعاً إن ذكرى النكبة ستظل حاضرة في وعينا ونبراساً وحافزاً لشعبنا حتى إنهاء الاحتلال وتحقيق الحرية والاستقلال، وأُكرر مرةً أخرى بأن الاحتلال إلى زوال، وسوف ينتصر الحق الفلسطيني في النهاية طال الوقت أم قصُر، ليسود السلام في منطقتنا والعالم.

"النكبة" في الخامسة والسبعين

ملف

تطورات القضية الفلسطينية على ضوء المتغيرات الأخيرة تقدير موقف

عبد الغني سلامة

مقدمة

على المستوى الإستراتيجي وبعيد المدى لا جديد يُذكر بشأن مسارات القضية الفلسطينية؛ فالقضية ما زالت تراوح مكانها منذ عقدين وأكثر، بل وتشهد تراجعات عديدة؛ أما على المستوى التكتيكي والآني فيمكن رصد عدد من الأحداث والتحولات التي قد يكون لها تداعيات معينة على المستوى الإستراتيجي، وهذا رهن بتطور الأحداث وتفاعلاتها.

فخلال الأشهر القليلة الماضية جرت أحداث وتطورات في المنطقة والإقليم لها علاقة وثيقة وأحيانا غير مباشرة بالقضية الفلسطينية؛ فقد استضافت الأردن في مدينة العقبة اجتماعا خماسيا ضم كلا من الأردن ومصر و الولايات المتحدة وفلسطين وإسرائيل، عرف بقمة العقبة، كما عقدت في نهاية آذار كلٌ من السعودية وإيران اتفاق مصالحة مهّد لعودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، وفي أيار عُقدت القمة العربية الثانية والثلاثين في جدة، والتي شهدت عودة سورية إلى الجامعة العربية. وفي السودان اندلعت مواجهات مسلحة يُخشى أن تتطور إلى حرب أهلية.

دوليا: ما زالت الحرب الروسية الأوكرانية مشتعلة، ودون حسم، وتلقي بظلالها على المنطقة والعالم، كما عُقدت قمة الدول السبع الكبار في اليابان، بغياب روسيا والصين. كما نظمت الأمم المتحدة ولأول مرة احتفالية رمزية بذكرى النكبة، وألقى فيها الرئيس الفلسطيني كلمة عبر فيها عن إحباطه من النظام الدولي، وتقاعسه عن محاسبة إسرائيل على جرائمها، وطلب فيها تأمين

* كاتب فلسطيني.

حماية دولية للفلسطينيين، وأكد فيها على عروبة القدس وملكيتها الخالصة للفلسطينيين، وكان رد الحكومة الإسرائيلية على الخطاب عقد اجتماعها في نفق تحت الحرم القدسي الشريف.

إسرائيليا: تم تنصيب حكومة يمينية تعتبر الأشد تطرفا، برئاسة نتنياهو وعضوية بن غفير وسموترتش وغيرهم من غلاة التطرف، كما شهدت المدن الإسرائيلية موجة احتجاجات عارمة ضد الحكومة ومحاولاتها الهيمنة على القضاء، وما زالت الأزمات الداخلية تهدد استمرار الحكومة.

فلسطينيا: شهدت البلاد موجات من التصعيد، وقامت إسرائيل باجتياحات عنيفة لمدن عديدة أبرزها جنين ونابلس وأريحا وطولكرم، كما شنت عدوانا جديدا على غزة استمر خمسة أيام، وأسفر عن سقوط ٣٣ شهيدا فلسطينيا، مخلفة وراءها دمارا كبيرا.

الحدث الأبرز: جولة جديدة من العدوان على غزة

في بداية أيار ٢٠٢٣، شنت إسرائيل عدوانا جديدا على قطاع غزة، بدأته باغتيال ثلاثة من قادة الجهاد الإسلامي في قصف منزل أدى إلى استشهاد ثمانية مدنيين آخرين من بينهم أربعة أطفال، تبعتها بقصف بيوت ومقرات تتبع الجهاد واستهداف شخصيات قيادية أخرى، وعلى إثر ذلك ردت حركة الجهاد بقصف صاروخي استهدف المدن والبلدات المحيطة بغزة، وكانت الحصيلة استشهاد ٣٣ فلسطينيا منهم ستة من كوادر الجهاد والباقي مدنيين، ومقتل إسرائيلية واحدة.

وهذه الجولة العدوانية هي السابعة على أهلنا في غزة منذ سيطرة حماس على القطاع ٢٠٠٧، وبالنظر إلى تلك الجولات، وتداعياتها المستقبلية، وتقييم فعل المقاومة ونوعيتها ومدى تأثيرها بقراءة نقدية تهدف إلى إيجاد مكامن الخلل، وتصويبها مستقبلا؛ سنجد أولا أنها بدأت بعدوان إسرائيلي وعلى الأغلب تمثل في اغتيال شخصيات قيادية من المقاومة، ثم يأتي رد فعل المقاومة على شكل إطلاق صواريخ إلى المستوطنات والبلدات الإسرائيلية، (وللأسف نلاحظ أن استشهاد المواطنين العاديين، وجرائم إسرائيل السياسية والميدانية لا تستوجب ردة فعل عسكرية من المقاومة كما تفعل إزاء اغتيال قياديها). وثانيا: أن سقف مطالب المقاومة للتوصل إلى تهدئة كان يهبط في كل مرة، من المطالبة برفع الحصار، وميناء، ومطار، ومعابر، ومساحة الصيد.. حتى وصلت آخر مرة إلى المطالبة بوقف اغتيالات القيادات والكوادر. وثالثا: أن المقاومة أخفقت في ربط معاركها في البعد السياسي، أي وضع اشتراطات ذات صبغة سياسية (وقف الاستيطان، تهويد القدس، إجراءات الضم، الدخول في مفاوضات سياسية..) واكتفت بمطالب تتعلق بتسيير الحياة اليومية للناس. ورابعا: قدمت المقاومة للعالم صورة خاطئة ظهر فيها الإسرائيليون كضحايا مدنيين مرعوبين من الصواريخ، ويهربون خائفين إلى الملاجئ. وخامسا: وبعيدا عن المقارنات غير العادلة في عدد الضحايا وحجم

الدمار (على الجانبين) حتى في سياق هدف خلق الرعب، أو "توازن الرعب"، سنجد وللأسف أن عدد سكان مستوطنات غلاف غزة قد ازداد من ٤٢ ألف إلى ٥٥ ألف ما بين عامي ٢٠٠٩، ٢٠١٩ (الجزيرة نت)، والمفارقة المحزنة أن الإسرائيليين نظموا حفلا غنائيا صاخبا حضره عشرات الآلاف في إحدى حدائق تل أبيب في مساء اليوم الثالث من الحرب.

وسادسا: لوحظ في آخر عدوانيين على غزة غياب حماس عن المشاركة في الرد، حيث اكتفت إسرائيل بقصف مقرات الجهاد واستهداف قادتها، وتجنبت فعل ذلك مع حماس، كما أن حماس بررت امتناعها عن المشاركة والرد بأنها تريد تجنيب القطاع المزيد من الخسائر، وحرصا منها على مقدرات الشعب، وتقديرا دقيقا لموازين القوى، وتجنبا لخوض حرب خاسرة سلفا! وهذا يضعنا أمام أسئلة محيرة: هل كانت حماس في الحروب السابقة تفتقر لهذه الحكمة، ولم تقدّر الأمور جيدا، واليوم نضجت تجربتها وصارت حكيمة؟ وهل على الجهاد خوض نفس المسار والوصول إلى نفس النتائج؟

وسابعاً: بعد حربها العدوانية الأولى على القطاع في شتاء ٢٠٠٨، تم التأكد أن إسرائيل غير طامعة في إعادة احتلال غزة، وغير راغبة في إسقاط سلطة حماس، ثم تأكدت تلك الحقيقة عبر حروبها العدوانية التالية؛ فكانت في كل مرة تقصف وتضرب وتغتال وتدمر ثم تنسحب مخلفة وراءها عائلات ثكلى ودمارا هائلا، وحركة تناضل بعناد لإبقاء سلطتها على هذه البقعة الجغرافية الصغيرة والمكتظة، التي تحولت بسبب الاحتلال، وبسبب سياساتها الحزبية الضيقة إلى مكان بائس ويائس.

وتبين أيضا أنَّ الضفة الغربية هي ميدان الصراع الأهم والأخطر؛ حيث الضم الزاحف، والاستيطان والتهويد، وقضم الأرض وتمزيقها بالحواجز والجدران، وحيث تجري محاولات إلغاء البعد السياسي للصراع، ومحاولات إلغاء الكيانية الفلسطينية، وتقويض التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني، والتعامل مع الفلسطينيين بوصفهم سكانا، وليس بوصفهم شعبا له حقوق ومطالب وطنية.

وثامناً: من أجل تحقيق أهداف إسرائيل الإستراتيجية يتم تكريس الانقسام، وهذا يتطلب إدامة حكم حماس لغزة (بمساعدة أموال قطر)، ويتم إضعاف السلطة والتعمد بإحراجها أمام شعبها (والسلطة بنفسها تساهم في هذا الدور)، والتركيز الإعلامي على أن عنوان الصراع والمقاومة والصمود هو غزة.

الدلالة الأخطر هنا ليست فقط في إنكار وطمس تاريخ النضال الفلسطيني، وتشويه حاضره، ومصادرة وتجاهل دور الفصائل الوطنية، بل وأيضا في تغييب الضفة الغربية بما فيها القدس، والشتات، وتمييع البعد السياسي للصراع، واستبعاد البعد الجماهيري للكفاح الوطني، وحصره فقط في الصواريخ..

وهنا يجب أن نتساءل عن التراكمات السياسية والنضالية التي بنتها تلك الحروب، ومن ثم كيف نعمل جميعاً على ربطها بالسياق النضالي الفلسطيني ماضيا ومستقبلا، وكيف نحول دون جعلها مجرد مكاسب حزبية، أو لتجييرها لمصالح أطراف خارجية. وكيف نبني إستراتيجية مقاومة شاملة، بحيث يتفق عليها الجميع، فصائل وقوى وجماهير، وتراعي قدرات الشعب وإمكانياته، ولا تستنزف مقدراته، وتؤسس ل"تقدير موقف" بشكل عقلاني يراعي نقاط الضعف والقوة لدى جانبي الصراع، ويأخذ بالاعتبار كل ما يتعلق بإدارة الصراع من حسابات ومعادلات سياسية وميدانية.

المقاومة بين الفعل ورد الفعل

مع تنصيب حكومة نتنياهو الأكثر تطرفا ويمينية، والتي تعهدت بزيادة أعمال القمع والاعتقالات والاغتيالات ومصادرة الأراضي وتهويد القدس، والتضييق على الأسرى.. شهدت الأراضي الفلسطينية تصعيدا أشد عنفا من الأعوام السابقة، وهذا لا يعني أن الحكومات السابقة كانت تؤمن بالسلام، أو أنها كانت معتدلة، لكن هذه الحكومة تجاهر بسياساتها العنصرية والدموية، غير آبهة بردود أفعال العالم، رغم أن ذلك يضر بسمعة إسرائيل، ويضعضع مكانتها الدولية، ويحرج حلفاءها، فهي لم تعد مهتمة بأي حل سياسي، وتعتمد فقط الحل الأمني، ولن تدخل في أي عملية تفاوضية، وستعمد إلى تصعيد إجراءاتها القمعية. وهذا التصعيد ليس الهدف منه مواجهة الفلسطينيين وحسب، بل وأيضا مواجهة الأزمة الداخلية.

ولم تعد مواجهة الفلسطينيين مع الجيش وعلى الحواجز وحسب، بل صارت أكثر ضد قطعان المستوطنين، الذين أطلقت الحكومة أيديهم، وزودتهم بالسلاح، وبصلاحيات ارتكاب الجرائم دون رقيب ولا حسيب، خاصة بعد أن تم اعتماد تشكيل ميليشيات استيطانية مسلحة ستكون بمثابة الجيش الثاني، والذي سينازع الجيش الرسمي دوره، وسيمهد لميلاد دولة المستوطنين، والتي ربما تكون بداية نهاية إسرائيل.

وقد برهنت الأحداث أنه مع كل موجة عنف وتصعيد من قبل الإسرائيليين تأتي النتائج على عكس ما يريدون؛ ففي كل مرة تلجأ السلطات الإسرائيلية للقتل وللقمع والاعتقالات وهدم البيوت تتولد ردة الفعل الفلسطينية، وهذا فعل طبيعي لشعب لا يقبل الظلم، ويرفض الاحتلال، والتي يمكن فهمها في إطار الفعل السياسي المقاوم والواعي والمنظم، وفي إطار ردة الفعل الإنسانية التلقائية ضد أي تهديد خارجي..

وكمؤشرات على موجات التصعيد، منذ مطلع العام الحالي ٢٠٢٣، ارتقى ١٥٩ شهيدًا فلسطينيا برصاص الاحتلال بينهم ٢٧ طفلاً، و٦ سيدات، فيما قُتل ١٩ إسرائيليا، آخرهم سيدة قتلت في قصف الجهاد لمستوطنة روحوفوت، وأُصيب العشرات في عدد من العمليات الفدائية، تركزت في القدس،

وفي شمال الضفة، حيث عرين الأسود وكتيبة جنين، وغيرها من التشكيلات الفلسطينية المسلحة، والتي يبدو أنها أخذت الراية من فصائل العمل الوطني، ولكن بوتيرة نضالية مسلحة.

ووفقا لإحصائيات موثوقة، في العام الماضي ٢٠٢٢، وقعت ٢٨٥ عملية إطلاق نار في الضفة الغربية، أسفرت عن مقتل ٣١ إسرائيليا، مقابل ٦١ عملية وقعت عام ٢٠٢١، وأسفرت عن مقتل ٤ إسرائيليين، و٣١ عملية في عام ٢٠٢٠ أوقعت ٣ قتلى، و١٩ عملية في عام ٢٠١٩ أوقعت ٥ قتلى. ما يعني أنه خلال الأعوام الأخيرة، كانت عمليات المقاومة في الضفة تزداد طردياً مع زيادة جرائم الاحتلال وانتهاكاته، وبالتالي مع سياسات حكومة نتنياهو الأكثر تطرفا ويمينية والتي تعهدت بزيادة أعمال القمع والاعتقالات والاغتيالات ومصادرة الأراضي وتهويد القدس، والتضييق على الأسرى.. سنكون على موعد مع تصعيد أشد عنفا من الأعوام السابقة.

ورغم تصاعد المقاومة وظهور الكتائب المسلحة وتزايد العمليات الفدائية، إلا أن الصورة في الجانب الفلسطيني ليست مثالية تماما، بسبب ضعف السلطة وتدهور شعبيتها، والأزمة الاقتصادية، والعقوبات المفروضة عليها، وبسبب استمرار الانقسام، وتراجع دور الفصائل..

وحتى في صفوف المقاومة، الصورة ليست مثالية تماما أيضاً؛ في الضفة الغربية ما زالت الكتائب المسلحة تفتقر للحس الأمني، في ظل غياب إستراتيجية مقاومة، وضعف التنسيق الميداني والسياسي بينها، وبين الفصائل، التي ما زالت غارقة في الانقسام. الأمر الثاني الذي نلاحظه مع صعود كل تنظيم أو فصيل مسلح، حيث يبدأ بخوض تجربته العسكرية والسياسية الخاصة بمعزل عن التجارب النضالية السابقة، وفي كل مرة نبدأ من جديد، لا يرغب أحد بالاستفادة من تجارب الماضي، وأخذ العبر، وتقييم الدروس، يظن البعض أن النضال الفلسطيني بدأ معه فقط.. لأننا نتعامل مع "المقاومة" بتقديس وبنهج تبريري، ولا نقدم لها أي مساءلة أو نقد.. فهذه من المحرمات.. نتعامل مع شعبنا كحقل تجارب (وبالذات في غزة)، فغزة بالنسبة للبعض مجرد ميدان للمعارك، وليس فيها مليوني إنسان!

وإذا كانت الصواريخ هي الأسلوب الرئيسي والمعتمد في المقاومة، فلماذا لا نقيم هذه التجربة بروح وطنية مسؤولة؟ مع الإقرار بأن المقاومة أنجزت تطويرا مهما ومذهلا على الصواريخ، في الفاعلية، والمديات، ودقة التصويب، وأنها جعلت منها أداة ردع مهمة، وأحد الشواهد على دموية النضال ورفض الذل ومقاومة الاحتلال، وإدامة الصراع.. لكن حصر المقاومة في الصواريخ فقط هي الكارثة التي تبقي الجماهير في مقاعد الانتظار، وهي التي تجعل إسرائيل في دور الفاعل، والمبادر، والمتحكم في جميع المسارات.

وفضلا عن خسارة قوة الجماهير، الخطأ الثاني إبقاء المقاومة في صيغة ردة الفعل، دون تبني

إستراتيجية وطنية للمقاومة بحيث تكون فعلاً يومياً دائماً ومستمراً وبأساليب وأدوات ناجعة ومبنية على تحليل الوضع وتقدير الموقف بشكل منهجي، وتعتمد على الجماهير بشكل أساسي.

وبناء على ما تقدم، واستنادا إلى فهم وتحليل المعطيات السياسية الراهنة فإن المرحلة الحالية التي يعيشها الفلسطينيون مرحلة دفاع إستراتيجي، وبالتالي أهم ما يمكن إنجازه هو الثبات والصمود فوق أرضهم، مع مواصلة المقاومة الشعبية السلمية، أما العمليات الفدائية فهي مهمة من حيث الردع، وإبقاء جذوة المقاومة متقدة وتمريرها عبر الأجيال، والإبقاء على حضور القضية الفلسطينية في الضمير العالمي وفي المحافل الدولية.. وهذه مسائل على درجة كبيرة من الأهمية.. إلا أنها لوحدها ليست هي الحل النهائي.. ولكن على الفلسطينيين ألا ينجروا وراء الخطاب العاطفي والشعبوي، وأن يتنبهوا للشعارات البراقة الزائفة، ولأجندات الأطراف الإقليمية.

تأثير تغيرات المشهد الإقليمي والدولي

عربيا وإقليميا: جاء اجتماع العقبة في آذار الماضي بعد تصاعد الأحداث في المنطقة على نحو خطير. وبعيدا عن التصريحات الإعلامية "الدبلوماسية" لكل طرف، والتي تخفي وراءها النوايا الحقيقة، بات واضحا أن الهدف الحقيقي لإسرائيل و الولايات المتحدة من هذه القمة يمكن إيجازه بكلمتين: "إنهاء المقاومة"؛ وهو هدف قديم لم تتمكن إسرائيل من تحقيقه رغم كل إجراءاتها القمعية.

ولم تُحدث هذه القمة تغييرا يُذكر على الأرض، فقد وافق الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي على ما طرحته واشنطن من عدد من أنصاف التدابير المستهلكة التي تستهدف تقليص التوترات بشكل مؤقت، ثم أظهرت التطورات الميدانية بوضوح أن هذه الاتفاقات كانت غير كافية ومنفصلة عن الواقع. فقد اقترف جيش الاحتلال بعد القمة مباشرة مجزرة في نابلس استشهد فيها ١١ مواطناً، وفي غضون اختتام القمة، قتل مسلحون فلسطينيون مستوطنين إسرائيليين في "حوارة"، وفي غضون ساعات قليلة، نزل مئات المستوطنين المتطرفين إلى البلدة وعاثوا فيها فسادا، قتلوا فلسطينيا، وهاجموا وأصابوا مئات السكان بجروح، وأضرموا النيران في مئات المنازل والسيارات.

التطور الثاني انعقاد القمة العربية في "جدة" في أيار، وهذه القمة أعلنت بصورة غير مباشرة أن السعودية هي التي ستقود النظام العربي، إلى جانب دول الخليج التي ما زالت فاعلا مهما ولاعبا قويا ولكن بأموالها وإعلامها. وأنَّ مصر ما زالت غير مهيأة وربما غير مستعدة لاستعادة دورها الإقليمي ومكانتها في النظام الدولي.. وهذا الدور ما زال مؤجّلاً ومُرتهناً لأزمات مصر الاقتصادية ومشاريعها التنموية، وأزمة المديونية، وهي حلقة مُفرغة من الأزمات المتتالية والمتراكمة لا حلّ لها إلّا بصيغة من التحالف المصري السعودي.

لكن القمة من جهة أخرى بدا وكأنها تحتفل بانتصار النظام العربي الرسمي على الشعوب وانتفاضاتها ومحاولاتها في انتزاع حريتها، أو بقول آخر صفّت آخر تداعيات الربيع العربي. كما أنها أزالت الفوارق والتصنيفات السابقة بين النظام الرسمي الموسوم بالمنبطح والمتماهي مع الولايات المتحدة، والدول التي كانت تعد نفسها في محور المقاومة، فقد تم تطبيع العلاقات بين سورية والسعودية والإمارات، كما أزالت الحدود الوهمية بين الدول الحليفة للولايات المتحدة والمطبعة مع إسرائيل والدول المتحالفة مع روسيا والصين. وبين الأنظمة العسكرية والأنظمة التي كانت تدعي المدنية والديمقراطية.

أما تأثيرها على القضية الفلسطينية فلم يختلف كثيرا عن سائر القمم السابقة، فقد اكتفت بخطاباتها وبيانها الختامي بأن القضية الفلسطينية هي قضية العرب الأولى، وتتربع على رأس النقاشات، وأعادت الديباجة المعهودة بالدعوة إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس وفق قرارات الشرعية الدولية ومبادرة السلام العربية، ودعوة المجتمع الدولي الى الاضطلاع بمسؤولياته لانهاء الاحتلال وتوفير الحماية الدولية للشعب الفلسطيني.. وهذا الكلام الجميل يتناقض مع الأفعال، فمثلا مبادرة السلام العربية تنص صراحة على اشتراط التطبيع مع اسرائيل بإنهاء الاحتلال وإقامة الدولة وإيجاد حل عادل لقضية اللاجئين.. فهناك عدد من الدول عقدت اتفاقات سلام وتطبيع مع إسرائيل (الاتفاقات الإبراهيمية) ضاربة عرض الحائط بنصوص وجوهر مبادرة السلام العربية نفسها، بذريعة أن الاتفاقات الثنائية شأن خاص بها، وقرار سيادي خاص بكل دولة عربية.

أما لجنة القدس فهي لا تفعل شيئا ولا حتى على مستوى التصريحات بشأن الاستيطان والتهويد واقتحامات الأقصى وتغيير معالم المدينة وممارسة بعض أشكال التطهير العرقي.

فيما يتعلق باستمرار الحرب الروسية الأوكرانية، من الواضح أن مسألة الحسم ما زالت بعيدة، وأن رهانات الغرب على العقوبات الاقتصادية ضد روسيا، وتزويد أوكرانيا بالسلاح رهانات خاسرة، كما أن رهان روسيا على ركوع أوروبا على ركبتها بعد أن ترتجف بردا في الشتاء (بسبب أزمة الوقود) هو أيضا رهان خاسر.. وبالتالي قد يطول أمد الحرب، وتتفاقم تداعياتها السلبية الاقتصادية والاجتماعية على عموم العالم. ما يعني أن النظام الدولي الجديد المرتقب ما زال في طور التشكل، ولكن بصورة عنيفة، رغم أن عناصر التأثير والحسم في هذا النظام تعتمد على الاقتصاد والتكنولوجيا بصورة رئيسة، إلا أن القوة العسكرية تؤثر بل وتحسم أحيانا.

لكن تلك الحرب منحت السعودية لحظة تاريخية تمكنت من التقاطها بذكاء (في حين أخفقت في ذلك دول عربية عديدة من بينها السلطة الوطنية)، فقد انحازت السعودية هذه المرة لمصالحها الوطنية، وأعلنت ما يمكن تسميته تمردا على الولايات المتحدة، تمثل ذلك في الاستقبال البارد

للرئيس بايدن، الذي زار السعودية بكامل ضعفه الصيف الماضي، وفشل الولايات المتحدة في إقناع السعودية بزيادة إنتاج النفط، والتغير المهم في هذا السياق أن الولايات المتحدة لم تعد تعتمد على النفط المستورد، بل صارت من الدول المصدرة، الأمر الذي فهمته السعودية بالتوجه إلى الصين كمستورد أساسي، واستقبلت الرئيس الصيني استقبالاً يليق بصديق كبير.

وفي السياق ذاته وافقت السعودية على مبادرة الصين بترميم علاقاتها مع إيران، وفي هذا تحول هام، حتى لو لم ينجم عنه تحالف عسكري وأمني، فهو على الأقل يعطل الماكينة الإعلامية الإسرائيلية والأميركية التي دأبت على تضخيم الخطر الإيراني، واعتبار إيران هي عدوة العرب (وليست إسرائيل)، بمعنى آخر سيتغير الخطاب الإعلامي العربي تجاه إيران، وربما تتطور الأمور إلى تحالفات تعيد ترتيب مراكز القوى في الإقليم، وسيضعف تأثير إسرائيل على دول الخليج المطبعة.

الحدث الآخر اندلاع صراع مسلح في السودان بين قطبين عسكريين هما في حقيقة الأمر يتصارعان على لعب دور الوكيل لمشروع السلام الإبراهيمي، وهذه الحرب ستعمق أزمات السودان السياسية والاقتصادية، وستبعدها أكثر عن التأثير في المنطقة. كما جرت في تركيا انتخابات عامة، لم تحسمها الجولة الأولى، وفي اعتقادي أن نتائج الجولة الثانية مهما كانت لن تحدث تغييرا مهما في سياسات تركيا الخارجية، خاصة تجاه الصراع العربي الصهيوني، وربما يكون أثرها على مستقبل حركات الإسلام السياسي في الدول العربية.

إسرائيليا: وصلت الأزمة الداخلية إلى مستويات غير مسبوقة، خاصة بعد تنصيب حكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة، وهذه الحكومة بدأت محاولاتها تغليب التيار الديني اليميني ومساعدته على الإستيلاء على أهم رموز الدولة (القضاء، الجيش) الأمر الذي استفز الشارع الإسرائيلي، وجعله يعيش حالة خوف وقلق من مستقبل دولته، ووجوده فيها، خاصة مع قناعته بأن سيطرة الحكومة على القضاء سيحول إسرائيل إلى دكتاتورية عسكرية ودولة دينية فاسدة، ولا مكان فيها لا لليسار ولا للوسط، ولا للعلمانيين، ولا للحياة المدنية والديمقراطية.. ولم يكتفِ الشارع الإسرائيلي بالتعبير عن رفضه لهذا التوجه، بل نزل إلى الشارع في شكل مظاهرات حاشدة كانت تضم مئات الآلاف من الإسرائيليين، المطالبين بإسقاط الحكومة، ولم تتوقف هذه الاحتجاجات إلا أثناء الحرب على غزة، وربما تعود من جديد، كما أن نتنياهو ما زال يواجه أزمة داخل حكومته تتمثل في ابتزاز الأحزاب الدينية له، ودفعه لاتخاذ ساسيات عدوانية أشد عنفا تجاه الفلسطينيين، وخطوات باتجاه إحكام سيطرة اليمين الديني على مؤسسات الدولة، وصولا إلى تغيير هوية الدولة والمجتمع، وهذا مفترق خطير يضع مستقبل إسرائيل على المحك. وقيمة وأهمية حراك الشارع الإسرائيلي وتعالي أصوات المعارضة لا تكمن في إمكانية إسقاط حكومة نتنياهو، فهذا وارد لأكثر من سبب، ولكن البديل لن يكون أفضل،

قيمتها الحقيقية في كونها تعبير عن تعمّق أزمة المشروع الصهيوني، وظهور علامات التصدع في المجتمع اليهودي؛ فالمعارضة موجهة أساسا ضد توجهات اليمين لتحويل إسرائيل إلى دكتاتورية دينية متطرفة، وهذا ضد إدعاءات الصهيونية أساسا، وضد مصالح الأغلبية السكانية..

كما خلقت هذه الحكومة فجوة بينها وبين الولايات المتحدة، حيث فترت العلاقات بينهما، حتى الاتحاد الأوروبي عبر عن تحفظاته إزاء الرموز المتطرفة في الحكومة، وإزاء تصريحاتها وتصرفاتها.. وهذا يضع علاقات إسرائيل الخارجية في أزمة.

خلاصة

ما يحدث على أرض الواقع أنه كلما صعّدت إسرائيل من إجراءاتها القمعية كلما تهيأت الظروف لتجدد المقاومة وتوسيع دوائرها، وكلما قتلت مقاوما نبتَ مكانه عشرات المقاومين.. وهذا ليس كلاما إنشائيا، أو مجرد عواطف وطنية.. هذه حقيقة موضوعية على إسرائيل إدراكها، وإلا بقيت البلاد في موجات متلاحقة من العنف والدم.

مشكلة إسرائيل الأزلية أنها تفكر وتتصرف بعقلية المحتل المتغطرس، وقد تعمقت هذه المشكلة أكثر مع صعود اليمين الصهيوني القومي والديني، فسابقاً، كان صناع القرار في الحكومات الإسرائيلية يستمعون، ولو قليلا، لمراكز الأبحاث، وما يقوله الخبراء، اليوم، مع شعور إسرائيل بتخمة القوة، ونشوة الهيمنة، لم تعد ترى العالم، صارت ترى نفسها في مرآتها النرجسية، واختفى العقل المفكر تماما، ولم تعد القرارات بناء على دراسات وتفكير وتخطيط إستراتيجي؛ صارت فعلا مبنيا على الأساطير التوراتية والخرافات الدينية والأطماع التوسعية ومصالح الأشخاص والأقطاب، وبنَفَس استعماري استعلائي عنصري، وأحقاد دفينة، وعمى سياسي..

رغم قتامة المرحلة، وصعوبتها وخطورتها، إلا أنّ ما يبشّر، ويبعث على الأمل أنَّ الأجيال الطالعة ما زالت تحمل لواء المقاومة، وما زالت تؤمن بعدالة قضيتها، وتكافح لتعويض ما أصابنا من ضعف، وخواء وما جره علينا الانقسام.. فتراجع دور الفصائل جعلها تتولى حمل الأمانة بشجاعة وبسالة.. وهنا أنادي بإعادة النظر بما يسمى البطولات الفردية، والعمليات الفردية، لأنها في حقيقة الأمر ظاهرة يتسم بها عموم هذا الجيل، بموجات نضالية متلاحقة، يتم التعبير عنها بعمليات فدائية فردية، وبتشكيل المجموعات والكتائب المسلحة، وبتدفق الجماهير الغاضبة في الساحات، وعلى نقاط التماس.. وبالثبات والصمود الشعبي، وممارسة كافة أشكال المقاومة..

كما ينبغي التوقف عن خطاب الثأر والانتقام؛ فالمقاومة الفلسطينية ليست ثأرية، وليست انتقاما لقائد اغتالته إسرائيل.. المقاومة فعل إنساني وأخلاقي وسياسي لشعب يرفض الاحتلال، ويتطلع

للحرية، وعينيه على المستقبل.

شعبنا الفلسطيني في الداخل والخارج (ومعنا كل الشعوب العربية) لم يتوقف يوما عن دعمه وإسناده للمقاومة، وهو مستعد دوما أن يشكل حاضنة دافئة لها، وأن يضحي من أجلها بأغلى الأثمان.. ولكن هذا يتحقق وبلا حدود فقط حين تكون المقاومة موحدة، وهدفها وطني فلسطيني واضح لا لُبس فيه، وليس لخدمة مشاريع أيديولوجية عابرة للحدود، وليس فيه تدخلات أجنبية، ولا يخدم أجندات سياسية لقوى إقليمية تتعامل مع القضية الفلسطينية كورقة مساومة ولتقوية شروطها التفاوضية، وتحسين مكانتها الإقليمية، ولا يأتي في سياق الصراع الداخلي والتنافس الحزبي.

٧٥ عاما من الظلم التاريخي والنكبة المستمرة والمتغيرات الجارية

مروان اِميل طوباسي *

بغض النظر عمّن من ساهم بتنفيذ المشروع الصهيوني من مسيحيين ومسلمين قولاً خدموا الحركة الصهيونية فعلاً باشكال سياسية ومالية وغيرها ، بل وكانوا جزءاً من مكونات فكرها حين ساهموا في اضطهاد اليهود ووضعوا عراقيل أمام حق مواطنتهم وفق ما كانت ترغب به الحركة الصهيونية من عدم حل المسألة اليهودية بالمجتمعات الاصلية لهم ، الأمر الذي حذر منه قائد الثورة الاشتراكية لينين في حينه ، لاجبارهم على الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين وتهجير شعبنا الأصلي صاحب الأرض منها . رغم ان اليهود العرب شكلوا جزءاً أساسياً من الشعوب العربية وان الديانة اليهودية هي نتاج هذه المنطقة كغيرها من الديانات ، كما كان أيضا يهود أوروبا جزءاً من مجتمعاتها تعرضوا إلى نفس الحالة بفعل المؤامرة والاتفاقيات مع الحركة الصهيونية وخاصة مع النازيين وفق اتفاقية "حاعافارا» انذاك .

والاَن فانه من الطبيعي أن "دولة» قامت على أساس التطهير العرقي وفكر الإستعمار الإستيطاني بعد ٧٥ عاما دون مسائلة من النظام الدولي القائم بل وبتشجيع على ارتكاب جرائمها ، أن يَتسم النظام السياسي فيها بجوهر الفكر الصهيوني الديني العنصري بأشكال فاشية وتصاعد أزماتها الداخلية والفوضى السياسية وبالإصرار على تطويع تشريعاتها ونظامها القضائي على هذا الأساس

ووفقا لعدد من التوجهات التي من أبرزها ، أن للشعب اليهودي حقاً حصرياً وغير قابل للتصرف في جميع أنحاء «أرض إسرائيل»، بحيث تشجع حكومة الإحتلال توسيع الوجود اليهودي في جميع أنحاء أرض إسرائيل - في الجليل والنقب والجولان و»يهودا والسامرة»، وفق أقوال نتنياهو .

فان التوجهات تلك اصبحت ترسم الأسس وتساهم في تنفيذ تصورات الحل النهائي للقضية الفلسطينية

* سفير سابق لفلسطين لدى اليونان.

على طريقة سموتريتش وبن غفير وأمثالهم ، وهي مأخوذة من سفر يشوع بالتوراة ، حيث يُقدم سفر يشوع نظرة عامة على الحملات العسكرية لإمتلاك الأرض التي «وعد بها الرب» حسب اعتقاداتهم بعد الخروج من مصر والسنوات الأربعين من التوهان في البرية .

فيقول «أن الأمة المشكَّلة حديثاً اصبحت جاهزة لدخول أرض الموعد، والإنتصار على سكانها وإحتلال الأرض."

حيث ووفق روايتهم التي ترسم معالم رؤيتهم ، يقوم الإسرائيليون الغزاة بتنفيذ عملية إبادة ضد الكنعانيين الأصليين، حتى لا تُترك روح واحدة تتنفس ، بحسب توصيف حاخاماتهم ومفكري الصهيونية الدينية.

فبحسب هؤلاء ، فقد أرسل يشوع وهو من ورث القيادة بعد موسى، إلى الكنعانيين رسالة نصحهم فيها بالفرار، ثم يمكن للذين بقوا أن يقبلوا بمكانة المواطنة الدنيا وباستعبادهم، وأخيراً، إذا قاوموا، سوف تتم إبادتهم.

وكان سموتريتش وغيره قد قدموا هذه الرواية كخطة ورؤية علناً باعتبارها التحول المطلوب إلى المرحلة الحاسمة من الصراع، فإذا لم يهرب الفلسطينيون ورفضوا القبول بمواطنة أدنى ، كما يفعل أي شخص ذو كرامة، «سوف يعرف جيش الدفاع الإسرائيلي ما الذي يجب عمله»، كما يقول هذا العنصري .

لذا برأي العديد من المتابعين ، فإن مصطلح الفاشية، ليس المصطلح الصحيح لوصف جوهر إسرائيل الحالي بعد ٧٥ عاما من جريمة النكبة ، كدولة عنصرية ودولة نظام أبارتهايد قائم على أساس الفوقية اليهودية واسسها ، فالعديد من المصطلحات الأخرى من الممكن أن تفي بالغرض أكثر من مصطلح فاشية رغم انه يعبر عن شكل قائم الآن فيها أكثر من أي وقت مضى حتى بحق مواطنيها من اليهود أنفسهم .

فما يحصل اليوم ، هو أن نظام دولة الإستعمار هذه لم يعد يخفي كونها دولة الشعب اليهودي فقط، بالإضافة إلى أنها لم تعد تُظهر أي اهتمام بأن تكون أو تبدو كدولة ديمقراطية أو أن تجاهر بتقويض حتى الفكر الليبرالي الصهيوني فيها .

فالسؤال الممكن هنا ، عما إذا كانت إسرائيل تتحوّل الان إلى دولة فاشية ؟ أنا أفضل أن يكون السؤال هل من الممكن أن لا تكون إسرائيل دولة فاشية؟

ان الأمر لا يقتصر على الدولة او شكل النظام السياسي فيها ، فالمجتمع الإسرائيلي أصبح فاشياً ينزلق إلى وحل العنصرية المطلقة التي أصبح يعيش بها .

فإسرائيل هي دولة فاشية منذ ان قامت على أساس من التطهير العرقي وتمارس الإحتلال الاستيطاني قبل ٧٥ عاما ، وهي دولة إثنوقراطية حيث اليهود يحتكرون كافة الحقوق وفق قانون القومية العنصري نفسه .

فوصف إسرائيل بدولة فاشية أو دولة مارقة فوق القانون الدولي حتى ، هو نتاج قراءة تجزيئية قد تنطبق على دولة قامت وفق أسس طبيعية. فالفاشية ومفهوم الدولة المارقة هما عرضان وتفسيران ممكنان لجوهر الصهيونية باعتبارها حركة عنصرية استعمارية استيطانية حتى وفق قرار الأمم المتحدة الذي تم التواطئ على إلغائه عام ١٩٩١.

أما الإصرار على صفة الفاشية وحدها فهو يشير إلى عملية تضليل تمهد الطريق للتعامل معها كدولة طبيعية لديها إشكالات محلية تتعلق بمعاداة الديمقراطية والليبرالية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات، وهي سمات مشتركة مع أنظمة عالمية انحدرت نحو الفاشية . بل إن الإصرار على صفة الفاشية فقط قد يكون هو جواز عبور لاندماج دولة الإستعمار الصهيوني في المنطقة العربية التي هي محكومة بعدد من الانظمة غير الديمقراطية اصلاً والتي جاز وصفها بالفاشية في مراحل من تكونها ، وهو ما يهمش مقاربة الطبيعة الصهيونية كحركة استعمارية تقوم على المحو والإبادة للسكان الأصليين ويجعل من اتفاقيات التطبيع»ابراهام» التي ترعاها الولايات المتحدة والتي تتمحور سياساتها بمقاربات مع جوهر الفكر اليهودي الصهيوني ، ويشجعها الاتحاد الاوروبي الذي أصبحت الفاشية تصعد في بعض دوله اليوم امراً طبيعيا .

ان مقاربات الصهيونية منذ ما قبل ٧٥ عاما مع النهج السياسي الأميركي والغرب بشكل عام يرتبط بمحددات متعددة منها مصادر الفكر الصهيوني نفسه والتفسيرات المُبتدعة للديانة المسيحية من الانجيليين للتوراة والانجيل ومن ثم المسيحيين الصهاينة ، وهي تهدف بتطويعها بحسب رؤية الغرب إلى استبدال الحقوق الفلسطينية الوطنية التاريخية والسياسية بحوافز مالية وحلول اقتصادية قي مناطق من الكانتونات معظمها سوف يقع فى خانة الوعود والأوهام تحت استمرار تبني مبدأ حل الدولتين ، الذي تم تقويضه اساسا ، بهدف استدامة الإحتلال والاستيطان على ٦٠٪ من الاراضي الفلسطينية المحتلة بالضفة الغربية دون كلفة عالية وبتواجد قرابة المليون مستوطن يهودي صهيوني فيها .

ومن هنا فإن رؤية حكومة نتينياهو الحالية والتي ستعمل دون مواجهة صلبة مع الولايات المتحدة خاصة مع سيطرة اليمين الجمهوري على الكونغرس ووجود تيار مؤيد لسياسات إسرائيل الإستعمارية حتى بالحزب الديمقراطي الذي يتفاخر رئيسه بايدن بالانتماء الى الفكر الصهيوني ، سوف تركز على تصعيد الجرائم اليومية وزيادة القهر والضم والاستيطان متحملة للبيانات والانتقادات اللفظية في محاولة منها لاذابة الحقوق الوطنية الفلسطينية التاريخية او التي اقرتها الشرعية الدولية ، تحت شعار

تحسين شروط الحياة ، إلى حين انتهاء السنوات الأربع القادمة من حكم نتينياهو الذي سيترافق مع ازمات داخلية مختلفة أمام ضعف الحال العربي وبطء التحولات الجارية بالنظام العالمي التي قد تأخذ وقتا طويلاً ، ما يهدف إلى محاولة تحقيق الخطوة الأخيرة من برنامجه وهو برنامج الحركة الصهيونية العالمية من إدارة الصراع الحالي الى إغلاق الملف الفلسطيني والإعلان عن انتهاء قضية فلسطين كمحطة أساسية فى المخطط الصهيوني الأميركي – الإسرائيلي ، بالمقابل الدفع نحو مزيدٍ من اتفاقيات التطبيع مع دول عربية واسلامية جديدة دون أن يكون هناك اي عقبات خطيرة أمام المخططات والأحلام الصهيونية.

والنقطة القادمة والأخطر هي اعتراف اميركا بقانون القومية اليهودي بعد اعترافها بالقدس كعاصمة لهم ، والذي تم اقراره سابقا بالكنيست الإسرائيلي زمن حكومة نتنياهو السابقة ، الذي يقول أن إسرائيل دولة قومية يهودية، والشعب اليهودي هو صاحب الأرض ، رغم ان اليهودية ليست بقومية ولا اليهود يشكلون مفهوم شعب .

اما السؤال الوارد أمامنا، فهو هل سننجح وكيف في استثمار النفور العالمي من دولة الإحتلال جراء ما هو جارٍ من تصعيد لجرائم ولتحولات تحمل اشكال الابرتهايد والاستيطان والفاشية معا ، من اجل محاصرة وعزل دولة الإحتلال ولجم عدوانها المستمر والمتصاعد وصولا الى حقنا بتقرير المصير والإستقلال الوطني.

أن الاجابة على تساؤلي يكمن بالسؤال السائد اليوم بشأن مسار القضية الفلسطينية ، وما هي الرسالة التي يجب أن يوصلها طرح روايتنا كأمرٌ ضروري ينطوي على مصلحة وطنية ملحة ، وما هي أسس نهج المواجهة المطلوبة الآن.

ان هنالك ضرورة للتعرف النقدي إلى كيفية رواية التاريخ وإلى غرضِه وغايته ، وتتضح هذه الضرورة في تفنيد الرواية الصهيونية القائمة على نفي حق شعبنا في وجوده على ترابه الوطني واحلال مكانه خرافة ما سُمي بالشعب اليهودي وحقهم المزعوم في تقرير المصير من خلال انشاء منظموتهم الإستعمارية ، ومحاولاتهم محي وكي الذاكرة الجماعية للشعب الفلسطيني منذ بداية جريمة التهجير القسري والتطهير العرقي «النكبة» ، بعد أن كان اليهود جزءاً من الشعب الفلسطيني أو شعوب اخرى قبل قرن من الزمن كما ذكرت .

حيث ومنذ ذلك الوقت تواجه رواية التهجير الفلسطينية والنفي والإحتلال والتمييز العنصري جهودا ممنهجة ومنظمة تهدف إلى تفريغها من دلالاتها و»تطبيع» الوضع الراهن ، وإظهار الصراع وكأنه مسألة اراضٍ متنازع عليها ، أو مسألة تحسين شروط حياة او حكم ذاتي محدود في احسن الحالات .

فهنالك مفارقات واسعة تاريخية وقانونية بين روايتنا التاريخية وروايتهم المزعومة ، بل وثقافية أيضا ، تعكس مدى الهوة الواسعة بينهما والى كيفية استثمار تلك الرواية سياسيا في الوصول الى تحقيق الرؤية ، والى ضرورة التخلص من مفردات ومصطلحات أصبحت دارجة بالخطاب الدولي أو المحلي تتسم بالخطأ التاريخي أو تؤدي الى اغفال حقنا التاريخي على ترابنا الوطني وحقيقة روايتنا .

وبغض النظر عن التحديات التي تواجه دولة الإحتلال الإستعماري اليوم بعد ٧٥ عاما من بدايات جريمة الاستيطان في فلسطين الذي اتجه إلى مفهوم استكمال مشروع الحركة الصهيونية في كامل فلسطين التاريخية او الانتدابية وفق روايتهم ، فإن تلك التحديات التي نراها اليوم بحكم عدم عبثيتنا السياسية والتي تتلخص اساسا بالتحولات الجارية نحو الانحدار لشكل الفاشية الدينية وما له علاقة بانقسامات مجتمعهم المتصاعدة الآن ومظاهر الأزمة لديهم ، في غياب معسكر معاد للصهيونية العنصرية .

إضافة إلى ما امامهم من التحديات الإقليمية المتمثلة في الملف الايراني وتطور الأوضاع بسوريا والعراق ولبنان .

بالإضافة الى تداعيات المتغيرات السياسية الدولية الجارية الآن والمترتبة عن استمرار الحرب بالوكالة التي افتعلها الناتو في أوروبا والذي يشكل تحدٍ آخر لدولة الإحتلال الإستعماري وحكومتها الحالية ، خاصة إذا ربطنا ذلك بالعلاقات الروسية الإسرائيلية وكيفية تطور اتجاهاتها في ميزان الربح والخسارة لإسرائيل ومكانتها ، خاصة مع بداية ولوج العالم إلى نظام دولي جديد ينهي الهيمنة الأميركية احادية القطب ويهدد مكانة وتفوق دولة الإحتلال لاحقا كتحصيل حاصل.

اما التحدي الأساس فيتمثل بما له علاقة من تحديد لرؤيتنا نحن الفلسطينيين في مدى نجاحنا بمواجهة استمرار هذا الإحتلال الإستعماري بكل مظاهره وتجزيئاته العنصرية والفاشية الدينية المتنامية الآن التي أصبحت تصبغ شكل النظام في دولة الإحتلال الإستعماري اكثر من السابق.

لذلك وامام وضوح تلك التحديات ، علينا أن نبني رؤيتنا للمرحلة القادمة من المواجهة استنادا لروايتنا التاريخية الحقيقة ، ولتقييم تجربة مسيرة حركتنا الوطنية بروح نقدية وما تمخض عنها من أشكال كفاحية وتنظيمية .

فقد بدأ التاريخ الفلسطيني قبل نكبة ١٩٤٨ بزمنٍ طويل في مراحل سطوة الامبراطورية العثمانية عندما كان اليهود والمسلمون والمسيحون يعيشون كفلسطينيين ، بل إن شعبنا الفلسطيني أمضى معظم النصف الأول من القرن العشرين في مقارعة الإحتلال البريطاني أو ما سُمي بالانتداب الذي هيأ عمداً لبدايات الإستعمار الصهيوني لارضنا لاحقا من أجل منعنا من تقرير مصيرنا وعمل على محاولات محو وجودنا .

رؤية يجب أن ترتبط بالرواية التاريخية لشعبنا ووجودنا في وطننا منذ تاريخ الكنعانيين مرورا بمراحل التحضير والتنفيذ لجريمة التهجير القسري والتطهير العرقي وصولا للحالة التي نحن عليها اليوم والتي تتلخص بنفي امكانية ما كانت بعض الأوساط الإسرائيلية تحاول الإيحاء بخصوصه امامنا وامام العالم ، بأنه يمكن للفلسطينيين إقامة «دولتهم» على ما يتبقى من الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٦٧ بعد أن تكون إسرائيل قد استولت على أكبر قدرٍ منها بأقل عدد من سكانها الفلسطينيين بدلا عن كافة الأراضي المحتلة بما فيها القدس .

ولكن حتى لو افترضنا أنه سيُسمح باقامة كيان فلسطيني محدود ، فإن ذلك الكيان سيكون منزوع السيادة، وغير قابل للإستدامة اجتماعيًا واقتصاديًا، ومُقطع الأوصال جغرافيا بعد اقل بقليل من وجود مليون مستوطن والسيطرة على جزء كبير من تقسيمات الاراضي التي ترتبت بموجب اتفاق اوسلو الذي هدفت الحركة الصهيونية من خلاله الوصول الى الحالة القائمة الان بعد ان انهته بنفسها . الامر الذي عنى الإجهاض المتعمد للحل الدولي القائم على مبدأ حل الدولتين وحتى لما تبقى من هوامش للإتفاقيات السابقة التي اسقطها الإحتلال تهيئةً لذلك الغرض . علما بأن ما تم الاتفاق عليه في أوسلو بالاصل لفترة انتقالية كان قد انتهى عام ١٩٩٩ ، بل ولم يأتِ على ذكر إقامة الدولة ، ولم تجر بعد ذلك التاريخ مفاوضات حول القضايا النهائية كما كان مفترضاً ، بل عمل الاسرائيليون على تقويض صلاحيات السلطة الوطنية الفلسطينية وحصارها في شكل جديد لمفهوم الحكم الذاتي دون سيادة .

وفي هذا السياق لن يتوفر أي حل للصراع الفلسطيني الإسرائيلي قابل للديمومة إنْ تجاهل حق السيادة وحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى موطنهم ، وليس إلى «دولة» مقامة على أجزاء من الضفة الغربية وقطاع غزة التي لن يرضى بها شعبنا منقوصة ، بل وبالأساس إلى موطنهم الأصلي أيضا الذين شردوا منه قسراً وتنفيذ حق تقرير المصير لشعبنا وتحقيق استقلاله الوطني وضمان حقوقه القومية بغض النظر عن الحل النهائي إن كان على شكل دولتين ذات سيادة وفق اهمية اعتراف ١٤٠ دولة بدولتنا المستقلة وعاصمتها القدس الشرقية، أو بحل دولة ديمقراطية واحدة تتساوى بها الحقوق القومية والاجتماعية دون تمييز بغياب الفوقية الدينية او الاثنية الصهيونية التي تمارس الآن ، وهو أيضا حل لن تُسلم الحركة الصهيونية به لأنها تريد دولة يهودية خالصة فوقية وعنصرية من البحر إلى النهر تتفق والرؤية التلمودية حول مملكة إسرائيل.

من هنا علينا الاعتماد على رؤية واضحة وفق تلك التطورات والمتغيرات تستند إلى تشبيك أوسع مع قوى التقدم والديمقراطية من الشعوب والدول، و تعزيز التراث الفكري والكفاحي لدور ومكانة منظمة التحرير الفلسطينية أمام محاولات تطويعها من جانب الغرب وبعض العرب المطبعين وبناء رؤية وطنية إستراتيجية شاملة وموحدة لدورها في قيادة كفاح شعبنا بوحدة وطنية في كافة اماكن

تواجده دون اختزال قضية شعبنا بالمتواجدين فقط في الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧ . والانتقال بمهام السلطة الوطنية إلى تنفيذ برامج صمود حقيقية تعزز تمكين شعبنا من المواجهة بالقطاعات المختلفة الاقتصادية والاجتماعية لإدراكنا أن التنمية المستدامة تحت الإحتلال خرافة ، كما وتعزيز العمل جديا نحو الانفكاك بالعلاقات مع دولة الإحتلال واجهزتها المختلفة ليكون الإحتلال اكثر كلفة ، من خلال التكامل مع أشكال المقاومة الشعبية والاقتصاد المقاوم والمقاومة السياسية الدبلوماسية والقانونية ، حتى لا يبقى هذا الإحتلال الاستيطاني هو الأرخص بالتاريخ كما وصفه الأخ الرئيس أبو مازن في وقت سابق.

لذلك هنالك ضرورة بعدم جعل العام ١٩٦٧ عام احتلال إسرائيل بقية الأرض الفلسطينية جوهر العديد من مفاصل الخطاب الإعلامي السياسي ، سواءً بقصد أو بغير قصد ، فهذا يُسقِط المسؤولية عن سيرة الظلم التاريخي الذي تعرض له الشعب الفلسطيني إبان الانتداب البريطاني وما تبعه من إقامة كيان استعماري داخل ذلك الكيان الانتدابي الذي خُطط له منذ ١٩١٧ من جانب قوى الإستعمار ونفذته العصابات الصهيونية ، هذا الظلم والتوحش الذي ما زال شعبنا يتعرض له حتى يومنا هذا ، حيث باتت المجازر واعمال القتل والتدمير تتم بشكل يومي في ظل صمت دولي مُعيب ومنافق ، كما حدث وما زال يحدث من جرائم القتل والتدمير ضد شعبنا في غزة ونابلس وجنين والقدس وبكل المدن والمخيمات الصامدة .

إن ما اتخذته القيادة الفلسطينية سابقا من قرارات تعتبر امراً طبيعيا في مواجهة الحالة الجارية ، لكنها هامة في رسم رؤية المواجهة الحالية المطلوبة ، والتي باعتقادي يجب أن تستند إلى الأسس المذكورة في تصويب بعض المغالطات لتكون الرواية مكتملة وصحيحة .

أن كل نص من تلك القرارات المتخذة خاصة المتعلق منها بوقف التنسيق الأمني والحوار الوطني الشامل ومتابعة العمل بالمحافل والمحاكم الدولية وتصعيد المقاومة الشعبية يحتاج كل منها الى تفصيلات دقيقة تشكل برامج عمل جدية وعملية وادوات فاعلة وواضحة بهدف تحقيقها ضمن استراتيجية وطنية بديلة عن تلك التي جرت بالعقدين الاخيرين وافشلها الإحتلال من جهة أو من خلال بعض مظاهر عدم المسوؤلية لدينا من جهة اخرى ، حتى تؤخذ رؤيتنا بشكل جدي من جانب المجتمع الدولي أو من جانب من يمارسون سياسات الترهيب والتخويف بحقنا مقابل سراب ووعودات واهية من الولايات المتحدة لن تؤدي سوى لإستدامة الوضع القائم .

حتى ان الرؤية أو حل الدولتين الذي يتحدث عنه بايدن لا يستند الى الحدود الدولية او الى السيادة الكاملة والتواصل الجغرافي للدولة الفلسطينية ، ويأتي الحديث عنه من جانب بايدن وما سبقه من ترامب في صفقة القرن ، بعد أن انهك التمدد الإستيطاني اصلاً هذا الحل بحيث أصبح شبه مستحيل ،

كما تُسقِط الولايات المتحدة حقوق عودة اللاجئين وثوابت وتراث منظمة التحرير الكفاحي التي ما زالت بحكم قرار الكونغرس تعتبر جهة إرهابية.

هذه الإدارة الأميركية لم تلتزم من قريب أو بعيد بكافة الوعود السابقة بخصوص الغاء قرار ترامب حول القدس ونقل السفارة اليها واعادة فتح مكتب المنظمة في واشنطن .

ان ثوابت ومحددات العلاقة الإستراتيجية المعروفة سلفاً بين الولايات المتحدة ودولة الإحتلال منذ ان تم انشاؤها وفق جرائم التطهير العرقي ، تهدف الى حماية إسرائيل تحت اي ظرف وتحت اي شكل من تركيب حكوماتها بتوجيهات دبلوماسية ناعمة وبكامل الدعم المتعدد الأشكال والذي لن يتوقف حتى في ظل تباينات هامشية بينهم .

وهي تسعى مع جهات بالمنطقة لخلق أدوات وبدائل ستكون شبيهة بأصحاب مشاريع روابط القرى التي اسقطها شعبنا ، أو مُهجنة عنها كتلك التي استخدمتها الولايات المتحدة بعديد من الدول في مواجهة حركات تحرر شعوبها الوطنية ولم تصمد لاحقا أمام ارادة الشعوب .

بدائل وادوات تتفق والرؤية الأميركية وتعتمد على الانقسام الحاصل نتيجة الانقلاب في غزة و تمزق النظام العربي والأزمة الأوروبية وازدواجية معايير دولها وتبعيتها الآن للسياسات الأميركية ، كي تستطيع هذه الادوات بتسهيل من الولايات المتحدة ودول اقليمية أخرى تنفيذ تلك البرامج التي تستهدف حقنا الأساسي بتقرير المصير والإستقلال الوطني وإنهاء الإحتلال ، ومن ثم تعمل من اجل إغلاق الملف الفلسطيني كما يخططون وفق ما ذكرته بخصوص مشروع حكم ذاتي على بعض المناطق دون سيادة .

كما وتسعى الإدارات الأميركية التي في جوهر سياساتها لم تختلف ، إلى استبدال الحلول السياسية التي يجب أن تتمثل اساساً بإنهاء الإحتلال بمبادرات وخطط اقتصادية وأمنية لن تؤدي الا إلى استمرار إدارة الصراع دون حله وادخالنا في متاهات تهدف إلى استدامة الإحتلال كأمر واقع .

الولايات المتحدة تسعى اليوم الى تعزيز اتفاقيات ابراهام للتطبيع كما اشرت بمضمون صفقة القرن لتمكين دور دولة الإحتلال بالمنطقة بما يخدم الاستراتيجيات الأميركية أمام ظروف المتغيرات الدولية ، حيث ثمة شبه إجماع في دولة الإحتلال مدعوم بغطاء أميركي على أنه ليس هناك حاليا أي أفق سياسي مشترك للتوصل إلى تسوية دائمة او حتى الشروع باي عملية سياسية ، فضلاً عن أن آخر ما أنبأت به التطوّرات في منطقة الشرق الأوسط، وتحديدًا «اتفاقيات أبراهام» ومسار ترجمتها عمليا، أثبتت كما يقال إسرائيليا، إن في الوسع تخطّي عقبات سياسية وضعها الواقع العربي السابق أمام التطبيع مع دولة الإحتلال .

علماً انه وعلى المدى القصير والمتوسط الآن يركز الأميركيون على حربهم بالوكالة ضد روسيا في اوكرانيا

، فيما على المدى الأطول فإن الأستراتيجية الكبرى للدولة العميقة بالولايات المتحدة ستركز على إدارة التحالفات والتحديات الجيوسياسية والاقتصادية مع الصين وحافة المحيط الهادئ في محاولة للحفاظ على احادية هيمنتها المتهاوية الآن ومحاولة استعادة مكانتها في أميركا اللاتينية من خلال العودة الى سياسة الانقلابات هنالك .

ليس من أولويات الولايات المتحدة الآن ما يجري لدينا ، بحيث تسعى في ان تحافظ هي على استمرار الوضع الراهن ومجرد إدارته والحديث الفارغ عن ضرورة الحفاظ على الوضع التاريخي بالقدس مستفيدة من تخبط الواقع العربي الذي اشرت اليه . حيث ان اعترافها بالقدس عاصمة لإسرائيل قد انتهك ذلك الوضع التاريخي أصلاً ، وذلك وفق أولويات مصالحها اعتمادا على الدور الإسرائيلي الذي تتنامى فيه العنصرية الدينية الفاشية .

ان ذلك لن ينجح ، ولمواجهته ولتمكين صمودنا ومقاومتنا السياسية والشعبية للوصول الى حقوقنا الوطنية ، فان ذلك يتطلب ظروفاً موضوعية جديدة يساهم في ايجادها نظام دولي متعدد الأقطاب وتنامي المعارضة بالمجتمع الإسرائيلي لتشمل ايضا معارضة الإحتلال والابرتهايد ، وظروفاً ذاتية اولاً لترتيب وتمكين بيتنا الداخلي في مواجهة الإحتلال الإستعماري وفق تنفيذ رؤية وطنية استراتيجية متكاملة من خلال برامج سياسية كفاحية واضحة على كافة المستويات الشعبية والرسمية تعتمد على روايتنا التاريخية وحقوقنا الغير قابلة للتصرف حتى تتحقق العدالة ويسقط الإحتلال ونظام الفصل العنصري ، وذلك حتى نستطيع أن نقاوم ونواجه محاولات الصهيونية العالمية الساعية إلى منعنا من حق تقرير مصيرنا ومحونا من التاريخ كما يعتقدون واهمين.

بالنتيجة ، إذا ما تم السعي الجاد دون احتكار أميركي لتحقيق السلام من جهات دولية وحل النزاع فقط بموجب شروط مقبولة من قبل القوة المهيمنة وهي في حالة اليوم الولايات المتحدة الأميركية واسرائيل كقوة قائمة بالإحتلال ، والتي تتجنب بطبيعة الحال أي نوع من المساءلة بحقها أو تحقيق العدالة للآخرين، فسوف يكون هذا المسعى فاشلًا بلا شك، وسوف يعمل في نهاية المطاف على الحفاظ على الوضع الراهن.

ومع ذلك لا يمكن أن تحدث التسوية السياسية إلا عندما يكون هناك حوافز لإجراء تغييرات بنيوية وتحوّل في عدم تناسق القوة بين الجانبين ورعاية دولية متعددة تتم ضمن إطار واضح المعالم يؤدي إلى إنهاء الإحتلال الاستيطاني .

لا يوجد حاليا لدى الحكومة الإسرائيلية ولا للجمهور الإسرائيلي عموما أي نوع من هذه الحوافز، لاسيما في غياب أي ضغط دولي مؤثر وفعال لتغيير الوضع الراهن، وهو وضع مربح للغاية ويعود بالفائدة على الحكومة الإسرائيلية، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا.

وهذا ما لا ينبغي له أن يستمر إذا رغبنا في بناء سلام حقيقي . فمن هنا تكمن ضرورات عملنا كحركة تحرر وطني بكل معانيها من أجل التغير وزيادة كلفة الإحتلال، وهذا يحتاج لما ذكرته لواقع بروز ظروف موضوعية وذاتية جديدة .

ان التاريخ السياسي والجغرافيا السياسية لا تعرف السكون أو الثبات عند نقطة محددة ، فالثابت الوحيد هو المتغير .

ومن هنا ينبع مصدر تفاؤلي نحو الوصول الى حقنا بتقرير المصير وإنهاء الابرتهايد وعنصرية الحركة الصهيونية ، الأمر الذي سيمهد إلى التسوية والسلام الحقيقي اِن كان بدولتين مستقلتين ذات سيادة على أساس مبدأ القرار الأممي ١٨١ والذي رسمت الشرعية الدولية حدوده لاحقا نتيجة المتغيرات بحدود ما قبل ٤ حزيران ١٩٦٧ واصبح خيارا دوليا مقبولا لنا رغم عدم عدالته التاريخية ، ونالت الدولة الفلسطينية على اساسه اهمية اعتراف ١٤٠ دولة حول العالم ، أو في دولة ديمقراطية واحدة على كامل التراب الفلسطيني بحقوق متساوية للجميع من الديمقراطية والعدالة ، وهذا أيضا بحاجة إلى تغير في نمط تفكير المجتمع لديهم ووجود معسكر مناهض للفكر الصهيوني العنصري .

حيث تمهد اليوم وقائع الشعوب وحركاتها الشعبية في العالم العربي خاصة بعد فشل الولايات المتحدة من تحقيق كامل مشروعها بالشرق الاوسط أو بالعالم في ديناميكية حركتها الجارية نحو نظام متعدد الاقطاب الطريق لمنطقة وعالم جديد يختلف في نواحي مهمة عن سالفه احادي القطب ، ويتميز بأنه أكثر استعدادا لرفض الهيمنة الأميركية . ومن المتوقع أن تكون النخب السياسية بالعالم على المدى الأبعد أكثر إصرارا على استقلالها السياسي والاقتصادي وأكثر انتباها للرأي العام الوطني في دولها ، الذي يؤيد بدون لبس الحقوق الوطنية الفلسطينية.

وإذا ما أردنا أن نصد المحاولات الساعية إلى محونا من التاريخ، وأن نستفيد من الفرص الجديدة التي تطرحها المتغيرات الدولية في ديناميكيتها التراكمية ، فإن من المهام الأكثر إلحاحا أمامنا مهمة التحكُّم في طريقة سرد حكايتنا التاريخية التي أشرت لها واسترداد روايتنا الجمعية منذ بدايات تاريخ الفترة الكنعانية ودون حصر تاريخنا في فترة الحقبة الإسلامية وما بعدها .

وفي هذا السياق، تبرز أهمية دعم الحركة العالمية لمقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وتوسيع شبكة التضامن الدولي ومتابعة التوجه الى محكمتي العدل والجرائم الدوليتين واستمرار حصار دولة الإحتلال في الجمعية العامة والمنظمات الدولية وفرض العقوبات عليها لحملها على الانصياع للقانون الدولي واحترام الحقوق الوطنية لشعبنا الفلسطيني.

أزمنة سحق العظام

فلسطين والسير عبر الجدار ... القدس والهندسة العكسية

المراحل الأخيرة من تحقيق حلم إيرتس يسرائيل

شذى يحيى

«أبعث لكم بكلماتي هذه وقد ذاب شحمي ولحمي، ونخر عظمي, وضعفت قواي من سجني»
وصية خضر عدنان - سجن الرملة - فلسطين المحتلة ٢أبريل ٢٠٢٣

«بالنسبة إلى الجندي الإسرائيلي الشاب في وجودي الخارج ضمن الداخل كان أمراً مزعجاً له».
نهى خوري

« نحن أصحاب السيادة هنا»

إيتمار بن غفير -وزير الأمن القومي الإسرائيلي ٢١مايو ٢٠٢٣

«لقد تحول انتباه العالم إلى مكان آخر، العالم لا يتدخل إلا في حالة تفجر الوضع في القدس والأراضي المحتلة لذلك يناوش نتانياهو ومتطرفيه العالم»

غيث العمري المفاوض الفلسطيني السابق ٢٧مارس ٢٠٢٣

« لا يوجد تاريخ أو ثقافة فلسطينية ولا يوجد شيء أسمه الشعب الفلسطيني»
بيتسيئل سموتريتش وزير المالية الإسرائيلي

« ماحدث لخضر عدنان هو جريمة اغتيال متعمدة»

محمد اشتيه رئيس الوزراء الفلسطيني

«نحن بحاجة إلى حلول سلمية، وليس لسيناريوهات حرب من المفترض أن تحقق العدالة ويستطيع المرء أن يتعلم من تاريخ سويسرا»

مايكل فولفزون مؤرخ ألماني - إسرائيلي

«قال أبو مازن قبل بضعة أيام من الأمم المتحدة، أن الشعب اليهودي ليست له علاقة بجبل الهيكل، وأن القدس الشرقية تابعة للسلطة الفلسطينية، حسناً بخصوص هذه المعلومة نحن نعقد اليوم إجتماعاً خاصاً للحكومة إحياء ليوم القدس، على مرمى حجر من جبل الهيكل»

بنيامين نتانياهو ٢١مايو ٢٠٢٣

«إذا انقطعت القسائم سنموت من الجوع. يمكن أن يحرق الناس أنفسهم، يمكن أن نرمي أنفسنا عن أسطح المباني من الجوع، عندما يقول لك طفل أنه يريد الأكل ولاتجد طعاماً ماذا تفعل؟؟!»

جمالات الدبور - مخيم جباليا شمال غزة ٧مايو٢٠٢٣

«إننا مجبرون على مواصلة القتال، ولا أحد يوافق على تسليم أرضه، لن نخضع أبداً للمطامع الروسية»

فولوديمير زيلينسكي - الرئيس الأوكراني أمام القمة العربية ١٩مايو ٢٠٢٣

«إن عملية توحيد القدس لم تنته بعد من أجل أمتنا ومن أجل توحيد القدس علينا الحفاظ على هذه الحكومة»

بنيامين نتانياهو - تحت حائط البراق ٢١مايو ٢٠٢٣

«إقامة علاقات مع السعودية سيمثل (قفزة هائلة) نحو إنهاء الصراع العربي الإسرائيلي»

بنيامين نتانياهو ١٧أبريل ٢٠٢٣

«دعواتكم أن يتقبلني الله شهيداً مخلصاً لوجهه الكريم»

وصية خضر عدنان - سجن الرملة

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبهْ
وأنا لست مسافر
إنني العاشق, والأرض حبيبهْ !

محمود درويش - يوميات جرح فلسطيني

في العقود الأولى من القرن العشرين كانت الحركة الصهيونية في مصر نشطة جداً في استقطاب المثقفين، واستكتاب كبار الكتاب وتنظيم الندوات لدعم حركة الاستيطان في فلسطين، القاهرة منارة الشرق في تلك الفترة كان لها كبير الأثر في الحركة الثقافية العربية وفي العالم الإسلامي أيضاً، كل فكرة حتى لو نشأت في مكان بعيد كان لابد أن تدشن من القاهرة وكان رأس النشاط الصهيوني في تلك الفترة نسيم أفندي ملول رئيس جمعية النهضة الإسرائيلية في القاهرة ومندوب الوكالة اليهودية والصحافي في الأهرام والمقطم أيضاً.

ملول أفندي كان ينظم ندوات صهيونية دعائية في حديقة الأزبكية يستضيف فيها كبار المثقفين العرب في القاهرة ومن بينهم المفكر الكبير شبلي شميل الذي كان متحمساً جداً للمشروع الصهيوني وهو ما أثار موجة كبيرة من الغضب في تلك الفترة، ما دفع شميل لنشر مقالتين واحدة في جريدة المقطم والأخرى في الأهرام للدفاع عن موقفه، المقال الأول كان بعنوان «عمروا واستعمروا فالأرض ميراث المجتهدين» فيه أوضح شميل أن رأيه يتلخص في أن حق الإنسان في الأرض حق عام مشترك يؤيده العمل، ولا تدفعه النصوص النظرية ... وأن حجة العرب أن الصهاينة دخلاء وغرباء ومعتدين هي حجة واهية كبكاء الأطفال وأن للصهاينة أيضاً حجة بأن الأرض أرض أبائهم وسلبت منهم بالسيف و «ما ذنب الأرض حتى تحرم من اجتهاد المجتهدين؟!!»، في مقالته الثانية في الأهرام خفف شميل من حدته ولغته بسبب شدة الانتقادات واتهامه بالحصول على أموال من الصهاينة فقال «أنه لايميل إلى طرد اليهود لأن البلاد ستبقى بدونهم خراباً، وإنما يطالب بمقاومتهم بالاقتداء بهم».

لم يكن موقف شميل غريباً ولا مستغرباً عن الجدل الذي ثار في عصره بخصوص الاستيطان الصهيوني في فلسطين فتلك الفترة كانت تزخر بمثل هذه الحوارات التي حسمتها حرب١٩٤٨م، وبزوغ القومية العربية عندما كان هناك زمن انحازت فيه الأنظمة لمصالح شعوب فوق مصالح الحكومات، وبقاء الأنظمة ولو لفسحة قليلة.

مد العولمة والثورات العربية والفوضى الخلاقة وفزاعات الإسلاميين والمتطرفين جعلت السياسة في رأي الجميع اليوم صراع من أجل البقاء ومواكبة العالم لكي يدعمنا ويكف عن محاولات الإسقاط، بقاء الدولة هو الأهم الآن كما ذكر زعيم عربي في مؤتمر القمة الأخير، ما علاقة هذا بنظرية شميل التي أرساها من مئة عام؟!

العلاقة أن الجميع الآن يبدو مستعداً للجامعة الشرق أوسطية، والمرحلة التي تبدو فيها المشكلة الروسية الأوكرانية أهم كثيراً من القضية الفلسطينية التي يبدو أن الالتزام بها دخل لمرحلة التقاليد المتعارف عليها والثوابت الأدبية والأخلاقية أكثر منها كمسألة سياسية مصيرية، هي دخلت في مرحلة الاعتراف أن للهنود الحمر حقوقاً أهدرت لكن لا يمكن إرجاع عجلة التاريخ للخلف، أو أن الأبوريجنال الاستراليين تم إبادتهم والاعتداء عليهم لكن لا سبيل لإدخالهم العالم المتحضر، لذلك فالحل الحفاظ عليهم كأجناس توشك على الانقراض بفعل المدينة مستعمرة السياج وما يحدث لبدو النقب مثال حي على ذلك، بينما على الجانب الآخر الجميع يسعى للاستفادة من التكنولوجيا الاسرائيلية، الخبرة الاسرائيلية، السياحة الاسرائيلية، الصناعة الاسرائيلية .....إلخ»

«اتفاقيات إبراهام لن تمر مرور السحاب بل ستبقى قائمة» هكذا أوضح غيث العمري المفاوض الفلسطيني السابق حقيقة الوضع.

في حديث له لصحيفة يديعوت أحرنوت قبل الاتفاقية بعقود ذكر قائد المخابرات العسكرية الاسرائيلية السابق شالوم جازيت في ٢٧أبريل ١٩٩٢م «أن إسرائيل لديها اهتمام هادف إلى النفع العام باستقرار الأنظمة العربية في المنطقة ومن خلال حماية أنظمة الشرق الأوسط فإن إسرائيل تقدم أيضاً خدمة حيوية وأساسية للدول المتقدمة».

« وأن الواجب الأساسي لإسرائيل الذي يحتمه عليها موقعها الجغرافي أن تكون الحارس المكرس من أجل حفظ الاستقرار لجميع الدول المحيطة بها، إن دورها هو حماية الأنظمة القائمة، وكبح أو إيقاف عمليات التطرف الراديكالية، ومنع تزايد حركات التعصب الأصولية الدينية». هذا الوضع يناسب تماماً الأنظمة العربية على الأخص تلك التي لا يوجد بينها وبين إسرائيل حروب أو عداوات تقليدية ولا تاريخ عسكري، لذلك فالتقارب الإسرائيلي الخليجي لدرجة الشراكة والصداقة مفهوم، إسرائيل ستستفيد إقتصادياً والعرب سيستفيدون الحماية والتكنولوجيا والاستقرار ، وحليف قوي دائم أمام الحليف الأميركي الذي لا يؤمن غدره وجشعه في كثير من الأوقات.

غيث العمري ذكر في نفس الحوار الذي أجراه مع وكالة فرانس برس «أن القادة الفلسطينيين لايدركون حجم التحولات التي تشهدها المنطقة ... أيام عبد الناصر لن تعود وزمن الأيدولوجيات القديمة في طريقه نحو الزوال. وزمن الوحدة العربية والإسلامية لم يعد مهيمناً على الساحة العربية والدولية». والحل من وجهة نظره أنه إذا انخرط الفلسطينيون في الوضع الجديد ووافقوا عليه فسوف يصبح بإمكانهم الحصول على دعم عربي أكبر سواء سياسياً أو اقتصادياً، مجلس الوزراء الإسرائيلي يصغي جيداً لانتقادات الشركاء الجدد، والاتفاقات الإبراهيمية هي التي أتت لنتانياهو بأصوات العلمانيين وهي التي تدعم الوضع الاقتصادي في إسرائيل.

وجهة نظر فيها شيء من الصحة ولكنها تغفل أن أصوات المتطرفين الأهم من وجهة نظر نتانياهو لأنها الأغلبية من الأصوات التي أتت بحكومته المتطرفة, وأن المزاج الإسرائيلي حتى العلماني منه دائماً ماكان أميل للتشدد، أيضاً تغفل أن شركاء نتانياهو الجدد لديهم مصالحهم الخاصة مع إسرائيل التي لا تجعلهم يتشددون بقسوة معه دائماً، فناتنياهو الحالم بالتطبيع مع السعودية العنيدة الزاخرة بالأموال والإمكانات وهي تخطو خطواتها الأولى نحو الاندماج مع العالم والتي وضعت شرطاً لهذا التطبيع هو (حل القضية الفلسطينية) لكنها ايضاً لم توضح ماهو شكل الحل، نتانياهو يعرف هذا ويدرك أن هناك أمور أخرى تشغل الجانب السعودي بشكل أهم، كما يدرك أن هناك أمور أخرى تجمعه مع الجيران.

«لقد تحدثت إلى وزير الخارجية الصيني تشين فانغ حول الخطر الذي نراه في البرنامج النووي الإيراني، وهو خطر تتشاركه دول عديدة في المنطقة، بما فيها دول لديها علاقات دبلوماسية مع

إيران» هذا تصريح أدلى به في ١٧أبريل العام الحالي في خضم جدل اقتحامات المسجد الأقصى ومسيرة الأعلام وأزمة وفاة خضر عدنان والاغتيالات والاعتداءات، في أشهر التوتر دخل اتفاق التجارة الحرة بين إسرائيل والإمارات المراحل النهائية إلى حيز التنفيذ في ٢٦مارس مرحلته الأخيرة كانت خفض الرسوم الجمركية على السلع المتبادلة بين البلدين بنسبة ٩٦٪، قريباً من هذا التوقيت كتبت صفحة نتانياهو على فيسبوك «إتفاقية السلام التاريخية التي وقعناها مع الإمارات العربية تستمر بعطاء ثمارها لمصلحة مواطني الدولتين، الإتفاق يشمل إنشاء منطقة للتجارة الحرة ويخفض غلاء المعيشة».

بعد هذا الحدث بحوالي الشهر أقيم احتفال كبير في السفارة الإسرائيلية بأبوظبي بمناسبة ذكرى إعلان قيام الكيان الصهيوني غنى فيه مطربون إماراتيون وإسرائيليون النشيد الوطني للدولة العبرية، الجميع يرى أن التقارب يدنيهم من اللحاق بركب العالم المتقدم، أما بالنسبة للفلسطينيين فوجهة النظر السائدة أن عجزهم عن الاتفاق ضعفهم وانقسامهم هو السبب الرئيسي الذي يمنعهم من إمكانية التوصل إلى إتفاق، وهذا السبب صحيح جزئياً والأصح أن الإسرائيليين لايرون أي منفعة للاتفاق مع الفلسطينيين في هذه المرحلة فهم في المكان الذين يرغبون في وضعهم فيه تماماً على شطرنج الشرق الأوسط (خارج اللعبة) اللهم بعض المناوشات الخفيفة هنا وهناك تستغلها المعارضة الإسرائيلية ضد نتانياهو.

نتانياهو يزهو الآن بأنه أقنع العرب أخيراً أن الاتفاق معه له منافع كثيرة وأن الفلسطينيين عبء ثقيل على كاهل الجميع، الحقيقة أن السلطة الفلسطينية التي لم تكن قوية يوماً هي اليوم بالفعل في أشد حالاتها ضعفاً، حماس التي استأثرت بغزة من٢٠٠٧م ففرض عليها الحصار الاقتصادي لتزداد حالتها الإقتصادية سوءاً وسط الاختناق الاقتصادي والتضييق في كل شيء والصراع حول الحلال والحرام، لم يعد حلم الشباب التحرير أصبح الحلم هو الهجرة، كسر الطوق كفرد وليس تحرير الجماعة، على الجانب الآخر الاستقطاب الديني الذي دفع الشباب الغزاوي في أحد استطلاعات الرأي لتحديد هويتهم بمسلمين قبل فلسطينيين وعرب، دفع بالكثيرين للسير في الحياة كمشاريع شهداء، أصبح الهدف هو الموت ليس من أجل الأرض ولا تضحية من أجل الآخرين بل أصبح نوع من الخلاص الفردي في العالم الآخر والانتقام من أولئك الذين حطموا الحلم في هذا العالم.

في الضفة الغربية أيضاً أصبح الأمان مفقوداً، استطلاعات الرأي في الضفة وغزة على السواء أثبتت أن أكثر من ٥٠٪ من عينات الدراسة ترى أنها لا تستطيع ممارسة النقد بأمان وأن الفضاء السياسي مغلق مثل كل الأنظمة العربية، فيما سبق كانت الحياة السياسية الفلسطينية أكثر تنوعاً وأقل استقطاباً، كانت هناك عشرات الأطياف مابين منظمة التحرير والجماعات الإسلامية الآن وفي استطلاع للمركز

الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية ذكرت عينة الاستطلاع أن ٨٠٪ من الفلسطينيين يرون السلطة الفلسطينية فاسدة، أيضاً كانت هناك سرعة في التقاضي وفساد أقل، إهتمام بالمخيمات، الآن ظهرت ميليشيات صغيرة في المدن لحل المنازعات بين الناس في مدن مثل جنين، وعادت مجالس العشائر والقبائل في الخليل والجنوب للظهور كسلطة حكم وتنفيذ قانون كما كانت قبل عودة السلطة الفلسطينية، وجود أكثر من سلطة وأكثر من حامل للسلاح يهدد بحرب أهلية، فرصة سانحة ستنتهزها إسرائيل لإطلاق رصاصة الرحمة على السلطة والأهم على حلم الدولة الفلسطينية.

على صعيد آخر ورغم كل هذه المخاطر تدعم حماس الرعناء حركات مسلحة مثل عرين الأسد في نابلس مالياً، تلك الحركة التي تحظى بدعم واسع بين الشباب هي والجهاد الإسلامي بمثابة ذريعة دائمة لإسرائيل لإتهام السلطة بالإرهاب والعدوان، حماس لاتهتم كثيراً إلا بحلحلة السلطة للحصول على مكانتها كمفاوض شرعي في المجتمع الدولي، والحقيقة أنهم شيئاً فشيئاً يحققون هدف نتانياهو ألا وهو أنه لا وجود لشريك فلسطيني يرغب في السلام ويستطيع تحقيقه على الأرض، رويداً رويداً الوضع يتحول لسيولة ما قبل السلطة وستبدأ من جديد مرحلة البحث عن ممثل شرعي للشعب الفلسطيني بعد وفاة منظمة التحرير الفلسطينية، هذه المرة كأقلية داخل دولة تسعى للحكم الذاتي ليس أكثر، وهنا يأتي السؤال الأهم هل تمثيل فلسطين في المؤسسات الدولية أحياناً ونجاح قضية الجدار العازل في المحكمة الدولية وأيضاً الآن عرض قضية الحرم القدسي على نفس المحكمة رغم اعتراض فرنسا وإيطاليا وألمانيا بدعوى أن المذكرة التي أحالت القضية للمحكمة أحادية الجانب (ذكرت المسجد الأقصى ولم تذكر جبل الهيكل وقوضت الحل السلمي) غير الوضع على الأرض أو عاد بالفائدة على الفلسطينيين؟!!

بعد خطاب محمود عباس أمام الجامعة العربية الذي طالب فيه المجتمعين بإحالة مرافعاتهم للمحكمة الدولية عقد بينيامين نتانياهو إجتماع حكومته المتطرفة تحت حائط البراق على مرمى حجر من جبل الهيكل على حد قوله وصرح ببساطه «نحن هنا ... قليل من الطحينة يجعلها أطرى هكذا الوضع» نتانياهو كتب هذه الجملة فوق صورة نشرها في صفحته العربية ممسكاً بشطيرة من الفلافل، هو يستخدم نفس الطريقة في السياسة قليل من الاقتحامات – المسيرات – إقامة الصلوات – دخول المتطرفين وخروجهم في أوقات محددة للمطالبة بحرية إقامة الشعائر لجميع الديانات حتى يصبح الدخول والخروج فعلاً يومياً وأمراً واقعاً، ولم لا إسرائيل نفسها قامت على فرض هوية بالأمر الواقع، حلول الهوية الإسلامية قبل الوطنية والعروبة في استطلاعات الرأي في غزة تم بالتدريج، نتانياهو في القدس يستخدم ما عرفه العميد أفيف كوخافي «بالهندسة العكسية كعملية لإعادة التركيب المديني للقدس بواسطة سلسلة من الأعمال التكتيكية الدقيقة»، العملية تسعى

لاستخدام الطرقات والأزقة والأفنية إضافة للأبواب وسلالم المنازل والنوافذ وتحويلها لممرات، إنشاء أنفاق وإحداث فتحات في الجدران والأسقف والأرضيات لصنع هذه الممرات وشيئاً فشيئاً يحدث تفريغ للنسيج العمراني ويرسى أمر واقع جديد، نتانياهو يتراجع في التكتيك أحياناً لكنه لا يتراجع عن الهدف أبداً، هو لا ينجح دائماً في مهمته ولكنه أيضاً لايريد النجاح في كل مرة «قليل من الطحينة يجعلها أطرى» هذا هو شعار المرحلة.

في ندوة الأورومتوسطي ذكرت إحدى المقررات الأمميات في تقريرها أن العالم يحتاج فلسطين أكثر مما تحتاج فلسطين العالم، لكن فلسطين التي يحتاجها العالم هي أبعد ما تكون عن فلسطين الدولة التي يرغب أهلها فيها، هي جيب كبير أو كانتون جيتو ضخم يحتوي عمالة رخيصة لإسرائيل ويتخلص به العالم من صداع المشكلة الفلسطينية، العمالة العربية في إسرائيل لاتشملها قوانين الحماية حيث يستطيع صاحب العمل الإسرائيلي التشغيل والتسريح وتحديد الأجر دون أية ضوابط، لكن تشغيله يكون مشروطاً بأنه لا يوجد إسرائيلي يقوم بنفس العمل.

في دافوس ٢٠١٨ نتانياهو أكد على وجوب أن يتمتع الفلسطينيون بسلطات كاملة ليحكموا أنفسهم ولكن بدون السلطات التي تهدد إسرائيل أهم الشروط أن تظل إسرائيل محافظة على سيطرتها الأمنية الواقعة من غرب الأردن حتى البحر المتوسط بخلاف ذلك سيكون الفلسطينيون أحراراً في حكم انفسهم والعيش في مجالهم الخاص، بالطبع المجال الخاص الذي يحدده أصحاب السيادة بن غفير وسموتريتش ونتانياهو المصادقة على إنشاء مستوطنات جديدة والميزانية الإسرائيلية للعام القادم تثبت ذلك، في هذا المجال سيقبل اليهود ببرلمان صوري وعلم وشعارات كل شيء باستثناء صلاحيات حماية أنفسهم كما يرون هم صلاحيات هذه الحماية، على حظيرة صغيرة يحوطها سور أسمنتي وتظللها طرق سريعة.

حل الدولتين في نظر البعض متاح فقط مقابل إراقة الدماء كما قال المؤرخ الإسرائيلي مايكل فولفوزن الذي يضع تصوراً لحل فيدرالي من إتحاد يضم إسرائيل وفلسطين والأردن الذي لن يوافق بالطبع، فشمال إسرائيل يشبه النمط الديمغرافي فيه لحافاً مرقعاً لذلك فإن حل الكانتونات الإقليمية الذي يراه نتانياهو مستبعد، وهنا يصبح حق تقرير المصير لجماعات عرقية وشخوص بعينها مخرجاً مناسباً، الخلاصة يمكن للإسرائيليين والفلسطينيين تنظيم شؤونهم الداخلية بأنفسهم وانتخاب ممثلين سياسيين مع وحدة السياسة الخارجية والجيش، الكثير من الدول الأوروبية واتجاه قوى في الولايات المتحدة يدعم نظرية فولفوزن مع بعض التعديلات، في الوقت الحالي الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب كان صريحاً عندما أوضح أنه سيان عنده حل دولتين أو دولة واحدة المهم أن ترضى إسرائيل.

على الأرض وبعيداً عن حل الدولتين والدولة الواحدة ومناوشات نتانياهو وعصابته الجديدة تزداد

الأوضاع في الأراضي المحتلة سوءاً، انتفاضة الأمعاء الخالية التي تقتل المناضلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية جوعاً بينما لايعيرهم العالم التفاتاً كبيراً، يواكبها مشكلة جوع أخرى تحل بالمخيمات والمواطنين الفلسطينيين في مطلع يونيو فقد أعلن برنامج الغذاء العالمي في الأراضي الفلسطينية مطلع مايو الماضي تعليق المساعدات الغذائية لأكثر من ٢٠٠ألف فلسطيني، المتضررين على الأخص في قطاع غزة صاحبة واحدة من أعلى معدلات قصور الأمن الغذائي والفقر في العالم مهددون هم أيضاً بالموت جوعاً بلا إضراب، وقد عزا برنامج الأغذية العالمي قراره هذا لنقص التمويل، تأتي هذه المفارقة مع خطاب الرئيس الأوكراني فولوديمير زيلنسكي إلى القمة العربية التي ذكر فيه أن بلاده ستتشرف بالاستثمارات العربية في إعادة الإعمار وأيضاً الرئيس الروسي الذي وجه نفس الدعوةوالشريك الصيني الذي يدخل في إطار العديد من الشراكات الاقتصادية بالفعل مع الدول العربية.

قرارات المؤتمر نصت على حشد الدعم للقضية الفلسطينية، وإعادة توحيد الصف الفلسطيني، والطلب من المجتمع الدولي تحمل مسؤوليته تجاه فلسطين ووضع حد للاستيطان، كما أكد ولي العهد السعودي على أن بلاده ماضية في طريق السلام وأنهم لن يسمحوا بأن تتحول المنطقة لمنطقة صراعات، وأن القضية المحورية للعرب هي القضية الفلسطينية، ودعم الجميع القضية التي تقدمت بها فلسطين لطلب الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية التي لم يعبأ بقرار واحد من قراراتها فيما يخص القضية الفلسطينية منذ العام١٩٤٩م.

لم تطرح قضية المعونات الغذائية والمساعدات على القمة، زيلنسكي ووساطة الجامعة في حل النزاع الروسي الأوكراني كانا محط انتباه كل الصحف العربية والمنصات الإلكترونية، حتى الإدانة المعتادة جاءت باهتة وضعيفة رغم الصفاقة الإسرائيلية وتلاحق الانتهاكات والاغتيالات، بل إن إدانة الخارجية الأميركية على لسان المتحدث باسمها ماثيو ميللر بأن «هذا المكان المقدس (المسجد الأقصى) يجب ألا يستخدم لأغراض سياسية وندعو جميع الأطراف إلى احترام قدسيته»، والانزعاج من قرار السماح بتأسيس وجود قانوني في بؤرة حومش الاستيطانية جاء أقوى من ردود الفعل العربية حيث أوضح المتحدث أن هذا يتناقض مع إلتزام خطي تعهدت فيه إسرائيل لجورج بوش العام ٢٠٠٤م بعدم دعم المستوطنات غير القانونية.

في العموم نتانياهو يستغل حالة السيولة الحادثة في المنطقة والعالم لتحقيق مراحل جديدة من الحلم الصهيوني، السلطة مفككة وكل يوم يزيد بعدها عن الفلسطينيين وتصبح أكثر غربة بينهم، المواطن الفلسطيني العادي أنهكته الحالة الاقتصادية والصراع مع الحياة اليومية الجوع- الإهانة عند الحواجز- عدم الأمان والتلاعب الأيدولوجي بمقومات الهوية، لا شيء ثابت لا شيء يرتكن عليه،

أقصى الأحلام تحول إلى قرار غير ملزم من محكمة العدل الدولية يراه الكبار معرقلاً لعملية السلام.

عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية أحمد مجدلاني لم يطلب من القمة العربية إلا ثلاثة طلبات، الدعم على ثلاثة مسارات كما قال الإعتراف في الأمم المتحدة تجنباً لفيتو أميركي أو أوروبي – الاعتراف العالمي بدولة فلسطينية على حدود ١٩٦٧م – مسار الرأي الاستشاري حول فلسطين.

الاقتصاد والبشر خارج المعادلة، الضغط على حكومة الإحتلال لتسهيل حياة الناس أو السماح بمتنفس إستغلالاً لعلاقات الشراكة والصداقة الجديدة مع الدول العربية لا يؤخذ في الحسبان حيث صانع القرار يطالب بما كان يطلبه من عقود دون حسبان للمتغيرات الجديدة، بينما خرجت إسرائيل من حضانة الطفل المبتسر الأميركية إلى عالم شرق أوسطية بيريز دون دفع أي ثمن بل مازال مخططها التوسعي مستمراً بأفضل مما كان عليه قبل الإتفاقات الإبراهيمية.

في مؤتمر القمة زيلينسكي قال أنه لن يخضع لسلطة أجنبية ولن يسمح بالتنازل عن شبر من أراضيه وطالب بالدعم العربي له في حين طالب الفلسطينيون بدعم الاعتراف بدولة على حدود ١٩٦٧م لإنقاذ ما تبقى من الأرض، القمة أكدت أيضاً على أن إدارة أوقاف القدس وشؤون المسجد الأقصى أردنية وطالبت بتنفيذ قرارات اليونسكو ولجنة التراث العالمي التي أكدت على أن المسجد الأقصى مكان لعبادة المسلمين وموقع للتراث العالمي وحق فلسطين في السيادة أرضاً ومياهاً وهواء والتمسك بالحل السلمي والمبادرة العربية، بن غفير من باحة المسجد الأقصى رداً على المجتمعين « نحن أصحاب السيادة هنا».

في مقال نشر في مجلة يسرائيل دفنس بتاريخ ١٩مايو ٢٠٢٣م يقترح فيه المحرر تسليم قطاع غزة للإدارة المصرية كحل لإستبدال حكم حماس الذي يكاد يخنق القطاع، أوضح أنه بنى اقتراحه على عدم وجود طرف فلسطيني أو جهة عربية أخرى تصلح غير مصر رغم مشاكلها الكثيرة، المحرر ذكر أن السلطة الفلسطينية لاتصلح للقيام بهذا الدور لأنها من وجهة نظره أصبحت متداعية من الماضي وتعيش أيامها الأخيرة، غزة كما قال متداعية وبنيتها التحتية مهلهلة، الحياة فيها لا تطاق ومشاكلها كثيرة وتحتاج لاستثمارات مهولة فخ لا تريد اسرائيل الاقتراب منه، أيضاً سوف تحتاج لعملية عسكرية كبرى لتنظيفها وهو مالا تريد إسرائيل تحمل تكلفته.

في مجال آخر تبدو الحكومة الإسرائيلية مسرعة جداً في قضم أكبر أجزاء تستطيع بلعها من الضفة الغربية في ظل وضعها المريح جداً مؤخراً مع الجيران والذي سمح لها بالدخول في مراحل تكسير عظام المواطنين الفلسطينين قبل السلطة لدفعهم للرضوخ والاستسلام مقابل أن تترك لهم فقط فسحة للحياة.

شبلي شميل قالها من مئة عام إن تحويل القضية لمن الأحق بالأرض بالأمر الإلهي سيجعل الطرفين يرتكنون على وعد الله، وهنا سوف يدعم العالم الإمبريالي المسيحي القوى الصهيونية وجبل الهيكل أمام الأقصى الإسلامي ، لكن الحق في الحياة في الإنسانية في الحرية والمساواة حق لايختلف عليه إثنان خطاب لم تستغله السلطة، أهملته كما أهملت مراجعة مواقفها بناء على متغيرات كثيرة جَدّت تاركة الساحة فارغة أمام عصابة نتانياهو لتضع القضية الفلسطينية حيث أرادتها تماما ... ويبقى مصير الفلسطيني البسيط وحلمه بالحرية على المحك.

غيمة الصيف التي.. يحملها ظهر الهزيمةْ
عَلَّقَتْ نسل السلاطين
على حبل السراب
وأنا المقتول والمولود في ليل الجريمةْ
ها أنا ازددت التصاقاً... بالتراب !
آن لي أن أبدل اللفظة بالفعل, وآنْ
ليَ أن أثبت حبي للثرى والقُبَّرهْ
فالعصا تفترس القيثار في هذا الزمان
وأنا أصفَرُّ في المرآة,
مذ لاحت ورائي شجرهْ !

محمود درويش

بين النكبة المفتوحة و النكبة المستمرة

د. وليد سالم *

مدخل

في سياق المقاربة الاستيطانية الاستعمارية ، لا تكون النكبة حدثا ينتهي وحسب ،وإنما هي عملية تحول للمشروع الاستيطاني الاستعماري من حالة إلى حالة جديدة تعكس انتصاره، مترافقا مع الجرح المفتوح الذي يولده هذا الانتصار لدى الشعب المبدد عن أرضه. وإذ لا ينتهي الانتصار بضربة قاضية للشعب الأصلي كما في حالة فلسطين ، فإن الانتصار يضحي مؤقتا ، وكذلك الهزيمة مؤقتة ، ويصير الكر والفر المستمرين على مدى الـ ١٢٦ عاما الماضية منذ نشوء الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧ هما سمة الصراع .

ميز سعيد زيداني بين مفهوم النكبة المغلقة (كون النكبة حدثا انتهى عام ١٩٤٨ وإن بقيت آثارها مفتوحة بدون حل)، ومفهوم النكبة المستمرة كون فصولها لا زالت تتواصل حتى اليوم (زيداني ، ٢٠٢٣). ولكن النكبة تحمل الوجهين. الأول يمثل ما تم عام ١٩٤٨ والذي لا زال جرحا فاغرا مفتوحا لم يعالج ولم يندمل ، والثاني يمثل الإمعان في تكريس ما جرى عام ١٩٤٨ من خلال ايقاع مصائب جديدة بالشعب الفلسطيني كل يوم ، وهو الجانب المستمر من النكبة. يشير زيداني إلى أهمية تعريف الأجيال الفلسطينية بنكبة عام ١٩٤٨ كحدث بذاته ، أسس لما حدث بعده، وهو محق بذلك . ومن الجهة المقابلة تستلزم المصائب التي يتم إيقاعها بالشعب الفلسطيني منذ النكبة وما قبلها وما بعدها تسليط الأضواء عليها، خاصة في المحافل الدولية لتبيان الحقيقة المرة وهي أن فلسطين لا زالت مغيبة عن الخارطة الواقعية على الأرض ، وذلك رغم كل ما وقع من اتفاقيات تنكر لها الاحتلال .

انتقد مصطلح النكبة على أنه يوحي بأن ما جرى للفلسطينيين عام ١٩٤٨ وكأنه نتاج لكارثة طبيعية ، وليس بفعل فاعل . ولكن من جهة أخرى فإن المصطلح يحوي جزءا من حقيقة ما تم في ذلك العام

* باحث فلسطيني.

حيث لم تكن النكبة للبشر وحسب ، ولكنها شملت محوا واستئصالا كاملا للمكان والاقليم والفضاء والمشهد وأسمائه ومعالمه ولعلاقة البشر مع كل هذه المكونات ، وإحلال إقليم ومشهد وفضاءات جديدة مختلفة جذريا عما كان. كما شملت تبديد المجتمع الفلسطيني ونظامه السياسي وهدر حقه في تقرير المصير ، وابادة اقتصاده ، وطمس ثقافته ، واقتلاع بيئته وإحلال بدائل محل كل هذه المكونات، وذلك بفعل فاعل وليس جراء الطبيعة . ينطوي مفهوم النكبة على كل هذه المكونات ، ومن الخطأ اختزالها على الجانب السياسي والوطني وحسب ، فقد تعلقت النكبة باستئصال وجود الشعب الفلسطيني بكافة مكوناته وتجلياته . تم ذلك كله بالاستناد إلى اسطورة الحق التاريخي لما سمي ب « الشعب اليهودي « الذي طرد من « أرض إسرائيل « وعاش في المنفى لألفي عام محافظا خلال ذلك على نقائه واستمراره العرقيان . وقد دحض شلومو ساند هذه الاسطورة على أكمل وجه من خلال تبيانه أنه لا توجد علاقة عرقية أيا كانت بين اليهود الذين كانوا في فلسطين قبل آلاف السنين ، وبين اولئك الذين وفدوا إليها من أوروبا في القرن التاسع عشر (ساند ، ٢٠١١) . عوضا عن ذلك بين المؤرخ أرنولد توينبي بأن الأساطير القديمة لا تكفي لإدعاء حقوق وطنية وقومية حديثة ، وكشف بشكل بارع أن تطبيق الأساطير القديمة عالميا سيؤدي إلى تغيير خريطة العالم بأسره حيث ستدمر قوميات وتمحى محوا تاما على مذبح احياء تراثات قديمة تعود إلى آلاف من السنين (توينبي ، ٢٠١١)، . هنا بالضبط تصبح جريمة الصهيونية المركبة واضحة بجانبيها ، فهي من جهة قد أقامت حركة بناءً على ادعاءات اسطورية ، وهي من جهة أخرى قد قدمت الشعب الفلسطيني كله قربانا على مذبح تحقيق أسطورتها على أرض الواقع، متنكرة لمجرد وجود هذا الشعب . « من هو الشعب الفلسطيني ؟ لم يكن هنالك شيء اسمه فلسطينيون» . هكذا صرخت غولدا مئير مستهجنة (مئير، ١٩٦٩) . النكبة بهذا المعنى تصبح عملية سطو مسلح كامل الأركان لسرقة بلد كامل وطرد شعبه ، وتحويل مكانه وفضائه ومشهده بشكل كامل. هي عملية استئصال وإحلال بدأت قبل عام ١٩٤٨، وتكثفت خلالها واستمرت بعدها حتى أيامنا هذه .

عرف زيداني نكبة ١٩٤٨ التي مر عليها خمسة وسبعون عاما ، على أنها تلك « الأحداث المروعة» التي تمت في الفترة منذ ما بعد قرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧ ، واستمرت حتى توقيع اتفاقيات الهدنة بين دولة إسرائيل الناشئة وبين الأردن ومصر ولبنان في نيسان ١٩٤٩ (زيداني ، ٢٠٢٣). قد شهدت هذه الفترة حربا صهيونية - فلسطينية ، ثم حربا صهيونية مع الجيوش العربية التي دخلت إلى فلسطين . وقد نتج عن هذه الحروب عتبة تحول أدت إلى نشوء دولة إسرائيل على ٧٨ بالمئة من أرض فلسطين التاريخية، مقابل طرد غالبية الشعب الفلسطيني من بلاده ، وحرمانه من ممارسة حقه في تقرير المصير، وحلول المستوطنين المستعمرين مكانه . النكبة بهذا المفهوم لا زالت جرحا مفتوحا لم تتم معالجة آثاره حتى اليوم ، ولا زالت قضية اللاجئين المستمرة هي

التعبير الاول والاساس عن تلك النكبة . ومن جهة أخرى استمر تعميق جرح النكبة بسماتها المذكورة من خلال نكبات أخرى تتالت في مقدمتها نكسة عام ١٩٦٧، التي نجم عنها ترحيل جديد لأقسام من الشعب الفلسطيني من أل ٢٢ بالمئة المتبقية من فلسطين التي كان قد تم احتلالها في ذلك العام . كانت نكبة عام ١٩٤٨ هي الحدث التحولي التأسيسي في منع الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي على أرضه ، وجاءت الأحداث اللاحقة لتعمق نتائجه مبقية الجرح مفتوحا وبدون علاج حتى اليوم ، بحيث بات الجدل الدائر في السنوات الاخيرة يتمحور حول إذا ما كان الشعب الفلسطيني سيواجه نكبة ثالثة جديدة تطرد من تبقى من الشعب الفلسطيني من بلاده . وهو سؤال ستتطرق له هذه الورقة ، ولكن بعد طرح بعض المقارنات من وحي التجارب الاستيطانية الاستعمارية السابقة.

تجارب عالمية

يمكن القول بناء على تعريف النكبة بأنها عملية التحول التي ينجم عنها محو أو استئصال شعب كليا أو جزئيا وإحلال أقوام ومجموعات متجانسة وغير متجانسة مكانه، أن البلدان التي مرت بتجارب استيطانية استعمارية قد عرفت هي أيضا نكباتها المتسلسلة بنفس المعنى. بعضها أدت نكباتها إلى هزيمة الشعب الأصلي وتبديد وجوده ، وبعضها الآخر جسدت انتصار الشعب على النكبة ودحر المستوطنين .

شهدت إيرلندا الغزوات الانجليزية منذ عام ١١٦٧، والتي تعززت أكثر في بداية القرن السابع عشر مع تحول بريطانيا الى البروتستانتية ، وانتهت إلى نكبة جزئية بفصل ستة مقاطعات عنها عام ١٩٢١، فيما استقلت غالبية مقاطعات البلاد لتشكل جمهورية ايرلندا ، وتم تسمية المقاطعات الست التي تم فصلها باسم أيرلندا الشمالية التي لا زالت تخضع للسلطة البريطانية كسلطة عليا . أما جنوب أفريقيا فقد توالت عليها النكبات منذ عام ١٦٥٢ حين وطأها المستعمرون الهولنديون، وتلاهم الإنجليز في القرن التاسع عشر واستمرت تلك النكبات إلى عام ١٩٩٤ وهو العام الذي تم فيه الانتقال من نظام الابارتهايد إلى حكم الشعب لنفسه ، وقد ورث النظام الجديد جروحا لم تندمل من مراحل النكبات السابقة ، ولا زالت غالبية الأراضي التي سيطر عليها المستعمرون البيض في الماضي موجودة بحوزتهم ، حيث أن تحول عام ١٩٩٤قد مثل تحولا سياسيا ، فيما بقيت السيطرة الاقتصادية القديمة قائمة بدون تغيير جذري، سوى انتقال بعض الملكيات الكبيرة إلى بعض من البرجوازية السوداء الناشئة .

في الولايات المتحدة وبقية أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية التي تسميها الشعوب الاصلية لها ب « أبيا يالا " (Abya Yala) ، وكندا وأستراليا ونيوزيلندا تم ذبح الغالبية العظمى من الشعوب الأصلية من الوريد إلى الوريد في سلسلة من النكبات المتتالية ، وفي حالة معاكسة كان للجزائر وزيمبابوي أن

تنتصرا وتطردا المستوطنين المستعمرين في ستينات وثمانينات القرن الماضي بعد سلسلة من النكبات التي استطاع البلدان التغلب عليها بالإرادة والتصميم وروح الاستمرار في المقاومة بدون كلل ، الى جانب تحريكهما لعوامل مواتية لكفاحهما داخل الدول التي كانت مستعمرة لهما ونجاحهما في خلق تناقضات بين الدولة الأم وبين مجتمع المستوطنين المستعمرين .

بناءً على التجارب المذكورة يمكن النظر إلى النكبة الفلسطينية على أنها نتاج حاصل الصراع بين الصهيونية والشعب الفلسطيني ، ولكن يضاف هنا العوامل العربية ايضا التي تتميز بأهميتها بالنسبة لفلسطين ، ناهيك عن العوامل الدولية التي ارتبطت بكون فلسطين المعبر بين قارتي آسيا وأفريقيا، وبأهميتها الدينية للمسيحية بشقيها الكاثوليكي الذي اراد استثمار الصهيونية من أجل تعزيز مصالح دوله الاقتصادية وفي مقدمتها فرنسا في المنطقة ، والبروتستانتي الذي جمع بين العهد الجديد والعهد القديم ، وبالتالي نظر إلى فلسطين على أنها بلد اليهود القادم الذي يجب أن يعاد جمعهم من كل العالم فيه على طريق تنصير من يقبل منهم وذبح الباقي ليحل بعد ذلك ألف عام من السلام بالتزامن مع نزول السيد المسيح من السماء .

باختلاف عن الحالات الدولية المذكورة فقد مثلت فلسطين حالة مختلفة ، حيث أن الشعب الفلسطيني لا زال عصيا عن الابادة ، ولا زال ينبعث من جديد بعد كل نكبة وفي كل مرة اقوى من سابقاتها ، مجسدا حضوره المتصاعد الفاعلية على المستوى المحلي والإقليمي والدولي. لم ينتصر هذا الشعب بعد كما حصل في الجزائر ، ولكنه لم ينهزم بعد كما جرى للشعوب الأصلية في الأميركتين وغيرهما ، ولكنه لا زال يقاوم .

نكبة فلسطين

في فلسطين جاءت نكبة عام ١٩٤٨ تتويجا لسلسلة من عمليات المحو التي كانت تتوالى في كل قرية وكل مدينة على شكل مجازر وعمليات ترحيل ، وخلال عام ١٩٤٨ تم محو ٥٣١ موقعا فلسطينيا حسب بابيه (بابيه ٢٠٠٧، ص. ٩٣) ، فيما احصى نور مصالحة ٤٩٢ دمرت جزئيا او كليا (مصالحة ، ٢٠٠٣)، وذلك سنوات قبل بابيه الذي وثق المواقع التي تم محوها بالاستناد إلى الأرشيفات الإسرائيلية. وتلت نكبة ١٩٤٨عمليات مثلت استمرارا للجرح مفتوحا سواء من خلال فرض الحكم العسكري على فلسطينيي الداخل حتى عام ١٩٦٦ ، وما ترافق معه من مصادرة للاراضي، ونقل فلسطينيي النقب من قراهم للعيش داخل سياج تم حصرهم داخله، إضافة للاعتداءات على قبية والسموع من الضفة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، واحتلال غزة عام ١٩٥٦- ١٩٥٧ وارتكاب مجازر عديدة أثناء ذلك الاحتلال يفصلها سخنيني (سخنيني ، ٢٠١٢). وقد راكمت هذه الجرائم وهيأت لنكبة إضافية حصلت عام ١٩٦٧ أطلق عليها اسم النكسة عمقت نكبة ١٩٤٨ وتم خلالها طرد مئات الآلاف من الفلسطينيين من بلادهم

على غرار ما جرى أثناء حرب عام ١٩٤٨. وتضمنت نكبة عام ١٩٦٧ تسوية قرى يالو وعمواس وبيت نوبا بالأرض وترحيل سكانها ، وتهجير سكان حي الشرف في البلدة القديمة من القدس الى مخيم شعفاط ، والقيام بتوفير باصات عند باب العامود لنقل من يريدون مغادرة البلاد مجانا نحو الجسر مع الأردن كما ذكر نور مصالحة (مصالحة ، ٢٠٠٣، ص. ٢٠١).

نتج عن نكبة عام ١٩٤٨ ليس فقط محو فلسطين ككيان سياسي واقتصادي واجتماعي ، بل أيضا عملية إحلال لكيان سياسي اقتصادي اجتماعي جديد حلل الكاتب بنيته في مكان آخر (سالم ، ٢٠٢٣) ولكن رغم ذلك فقد بقيت فلسطين حاضرة في حق العودة الذي يسكن كيان كل لاجئ خارج فلسطين وكل مُرحَّل داخلها ، كما بقيت في الثقافة التي حافظت على الهوية والذاكرة ، وعززتها القوانين الدولية بدءاً من قرارات مؤتمر فرساي عام ١٩١٩ التي تكرست في المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم ، وأكدت على « أن المجتمعات التي كانت خاضعة للدولة العثمانية قد وصلت الى مرحلة من التطور تجعلها قابلة للاعتراف بها كشعوب مستقلة بعد أن تمر بمرحلة من الانتداب» (روجان، ٢٠١٣، ص. ٤١). ومرورا بقرارات الأمم المتحدة ١٨١ لعام ١٩٤٧ و ١٩٤ لعام ١٩٤٨ ، و ٢٧٣ لعام ١٩٤٩حيث اشترط الأخير على إسرائيل الالتزام بتنفيذ القرار ١٩٤ حول عودة اللاجئين الفلسطينيين ، والقرار ١٨١ حول تقسيم فلسطين ، كشرطين لاستمرار عضويتها في الأمم المتحدة . وكذلك كل القرارات التي تلت احتلال عام ١٩٦٧ والتي أكدت كلها على بطلان شرعية الاحتلال وكل اجراءاته وقراراته ، فهل ستتحول هذه القرارات الى رافعة تنقل فلسطين من الاحتلال والاستعمار الاستيطاني إلى الاستقلال ضمن كفاح قانوني منظم ومتواصل تشارك فيه كل أطياف الشعب الفلسطيني كل في موقعه في كل أرجاء العالم ؟

أين نقف : النكبة الثالثة أم التحرر والاستقلال ؟

استمر تعميق النكبة بعد عام ١٩٦٧ في النقب والجليل والمثلث والقدس والضفة وغزة . ومرت بأطوار مختلفة منذ ذلك الحين ، إنتهت في العقد الأخير وهو ما يهم هذه الورقة بتحول مركز الصهيونية من ساحل تل أبيب ومنطقة غوش دان إلى جبال القدس والضفة (يهودا والسامرة كما يسمونها) ، بالتحالف مع مناطق الأطراف المحتلة عام ١٩٤٨في طبريا وصفد وبئر السبع وهوامش مدن الساحل ذات الطابع السكاني الفقير والحريدي مثل بلدة بني براك قرب تل ابيب مثلا، وهو تحول لم يكتمل دائما ، ولكنه في طريقه للاكتمال سيما إذا ما استمر باضطراد التوسع الاستيطاني الاستعماري في الضفة والقدس الشرقية . السؤال الذي يهم هذه الورقة هو عما إذا كان هذا التحول يؤذن بالتحضير لنكبة جديدة للشعب الفلسطيني تحقق الانتصار التام عليه وهو ما عجزت عن تحقيقه نكبتا ١٩٤٨ و ١٩٦٧؟

ارتبط انتقال مركز الصهيونية من السهول البحرية إلى الجبل الممثل بالقدس واراضي مملكتي يهودا

والسامرة التاريخيتين مع تعزز الاتجاهات الدينية ، والدينية القومية التي تسعى للاستحواذ على أرض فلسطين الكاملة على فلسطين بداية ، وتحالف مستعمرو الجبل هؤلاء مع محافظي مدن الأطراف الفقيرة داخل إسرائيل . طبق سليم تماري في كتابه الجبل ضد البحر نموذج ثقافة البحر المنفتحة مقابل ثقافة الجبل المنغلقة على فلسطين وثمة نقاش معه سيتم اجراؤه في مكان آخربشأن مدى قابلية تطبيق هذا المفهوم على فلسطين (تماري ، ٢٠٠٥) .

في المقابل يمكن القول في حالة إسرائيل أنها تشهد اليوم تعزز الجبل الاستيطاني الاستعماري الإسرائيلي في القدس والضفة بالتحالف مع الأطراف الشمالية والجنوبية للدولة قبل عام ١٩٤٨ في مواجهة الساحل الاستيطاني الاستعماري القديم ، وذلك انطلاقا مما يمثله التحالف الجديد من حالة بعث أو ولادة للمشروع الصهيوني من جديد باتجاه نكبة جديدة للشعب الفلسطيني ، وذلك بعد أن فقد مشروعه الساحلي القديم زخمه في توسيع المشروع الصهيوني واحداث نكبات اضافية ، ويسعى التحالف الجديد إلى تغيير طبيعة الدولة ونقل مركزها من الساحل الى الاطراف والقدس والجبل ومواصلة تعزيز المشروع التهويدي لفلسطين . مع ذلك ترى هذه الورقة أن المركز الجبلي - الطرفي الجديد قد يصطدم مجددا بذات العقبات التي حالت دون النجاح الكامل للمشروع التهويدي السابق الساحلي القيادة، مع وجود خطط لتجاوز العقبات السابقة عبرت عنها خطة « الحسم « لسموتريتش لعام ٢٠١٧ والتي تضع الفلسطينيين أمام ثلاثة خيارات أولها القبول التام بالحكم الصهيوني على كل فلسطين ، أو الرحيل الى خارج البلاد ، أو المقاومة وما يترتب عنها من قتل (سموتريتش ، ٢٠١٧) .

في ذات الوقت يبذل الساحل اقصى جهوده للحفاظ على قيادته وامتيازاته في معركة ربما تكون / أو لا تكون الاخيرة عبر المظاهرات والاحتجاجات ضد التعديلات القضائية التي ينأى عنها بل ويدينها مستعمرو القدس والضفة وأطراف الدولة الشمالية والجنوبية المساندون لنقل مراكز الدولة إليهم ، بل وقد نظم هؤلاء الأخيرون مظاهرات مساندة لحكومة نتنياهو وتعديلاتها القضائية المقترحة وإن بعدد وزخم أقل من مظاهرات الساحل الذي يدافع عن امتيازاته .

حسب سلمان أبو ستة (ابوستة ، ١٩٩٢و ٢٠١٠) يقطن ٨٩ بالمئة من سكان دولة إسرائيل اليهود بحدود عام ١٩٤٨ في مساحة ٢٤٥٨ كيلومتراً مربعاً ، أي ما لا يزيد عن ١٢ بالمئة من مساحة فلسطين في تلك الحدود . وتتركز غالبية هؤلاء في المدن الساحلية المنفتحة على العالم ، العصرية الغنية والمرفهة والعاملة في قطاعات اقتصادية متقدمة مثل الهاي تيك ، وهي مدن مثل تل أبيب وحيفا ، ويضاف لها وجود يهودي كثيف في القدس الغربية المدينة الشاذة عن هذا السياق حيث تتسم بالتدين والمحافظة بعد الهجرة المتزايدة للنخب الاشكنازية العلمانية من المدينة نحو مدن الساحل ، هذا فيما يتقلص الوجود اليهودي في أطراف الدولة الشمالية والجنوبية،والتي فيها تسود - إضافة للقدس الغربية -

النزعة الدينية المحافظة المرتبطة بالفقر وأوضاع ادنى في السلم الاجتماعي .

من جهة اخرى لا زال الشعب الفلسطيني يمثل الوجود الأبرز في النقب والجليل والمثلث، بل والغالبية في الأخيرتين ، علما أن الاولى (أي النقب) يمثل مساحة كانت تزيد قبل تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨، عن ١٢ ألف كيلومتر مربع حسبما اورد غازي فلاح (فلاح ، ١٩٨٩)، فيما لا يقطن فيه سوى أعداد قليلة من البشر. تشير هذه المعطيات إلى فشل القيادة الصهيونية الاشكنازية العمالية التي أسست الدولة والآيلة للسقوط في تهويد فلسطين ، وبدون التقليل من إنجازاتها حيث هدمت مئات القرى الفلسطينية واقتلعت مئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين في عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، وغيرت الإقليم والفضاء والمشهد في بعض أنحاء فلسطين ، إلا أن الجليل والنقب والمثلث لا زالت عربية فلسطينية ، وكذلك لا زالت معالم فلسطين باقية في الناصرة المدينة العربية وعكا ويافا وحيفا ويافا وغيرها مما يسمى بالمدن المختلطة .

حاولت الصهيونية بقيادتها الاشكنازية العمالية الهروب من هذا الفشل في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ إلى الأمام وذلك عبر توسيع الكيان ليشمل كل أراضي فلسطين التاريخية ، وتم ذلك من خلال شن حرب ١٩٦٧ العدوانية والتي أصبحت بعدها تسيطر على كل فلسطين إضافة للجولان السوري المحتل الذي لا زال في قبضتها بعد أن انسحبت من سيناء عام ١٩٨٢. هنا تمت السيطرة على الجبل الفلسطيني ، وباشرت الاستيطان الاستعماري فيه تعويضا عن الفشل في توسيعه في أطراف الدولة التي قامت عام ١٩٤٨. ولكن كعب أخيل الذي قد يتسبب في النهاية التامة للهيمنة الاشكنازية العمالية الساحلية المرفهة ، قد تمثل في هذه « الخطيئة» بمد الاستيطان الاستعماري الى الجبل ، فقد ترتب عن هذا التوسع تحالف مستعمري الجبل مع سكان أطراف دولة ١٩٤٨ والقدس اليهود ضد الهيمنة الاشكنازية العمالية الساحلية .

حتى عام ١٩٧٧ كانت النخبة الحاكمة الاشكنازية العمالية الساحلية تسيطر على مقاليد الأمور بزعامة حزب العمل ، وقد ظنت هذه النخبة أنه يمكنها إقامة مشروع استيطاني استعماري تحت رادار الضبط ، بحيث يقوم فقط في المناطق التي تريد ضمها إلى إسرائيل في القدس الشرقية والغور والسفوح الشرقية من الضفة المحاذية لإسرائيل وفق خطة يغئال الون آنذاك ، ولكن مجرد إنشاء المشروع الاستيطاني الاستعماري قد مثل البداية التي حفرت فيها هذه النخبة الاشكنازية الساحلية القبر لنفسها، فقد أدت ديناميكيات نمو المشروع الاستيطاني الى انقلاب السحر على الساحر ، وخرج المشروع الاستيطاني الاستعماري عن الضبط ، وبدأ يتوسع نحو إنشاء مدن استيطانية استعمارية وليس مجرد مواقع استيطانية استعمارية صغيرة هنا وهناك في ريف الضفة ، ومثل الانقلاب الليكودي عام ١٩٧٧ تعزيزا لهذا التوجه ، حيث أن الليكود والأحزاب المتحالفة معه كانت تمثل غالبية يهود القدس

الغربية والأطراف في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، والمستوطنين في الضفة (وغزة سابقا حتى تفكيك المستعمرات فيها عام ٢٠٠٥) ، وكذلك تمثل الاشكنازية الأخرى ذات التوجه الجابوتنسكي التي رأت منذ فجر الصهيونية أنه لا بديل عن إقامة « الوطن القومي « الذي نص عليه تصريح بلفور عام ١٩١٧ على كل أرض فلسطين التاريخية وليس على جزء منها وحسب.

أدى هذا التحول في حينه إلى اثارة الذعر في أوساط النخبة الاشكنازية الساحلية التي صارت تتحدث في ثمانينات القرن الماضي عن أن المستوطنين سينشقون عن الدولة وسيخوضون حربا أهلية مع الجيش الإسرائيلي يسفر عنها نشوء « مملكة يهودا والسامرة «، وعبرت عن ذلك آنذاك كتابات صحافيين بارزين مثل زئيف شيف (المصدر، ١٩٨٨) ، وأكاديميين مرموقين مثل يعقوب تالمون الذي وجه رسالة لرئيس الوزراء الليكودي مناحيم بيغن عام ١٩٨٩ يحذر فيها بأن البلد في خطر ومن حرب أهلية بين الأخوة (اورونسون ، ١٩٩٠)

لم يكن ذعر النخبة الاشكنازية الساحلية الا رعب الخائفين على مصالحهم وامتيازاتهم ، ومن أن ينتقل مركز توزيع الثروة من ساحلها البحري الجميل الى جبال الضفة حيث يقيم المستوطنون المستعمرون ، والى الأطراف ومنها بئر السبع التي طرح نتنياهو لاحقا تحويلها إلى عاصمة تكنولوجية لدولة إسرائيل .وعلى العكس من إمكانية انشقاق دولة يهودا والسامرة عن الدولة فقد قام المستوطنون بتكثيف تمثيلهم في أحزاب سياسية داخل الدولة بحيث باتوا يمثلون القوة المقررة الحاسمة في الكنيست والحكومة ، وهو الأمر الذي تحقق لهم في انتخابات الأول من تشرين ثاني ٢٠٢٢. في البداية طرحت حركة غوش ايمونيم بعد عام ١٩٦٧ فكرة « استمالة القلوب والعقول « داخل إسرائيل لصالح المستوطنين، واليوم تم الوصول الى مرحلة بات فيها المستوطنون هم المتحكمون بمفاصل الدولة ، لا بل الى وضع أصبح فيه مستوطنو الضفة والقدس يغزون الدولة من أجل صهينتها وتعزيز طابعها اليهودي وذلك من خلال إقامة النويات التوراتية في اللد والرملة وعكا ، من أجل محو ما تبقى من طابع عربي فلسطيني في هذه المدن (بشير ، ٢٠٢١).

يعني هذا التطور أن المستوطنين في الضفة والقدس باتوا يأخذون على عاتقهم استكمال المشروع الصهيوني التهويدي في كل فلسطين سواء المحتلة عام ١٩٤٨ او عام ١٩٦٧، وذلك ضمن تقسيم عمل يتولى فيه بن غفير وحزبه مسؤولية استكمال تهويد النقب والجليل والقدس الشرقية ، فيما يتولى سموتريتش (وكلاهما مستوطنان في مستعمرات الضفة) استكمال تهويد الضفة الفلسطينية ، والمشاريع بهذا الشأن باتت واضحة بعد اربعة شهور من تولي الحكومة الإسرائيلية الحالية لمهامها . بهذا الفهم يمثل هؤلاء استمرارا لبن غوريون وقادة الصهيونية الاوائل الذين لم يكن لديهم استعداد لأية ذرة من الرأفة بالفلسطينيين ، بعدما رأوه من تراجع النخبة الاشكنازية الساحلية - وفق رأيهم - عن طريق القادة الأوائل.

أمام سيطرة مستعمري الجبل والقدس والأطراف على مفاصل الدولة ودوائر صنع القرار فيها ، وسعيهم الحثيث لتغيير بنية مؤسسات الدولة والمجتمع نحو المزيد من هيمنة الدين على كل نواحي الحياة بدعم من مستعمري القدس والضفة وأطراف الدولة الشمالية والجنوبية ، عاد الذعر الى النخبة الاشكنازية الساحلية والذي انتابها في ثمانينات القرن الماضي ، ولكن هذه المرة بشكل أشد عبرت عنه مظاهراتها الأسبوعية في مراكز المدن، فهل تنجح النخبة الاشكنازية الساحلية في محاولتها هذه التي تبدو ربما أنها الاخيرة في الحفاظ على امتيازاتها ، أم أن مركز الدولة سينتقل من غوش دان إلى جبال القدس و» يهودا والسامرة « والأطراف ومنها بئر السبع وطبريا والعفولة وصفد ؟. لا زالت المعركة قيد السجال بهذا الشأن ، الا أن امرين يبقيان في غاية الجلاء : الأول منهما أن أطراف الصراع الصهيوني الساحلي - الجبلي متفقان على أسرلة وتهويد فلسطين وإن اختلفا في طرق العمل المتعلقة بكيفية تحقيق ذلك، كما أن هنالك ما هو مشترك بينهما بهذا الشأن عبرت عنه التصويتات المشتركة للحكومة والمعارضة على قوانين مثل سحب الجنسية من « الإرهابيين « وعائلاتهم، وتمديد العمل بقوانين الطوارئ في الضفة . كما أن المحكمة العليا تقف الى يمين الحكومة بشأن إخلاء الخان الأحمر وطلبها مؤخرا تفسيرا من حكومة نتنياهو عليها قدمته في اول ايار ٢٠٢٣ عن سبب امتناع الحكومة عن القيام بالإخلاء. هذه مجرد أمثلة على الأجندة المشتركة وتبادل الأدوار بشأن التهويد والأسرلة. والثاني : أن المشروع الصهيوني لتهويد فلسطين يفشل حتى الآن فيما يستمر في محاولات التهويد وتغيير أساليب البطش والتفنن بها وفق منهج التجربة والخطأ الذي عبر عنه عنوان كتاب حاييم وايزمان ، وإعادة تكرار المحاولة مرة ومرات بدون كلل حتى الآن، ومع ذلك لا زال الجليل والنقب والمثلث عربيا ، وعلى ذات النحو تم تفكيك المستعمرات الصهيونية من قطاع غزة عام ٢٠٠٥، وتبقى البلدة القديمة من القدس عربية فلسطينية ، حيث لا يزيد عدد المستعمرين اليهود فيها عن واحد بالعشرة من سكانها رغم كل المحاولات التهويدية منذ عام ١٩٦٧ . وحدها حرب اقليمية، او حرب شاملة ضد الشعب الفلسطيني قد تحل هذه المشكلة كليا أو جزئيا بإحداث نكبة جديدة عبر عملية طرد شاملة أو جزئية تحت غطاء هذه الحرب، ويخطط بن غفير وسموتريتش لاستفزاز الشعب الفلسطيني بكل الطرق بما يوصل الى الحرب الشاملة بحجة التصدي للعمليات الفلسطينية وبحيث يترتب عن ذلك طرد أقسام واسعة من الشعب الفلسطيني تحمل مسؤولية طردها بذريعة ممارسته « للإرهاب «، ويسمي سموتريتش ذلك بخطة الحسم كما ورد ، وبالتالي التسبب بنكبة ثالثة للشعب الفلسطيني . ولأن سموتريتش يمثل التيار الأكثر تصميما ، فإنه يعكس مستقبل الصهيونية ودولة إسرائيل الجديدة ذات المراكز في القدس وبئر السبع والمستعمرات في الضفة، ومدن الشمال في الدولة ، مقابل خبو « جمهورية تل أبيب « كما سماها أرنون سوفير (بيستروف وسوفير ، ٢٠١١) . وحدها متغيرات إقليمية ودولية وكفاحية فلسطينية يمكن ان تغير هذا المسار.

خاتمة: العتبة القادمة ، من النكبة إلى التحرير؟

هل ستنجح العوامل الفلسطينية والإقليمية والدولية في تغيير المسار نحو نكبة ثالثة تخطط لها الصهيونية ، وباتت تطرح برامج سافرة لتطبيقها كما تبين ؟ . يصعب في ورقة قصيرة تحليل كل هذه العوامل بالتفصيل ، ولكن المؤشرات البادية في الأفق توحي بأن خطط الصهيونية لايقاع نكبة جديدة بالشعب الفلسطيني لم تعد ممكنة لعوامل عدة ، لعل الأول منها أنه رغم ما ترتب عن النكبتين السابقتين من طرد لغالبية الشعب الفلسطيني من أرضه ، فإن الباقين الذين نجوا من الطرد وقاوموه قد باتوا يمثلون اغلبية في ارض فلسطين التاريخية مقابل اليهود ، وذلك منذ عام ٢٠١٠ كما تفيد الإحصاءات الديمغرافية. عوضا عن ذلك فإن الشعب الفلسطيني يتمتع اليوم بوعي أعلى يجعل أية محاولة للطرد الشامل غير ناجعة . هذا ناهيك عن أن الحدود العربية لم تعد مفتوحة للطرد بذات الطريقة كما كان عليه الحال عام ١٩٤٨، ومع التحولات الاخيرة في المنطقة بما فيها المصالحة السعودية الإيرانية هذا العام ، فإن الغطاء العربي لضربة اسرائيلية لإيران تطرد اسرائيل الفلسطينيين خلالها لم يعد متوفرا ، كما تراجع التطبيع العربي الابراهيمي أمام اكتشاف دوله أن إسرائيل ليست دولة كلية القدرة وقابلة للاعتماد عليها في حماية تلك الدول. وتتم هذه التحولات كلها في ظل التراجع في الدور المحوري للولايات المتحدة الأميركية في العالم ، وصعود الصين كدولة جذب عظمى جديدة يفوق ناتجها المحلي الاجمالي الناتج الأميركي ، كما أنها لا تقع تحت طائلة المديونية العالية التي تتجاوز بكثير موازنة الدولة كما هي الحالة في الولايات المتحدة الأميركية.

توفر هذه المعطيات بيئة افضل للكفاح الفلسطيني من اجل عكس مسار الطرد. ولكن عكس مسار الطرد لا يعني تلقائيا تحقيق التحرر . فقد لا تتمكن الصهيونية من القيام بالطرد بسبب العوامل اعلاه ، ولكن تبقي في المقابل الاحتلال والتوسع الاستيطاني الاستعماري وعمليات الضم الفعلي القابلة للتحول إلى عمليات ضم رسمية وفق القانون الإسرائيلي . يعني ذلك خلق نظام ابارتهايد يتمتع فيه الاسرائيليون فقط ودون غيرهم بالمواطنة، ويمارسون التمييز الاقتصادي والاستثناء السياسي والتهميش الاجتماعي ضد الشعب الفلسطيني . فكيف السبيل لأن يكون كبح الطرد فاتحا لمسار نحو التحرر وليس مسارا نحو الابارتهايد كبديل صهيوني عن الطرد ؟ . تتشابك عوامل المقاومة بأشكالها الست السياسية الدبلوماسية ، والقانونية ، والاقتصادية التنموية ، والكفاحية الميدانية ، والمعرفية ، والاعلامية معا وفي إطار مشاركة فلسطينية شاملة رسمية وشعبية في الوطن والشتات ، ومشاركة عربية وعالمية صديقة لتحقيق تحرر فلسطين من خلال جعل العالم كله ساحة للنضال من أجل تحقيق هذا الهدف النبيل .

كارل صباغ، بريطانيا في فلسطين قصة الحكم البريطاني لفلسطين ١٩١٧ـ ١٩٤٨، ترجمة محمد عصفور،

منى عبد الفتاح رمضان*

كارل صباغ، كاتب فلسطيني الأصل، ولد ونشأ في بريطانيا، أنتج العديد من البرامج الوثائقية للإذاعة البريطانية والتليفزيون الأميركي. في إطار بحثه عن تاريخ عائلته بفلسطين انتقل إلى نطاق أوسع؛ ليوثق الظُّلْم الذي وقع على الشعب الفلسطيني، في النصف الأول من القرن الماضي، وما تبع ذلك من أحداث أدت إلى نكبة ١٩٤٨.

وضع صباغ في هذا النطاق عدة مؤلفات، كان من أهمها هذا الكتاب الذي يؤرخ للدعم البريطاني؛ لتحقيق الحلم الصهيوني في إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، خلال فترة حاسمة، من تاريخ القضية الفلسطينية، وهي فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، من ١٩١٤ حتى ١٩٤٨ ، حاول صباغ من خلال هذا الكتاب ، سبر الأغوار عن الدور البريطاني، وسياسته المشبوهة، في خدمة الحركة الصهيونية، و منحها فرصة السيطرة على فلسطين، والبحث عن الآليات التي اتبعها الانتداب البريطاني، وقادت في النهاية إلى قيام « إسرائيل»، وأقرت ومهدت لجرائمها، وانتهاكاتها اللاحقة، في حق فلسطين وشعبها.

جاء الكتاب في ١٥٩ صفحة من القطع المتوسط، وزعت ما بين، استهلال، ومقدمة، إضافة لثمانِية فصول. حمل الفصل الأول عنوان « فلسطين قبل مجيء البريطانيين»، والذي عرض فيه المؤلف موجزاً عن تاريخ أرض فلسطين، قبل مجيء البريطانيين، وطبيعة نسيجها الشعبي، وفئاتها السكانية، والوضع السياسي، والاقتصادي فيها، والتقسيم الإداري لها، من مدنٍ وقرى، اختص منها مدن يافا، ونابلس، وحيفا، والقدس، وغزة.

* كاتبة وباحثة.

أما الفصل الثاني، فقد تناول بالشرح علاقة فلسطين بأوروبا في العصر الحديث، وحقيقة الأطماع الأوروبية في الشرق الأوسط، بوجه عام، وفلسطين على وجه الخصوص، وتحوُّل الموقف البريطاني تجاه الإمبراطورية العثمانية، في الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر، من الدعم، إلى المواجهة، مروراً بالحرب العالمية الأولى ووعودها المتناقضة، وصولاً إلى دخول بريطانيا لفلسطين.

«عقد الحلفاء المنتصرون، وهم بالدرجة الأولى بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأميركية، وإيطاليا مؤتمراً للسلام في باريس؛ حيث بدأوا بالتخطيط لتسوية الأمور مع ألمانيا، وحلفائها بما يتناسب وحاجاتهم، وكان من بين المسائل التي بُحثت في ذلك المؤتمر، مسألة فلسطين، وأصر البريطانيون، بصفتهم القوة الرئيسة في دول التفاهم، على تنفيذ إعلان بلفور، على أنه المبدأ الذي سيتحكم بشكل الحكم في فلسطين».(ص ٧٠) «مؤتمر السلام»، عام ١٩١٩ كان من بين موضوعات الفصل الثالث، والذي تطرق إليه صباغ بصورة موجزة، إضافة إلى لجنة كنج ــ كرين من ذات العام ١٩١٩، وتأملات لويد جورج يتسلي بتوسيع سيطرة بريطانيا في الشرق الأوسط ، لتتجاوز ما نصت عليه اتفاقية سايكس ــ بيكو، وكيف كانت ردود الفعل في فلسطين حيال ذلك؟

كان المفروض أن تتولى بريطانيا بصفتها الدولة المنتدبة في فلسطين، تقديم المعونة والنصح لشعب فلسطين لتُعِدّه لكي يحكم نفسه، إلا أن اهتمام الإدارة البريطانية، انصب على تهيئة فلسطين، لتكون وطناً لليهود. وهو الأمر الذي دلل عليه المؤلف في الفصل الرابع، من خلال عرضه لعدد من الوثائق، التي كشفت عن شكل الحكم البريطاني في فلسطين، منذ بداية الانتداب في ١٩٢٠، وحتى رحيلها في ١٩٤٨، والسياسة البريطانية المتبعة في تشكيل الحكومة، وتعيين حكام المناطق، واختيار موظفي الدولة، وعناصر الشرطة.

استعرض صباغ في الفصل الخامس مدى استغلال كل من اليهود، والبريطانيين الصياغة التي تعمدت الغموض لإعلان بلفور، ولصك الانتداب في تقديم الحجج لدعم تفسيرهما لعبارة « وطن قومي لليهود»، ومراسم التحضير للدولة اليهودية القادمة، ودور الوكالة اليهودية التي أصبحت منذ١٩٢٩ تقوم بدور حكومة الشعب اليهودي لدعم الولاء لـ « الوطن القومي»، والأساليب المنتهجة لإيجاد مساحة عبرية على أرض فلسطين، وخلق الظروف المثالية لظهور الصراع بين العرب واليهود.

« أبدى العرب تخوفهم من الصهيونية، منذ بدايتها؛ ففي سنة ١٨٩٨ حذَّرت المجلة القاهرية (المنار)، من أن الصهيونية تستهدف الاستيلاء على فلسطين، وفي سنة ١٩٠٨، أُنشئت مجلة (الكرمل) في حيفا، لمعارضة الاستعمار الصهيوني، وظهر ما لا يقل عن ٦٠٠ مقال يهاجم الصهيونية، في الصحف العربية الكبرى، بين سنة ١٩٠٨و١٩١٤». (ص١٠٥) بهذه العبارة استهل صباغ الفصل السادس، الذي أوضح فيه، خلفية المعارضة والاحتجاجات العربية، ومراحل الصمود، والمقاومة الفلسطينية، منذ

عام ١٩٣٢، حتى ١٩٣٩.

ركز صباغ في الفصل السابع، على المحاولات البريطانية، لمواجهة الثورات العارمة في فلسطين، حين طفقت بريطانيا تواري أزمتها بورقتها البيضاء عام ١٩٣٩، المسماة بـ «مؤتمر الكتاب الأبيض»، المنعقد في لندن، والذي سُمح فيه لأول مرة، لعرب من فلسطين، بحضور مناقشات تخص مستقبل بلدهم! كذلك تتبع المؤلف، في ذات الفصل، موقف الصهاينة من هذا المؤتمر، ونتائجه، والخطط، والأساليب الصهيونية الإرهابية التي لجأت إليها جماعاتهم للحيلولة دون تحقيق ما جاء فيه.

ألقى المؤلف، في فصل كتابه الثامن والأخير، حزمة من الأضواء، على أسباب، ومراحل خروج بريطانيا من فلسطين، وأبعاد المأزق البريطاني، الذي وضعت نفسها فيه، ما جعلها تُحيل موضوع القضية الفلسطينية برُمته للأمم المتحدة. « قامت الحكومة البريطانية، بمسعى أخير لإيجاد حل يناسب جميع الأطراف، في مؤتمر عُقد في لندن، واستمر من أيلول ١٩٤٦، إلى كانون الثاني ١٩٤٧، ولكنه فشل هو الآخر، وكانت الحكومة قد أخذت تواجه مع حلول شباط ١٩٤٧، نقداً شديداً، من الصحافة، والشعب البريطاني، حول التضحية بحياة البريطانيين، وأموالهم، ولذلك قررت عرض الموضوع على الأمم المتحدة، والتي ورثت نظام الانتداب، لكي ترى رأيها في إيجاد حل»(ص١٢٨)، ليختتم صباغ كتابه بنبذة مختصرة عن حروب، ومعارك فلسطين، تحت حكم البريطانيين، وانتهاء الانتداب البريطاني عليها، وما لحق ذلك من أثار أشد كارثية .

القارئ للكتاب؛ يلاحظ الجهد الذي بذله المؤلف، خاصة فيما تعلق بالمصادر، والتي جمعها من خلال معرض أقيم بصالة برونواي بلندن عام ٢٠١٢، جمعت وثائقه ومعلوماته « آن لنين»، قَيمَة المعرض، بالإضافة لإجراء صباغ مقابلات عديدة مع مؤرخين، وباحثين، وشخصيات، من الجانبين الإسرائيلي، والعربي، لها إطلاع واسع، على سير الأحداث، خلال الفترة التي تناولها الكتاب، حتى يعطى صورة متوازنة، عن تلك الحقبة.

خيراً فعل صباغ، حين دعم كتابه بعدد كبير من الصور، التي أرجع مصدرها، إلى مجموعة « ماتسن»، الموجودة في مكتبة الكونجرس الأميركي.

يعد الكتاب، سجلاً هاماً، لحقبة من التاريخ ، شهدت إحلال شعب مكان آخر، في مرحلة كان الاتجاه العام فيها، نحو الانتهاء من حقبة الاستعمار، وتحرير الشعوب، بدلاً من استعمار أراضيها، وتشريد مالكيها، في بقاع الأرض المختلفة، وهو بذلك يحمل قيمة نوعية، يجب ألا تفوت المهتمين، والباحثين في مجال التاريخ السياسي، وألا يسقط من بين يدي الجمهور من القراء والمثقفين، المفترض فيهم السعي لمعرفة الحقيقة، خاصة ما تعلق منها بالشأن الفلسطيني.

أخيراً، يجدر بنا القول إنه، بالرغم مما انتهجه المؤلف في كتابه، من سرد تاريخي مختصر ، وسريع، ابتعد فيه كل البعد، عن لغة الخطابة، وإثارة المشاعر، إلا أنه استطاع الربط بين الماضي القريب، والحاضر الصعب، الذي وصل إليه حال القضية الفلسطينية، والوضع الراهن في فلسطين؛ ليدعونا أن نتذكر، ولا ننسى، وأن نستخلص الحقائق، والدروس المستفادة، ويساعدنا على إيجاد الذاكرة التاريخية ، وتقويتها، وجعلها أهم وسائلنا، لإبقاء قضيتنا الفلسطينية،مشتعلة، وحية، على مدى الأجيال، والأزمنة ، تلك الذاكرة التي ينبغي أن تتطلع دوماً للمستقبل، مستفيدة من أخطاء الماضي، وانكساراته، وتكون حارساً أميناً للهوية الوطنية، والأمان القومي.

هل من نخب جديدة في دولة الاحتلال الإسرائيلي؟

عليان الهندي*

شكل الانتصار الكبير الذي حققته إسرائيل في عدوانها على الدول العربية والشعب الفلسطيني عام ١٩٦٧، ذروة القوة والنفوذ الذي تمتع به قادة ومؤسسو دولة الاحتلال وضباط الجيش وأبناء «الكيبوتسات» الذين تشكلت منهم النسبة الأكبر في الجيش، مقارنة مع عدد سكانها في المجتمع الإسرائيلي.

لكن حرب عام ١٩٧٣ ونتائجها المخيبة لإسرائيل، أضعفت كثيرا النخب المُؤَسِسَة لدولة إسرائيل (حزب العمل ومبام وغيرهما)، التي توجت بسقوطها في انتخابات عام ١٩٧٧ أو ما سمي بالانقلاب السياسي في دولة الاحتلال، الذي جاء بحزب حيروت الذي ضم كتلة «غاحل» والليبراليين، إلى الحكم بقيادة مناحيم بيغن، الذين شكلوا سويا ما أصبح يعرف بحزب الليكود، الذي تولى الحكم، ولم يتطلع كثيرا إلى إبراز نخب سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة، بل ركز جل اهتمامه على الاستيطان في الضفة الغربية ومدينة القدس، والقضاء على أي أمل بالحل مع الفلسطينيين وفق أي رؤية كانت، وفي نفس الوقت القضاء على النخب السياسية القديمة التي أسست وحكمت دولة الاحتلال حتى عام ١٩٧٧، من خلال عقد تحالفات جديدة مع الأحزاب الدينية المتزمتة دينيا «الحريديم»، الذين يميلون نحو اليمين من حيث السياسيات اتجاه الفلسطينيين، ومع أنصار الصهيونية الدينية «المفدال» الذين اتجهوا نحو التطرف بانتخاب يوسف بورغ رئيسا للحزب وأفنير حاي شاكي وزبولون هامر في قيادة الحزب، الذين سبق وأن أعلن حاخامتهم أن النصر الذي تحقق لدولة إسرائيل في عدوان عام ١٩٦٧ شكل خطوة جديدة نحو تطهير هذه البلاد من السكان العرب الفلسطينيين، وخلاص ما يسمى بـ «الشعب» اليهودي وجمع المنافي وبناء «الهيكل الثالث» مكان الحرم القدسي الشريف، الذين اعلنوا

* باحث في الشؤون الإسرائيلية.

مع أحزاب المتدينين المتزمتين «الحريديم»، عن فك التحالف التاريخي مع حزب العمل، وبالتالي ساهموا مساهمة كبيرة في إزاحته من سدة الحكم.

انتهاء دور النخب المؤسسة

التحالف الجديد المشكل من أحزاب اليمين والمتدينين المتواصل حتى اليوم، ولا يتوقع له أن يتفكك في القريب العاجل، نظرا لزيادة التوجهات اليمينية المتطرفة ذات التوجهات الفاشية والعنصرية الواضحة في التعامل مع العرب بشكل عام ومع الفلسطينيين بشكل خاص، ونتيجة للتغييرات الإقتصادية التي حدثت في إسرائيل في بداية الثمانينات من القرن الماضي، التي عملت على خصخصة الشركات العامة التابعة للنقابات العمالية «الهستدروت»، وحدوث تحولات في نخب حزب العمل نحو الميل للتوصل إلى حل ما مع الفلسطينيين، من دون أن ينعكس ذلك على الشارع الإسرائيلي المؤيد لهم، الذي ظل أمينا للفكر الصهيوني المحافظ والمتطرف الرافض لأية حلول مع الشعب الفلسطيني، وجهت ضربة قاسية لحزب العمل.

في ذات السياق، سار رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود براك، الذي رفض ترأس حزب اسمه «حزب العمل»، وشكل بدلا منه «إسرائيل واحدة» رغم انتخابه من قبل أعضائه، الذي فضل العمل على إنهاء قوى اليسار الإسرائيلي بشكل عام، وبشكل خاص تلك المتمركزة في حزب العمل الإسرائيلي، المؤيدة للسلام مع الشعب الفلسطيني، الذين دعموه سياسيا، وساعدوه ليصل إلى سدة الحكم، معتقدين أن إيهود براك هو الشخص الوحيد القادر على إعادة الحكم لليسار، ووراثة إسحاق رابين، وفي التوصل إلى تسوية سلمية مع الشعب الفلسطيني قائمة على حل «دولتين لشعبين».

من أجل تحقيق هدفه، لم يذهب إلى المواجهة المباشرة مع هذا التيار، الذي ضم شخصيات ونخبا مهمة في المجتمع الإسرائيلي مثل يوسي ساريد وشولميت ألوني من حزب راتس (ميرتس حاليا)، ولوبي ١٧ في الكنيست، الذي ضم الأعضاء المؤيدين لحل مع الفلسطينيين في حزب العمل الإسرائيلي، الذين كان من بينهم يوسي بيلين وعوزي برعام وشلومو بن عامي وأبراهام بورغ. بل اتجه نحو «الكشف عن الوجه الحقيقي للراحل ياسر عرفات» الرافض للسلام وإفشال المفاوضات مع الفلسطينيين في كامب ديفيد الثانية، من أجل استعادة رواية «عدم وجود شريك فلسطيني»، في نفس الوقت إشعار تلك النخب بفشلها من خلال اعتقاده بعدم توجه الفلسطينيين نحو السلام، ما دفع تلك النخب إلى اعتزال الحياة السياسة، ما ترك الباب على مصراعيه لممارسة كافة أنواع الإرهاب والعدوان على الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجده في فلسطين التاريخية.

لكن الضربة القاضية التي وجهت لحزب العمل، كانت عند تشكيل حزب كاديما برئاسة أريئيل شارون. عام ٢٠٠٥، الذي ضم في صفوفه النخب القديمة لحزبي العمل والليكود، التي كان من أهم شخصياتها شمعون بيرس وحاييم رامون ورئيس الحزب نفسه بنيامين بن اليعازر ،المشرف على مذبحة مخيم تل الزعتر في لبنان، الذي شغل منصب وزير الدفاع في حكومة أريئيل شارون، ما ترك بقايا الحزب على قارعة الطريق، الذي لم ينجح بالنهوض حتى هذا اليوم، رغم كل محاولات الإحياء والتغيير التي مر بها الحزب، الذي أصبح اليوم ينافس على البقاء في الحياة الحزبية والبرلمانية، بعد أن كان يشكل كل الحكومات منذ تأسيس دولة الاحتلال الإسرائيلي حتى عام ١٩٧٧.

وما لم ينجح به إيهود براك، توكلت بتنفيذه حركات ومنظمات وجمعيات يمينية متطرفة مدعومة من اليمين الصهيوني-المسيحي في الولايات المتحدة، مثل حركة «إم ترتسو» التي يترأسها متان بيلغ، والجمعية الاكاديمية الإسرائيلية التي شارك في تأسيسها الدكتور إيلي بوليك ومردخاي كيدار، المدعومة من رجل الأعمال الروسي ميخائيل تشيرنوي (المقرب من وزير المالية الإسرائيلي السابق أفيغدور ليبرمان)، هجوما على الشخصيات الأكاديمية والثقافية والاجتماعية والفنية من ذوي التوجهات اليسارية، العاملة في المؤسسات التربوية مثل الجامعات والكليات ومراكز الأبحاث، بهدف منعها من إدخال السياسة إلى المؤسسات الأكاديمية، خاصة طرح حل القضية الفلسطينية وفق مبدأ دولتين لشعبين، ومحاربة التوجهات غير الصهيونية فيها. كما تضمن البحث، كشف هذه الشخصيات ووضعها في قوائم سوداء، باعتبارها شخصيات أجرمت بحق اليهود بتبنيها مواقف داعمة للحل مع الفلسطينيين. وكان من بين هذه الشخصيات، ممن يحملون درجة بروفيسور مثل أورن يفتحئيل وبانيا عوز زلتسبرغر وإيبار غروس. الذين اتهموا مع غيرهم من قبل حركة «إم ترتسو» بأنهم طابور خامس يحارب إسرائيل، بينما تحارب هي «المخربين» ووصفوا بأنهم جواسيس يجب طردهم إلى غزة لأنهم أخطر من «المخربين» الفلسطينيين. ووجهت سهام المؤسسات اليمينية المتطرفة حتى إلى ذوي التوجهات اليمينية الذين تجرأوا على توجيه أصابع النقد إلى السياسات الإسرائيلية المتطرفة مثل البروفيسور رفقة كرمي رئيسة جامعة بن غوريون في النقب.

أين اليمين الوسط ؟

مقابل السياسات التي اتبعها رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود براك، والجمعيات اليمينية المتطرفة، بحق اليسار الصهيوني على مختلف توجهاته، سار رئيس الوزراء الإسرائيلي الحالي بنيامين نتنياهو في نفس السبيل، بهدف إخراج قوى وشخصيات ونخب اليمين الوسط من الحياة السياسية مثل يورام أريدور وروني ميلو، وإحلال شخصيات أخرى موالية له شخصيا وليس للحزب أو لمبادئه،

بواسطة قوانين داخلية. وبالتعاون مع أحزاب اليمين نجح بنيامين نتنياهو بسن قوانين في الكنيست، تتعلق بتجميد دخول كبار ضباط الجيش المتقاعدين أو كبار موظفي الدولة الذين يتمتعون بالسمعة الجيدة في أوساط المجتمع الإسرائيلي، إلى الحياة السياسية لمدة ٣-٥ أعوام، لجعلهم يصرفون النظر عن مشاركتهم في الحياة السياسية، التي سبق أن كان الجيش رافدا مهما في ظهور قيادات سياسية واجتماعية لدولة إسرائيل.

في السياق المذكور، قسم بنيامين نتنياهو بصفته رئيس حزب الليكود، الانتخابات التمهيدية إلى ثلاثة أقسام، الأول، إجراء انتخابات لعدد محدد في قائمة الحزب للانتخابات العامة. والثاني، إجراء انتخابات لوائية يتم اختيار مجموعة من اعضاء الكنيست الجدد وغير المعروفين للحزب. والثالث، منح رئيس الحزب ،وبالتالي بنيامين نتنياهو، اختيار ٥ أعضاء في قائمة الحزب ضمن أول ٣٥ مرشح للحزب.

الطريقة التي ابتدعها بنيامين نتنياهو، أضعفت مؤسسات حزب الليكود وقوة اللجنة المركزية فيها، ومعها اليمين الوسط من ناحية اجتماعية، ونوعا ما سياسية، ومنحته نفوذا مطلقا في الحزب، ومنحت الأطراف من شرقيين ومستوطنين نفوذا وقوة حولتهم للقوى الأولى في الحزب، الذين صرح أحد قادتهم ،يوسي دغان، رئيس ما يسمى بمجلس مستوطنات «السامرة» ورئيس حركة «إسرائيل لي» أنه يقود أقوى تيار في حزب الليكود بقوة تصل إلى ١٠ آلاف عضو، أو ٢٠٪ من أعضاء الحزب المشاركين في الانتخابات التمهيدية لحزب الليكود عام ٢٠٢٢، وبهذه القوة أدخل لحزب الليكود ٢٥ عضو كنيست في الانتخابات الأخيرة، الذين يؤمنون بأرض إسرائيل الكاملة والرافضين لأي حل مع الشعب الفلسطيني.

إضافة إلى ذلك، نجح أعضاء الصهيونية الدينية الفاشية في إسرائيل بإدخال ١٤ عضو إلى الكنيست الحالية، ما شكل مع الليكود وأحزاب المتدينين المتزمتين وغيرهم في الكنيست القوة الأولى في دولة الاحتلال الإسرائيلي.

على نفس السياق، سار بنيامين نتنياهو في مسعاه لإضعاف مشاركة كبار ضباط الجيش في الحياة السياسية، خاصة أنهم يتمتعون بسمعة طيبة في أوساط المجتمع الإسرائيلي، حين سن قانون عدم مشاركة كبار الضباط في الانتخابات التشريعية إلا بعد ٣ سنوات من إنهائه الخدمة العسكرية. ومن المعروف في الأوساط العسكرية أن كل ضابط يتقاعد يستحق عاما دراسيا في أحدى الجامعات العالمية أو الإسرائيلية، وعاما أخر مقبوض الأجر من دون ممارسة أي عمل، ما يعني أن الضابط الذي يرغب بممارسة الحياة السياسية عليه الانتظار ٥ أعوام، بدلا من ٦ أشهر حسب القانون القديم.

بتلك الوسائل نجح بنيامين نتنياهو، في تحييد الكثير من نخب اليمين الوسط في إسرائيل وأخرج تقريبا النخب العسكرية من الحياة السياسية، وما الطفرة التي حدثت مع رئيسي الأركان السابقين بنيامين غانتس وغابي اشكنازي، ما كانت لتحدث لولا تخليهما عن الكثير من الامتيازات التي سمحت

بدخولهم المبكر إلى الحياة السياسية، إضافة إلى الرغبة التي أبدتها مؤسسات الدولة العميقة والنخب السياسية والاجتماعية والاقتصادية في دولة إسرائيل، التي اعتبرت أنه لم يعد لدى بنيامين نتنياهو ،اللاعب الوحيد في الساحة السياسية على مدار عقدين، ما يقدمه للمجتمع الإسرائيلي.

السياسات التي اتبعها كل من رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود براك والحالي بنيامين نتنياهو خلال العقود الثلاثة الماضية، دفعت نحو بروز نخب جديدة في المجتمع الإسرائيلي معظمهم يهود من ذوي الأصول الشرقية واليهود الروس، الذين لا يملكون خبرة عميقة في إدارة شؤون الدولة، ويتبنون مواقف سياسية متطرفة تجاه الفلسطينيين، ولا يخجلون من وصف أنفسهم بالعنصريين اتجاه الأخر، ويسعون إلى إرضاء الفئة (المستوطنين) التي أدخلتهم إلى الساحة البرلمانية والسياسية، الذين لا يطالبون بالمشاركة والحضور في مؤسسات الدولة العميقة، وبالتالي المشاركة في عملية صناعة واتخاذ القرار في الحرب والسلم، بل تسعي لاستبدال هذه المؤسسات، بالأحزاب الحاكمة في إسرائيل، أي إخضاع مؤسسات الحكم في إسرائيل بشكل كامل للمستوطنين والمتدينين على مختلف توجهاتهم، الأمر الذي تسبب بالأزمة الحالية، وبخروج مؤسسات الدولة العميقة عن بكرة أبيها في الدفاع عن نفسها.

ممن تتكون الدولة العميقة ؟

باستثناء أبناء النخب اليسارية ،المؤيدة للتوصل إلى حل مع الفلسطينيين، من سياسيين وأكاديميين، الذين فضلوا الصمت أو العودة من حيث أتوا، تمترس أبناء النخب الاشكنازية (الغربيين) القديمة التي أسست الدولة، من يسار ويمين ووسط، جسدا وممارسة في مؤسسات الدولة العميقة، يشاركون من خلالها في عملية اتخاذ القرار في الحرب والسلام، وفي غيرها من شؤون الدولة، تاركين للحكومات المنتخبة من اليمين المتطرف اتخاذ القرارات اليومية والتكتيكية، في حين رسمت الاستراتيجيات، خاصة تلك المتعلقة بالحرب والسلام، في مؤسسات الجيش الإسرائيلي، الذي لم يجد حرجا في نشر استراتيجياته كل ٥ أعوام بعيدا عن البرامج التي نجحت من خلالها الأحزاب في الانتخابات، بصفته الحارس والأمين على الاستقرار السياسي في إسرائيل مهما كانت الظروف والأحوال.

وتشير المعطيات المنشورة، في صحيفة يديعوت أحرنوت لعام ٢٠١٦، إلى تغلغل أبناء النخب المذكورة في مؤسسات الدولة العميقة، حيث تبين أن من بين ١٣ رئيسا لجهاز المخابرات لم يشغل المنصب من أبناء النخب الشرقية سوى شخص واحد، في حين تولى منصب رئاسة الموساد ١٢ شخصية من بينها شخصيتان شرقيتان، أما منصب رئيس هيئة الأركان فقد تولاه ٢٢ جنرالا من بينهم ٥ جنرالات من ذوي الأصول الشرقية، في حين تولى منصب مفتش عام الشرطة ١٧ مفتشا عاما من بينهم ٤ شخصيات شرقية، أما مصلحة السجون فكانت هي المؤسسة الوحيدة التي تولى فيها ٩ شخصيات شرقية منصب

المفتش العام للسجون، في حين شغل نفس المنصب ٨ شخصيات غربية.

وتفيد نفس المعطيات أن منصب رئاسة الدولة شغلته ١٠ شخصيات من بينها شخصيتان شرقيتان، في حين شغلت ١٢ شخصية منصب رئاسة الحكومة من دون أي شرقي واحد، أما وزارة الخارجية فقد شغل المنصب الأول فيها ١٧ وزيرا، من بينهم ٣ وزراء من أصول شرقية، وبخصوص منصب وزير المالية فقد شغله ٢٥ وزيرا من بينهم ٤ وزراء من أصول شرقية، اما وزارة الدفاع فقد تولى مسئوليتها ١٧ وزيرا من بينهم ٤ وزراء من أصول شرقية. وفيما يتعلق بالبلديات خاصة تلك الكبيرة كمدن القدس وحيفا وتل أبيب فقد تولى فيها منصب رئيس البلدية ٢٤ شخصية لم يكن منها سوى رئيس بلدية واحد من أصول شرقية.

على نفس السياق، سارت المعطيات المتعلقة بالجهاز القضائي، حيث تفيد المعطيات أن منصب مراقب الدولة شغله ٧ قضاة من دون ولا شرقي واحد، في حين شغل منصب قاضٍ في المحكمة الإسرائيلية العليا ٥٥ قاضيا من بينهم ٩ قضاة شرقيين [وعربي فلسطيني واحد]، أما وزراء العدل فقد شغل المنصب ١٩ وزيرا من بينهم وزيران من ذوي الأصول الشرقية، أما منصب المستشار القضائي للحكومة فقد شغله ١٤ محامياً من بينهم محاميان شرقيان، وفيما يتعلق بمنصب المدعي العام للدولة فقد شغله ١١ شخصية قانونية من دون ولا شرقي واحد.

المعطيات المذكورة لا يمكن أن تكون مكتملة من دون المعطيات الاقتصادية، حيث أشارت نفس المعطيات أن البنوك المهمة في إسرائيل تولى رئاستها ٥ مدراء من دون أي شخصية شرقية، في حين شغل منصب رئيس الصندوق القومي الإسرائيلي ٦ مدراء من بينهم مدير شرقي، أما منصب مدير عام سلطة أراضي «إسرائيل» فقد شغله ١٩ مديرا عاما من بينهم ٥ مدراء عامين شرقيين.

المعطيات المذكورة تشير، إلى عمق تغلغل أبناء النخب القديمة المُؤَسِسَة لدولة إسرائيل في مؤسسات الدولة العميقة، وإلى قوة دفاعهم عن هذه المؤسسات أمام أي تغيير تطالب به أحزاب اليمين الحاكم، فيما أصبح يعرف اليوم بالصراع على الإصلاحات القضائية وتغيير نظام الحكم فيها، أو بصورة أدق الصراع على من يملك مراكز القرار في دولة «إسرائيل»، الأحزاب الحاكمة أم مؤسسات الدولة.

النخب الجديدة ومطالبها

لا يمكن الحديث عن شخصيات مركزية في النخب الإسرائيلية الجديدة، سوى الشخصيات التي أفرزتها الانتخابات الأخيرة مثل بتسلئيل سموتريتش وإيتمار بن غفير والعميد تسفيكا بوغل، ومجموعة من المستوطنين في حزب الليكود، مثل غيلا غمليئل وياريف ياريف لفين وماي غولان، التي لم تتردد بوصف

نفسها على أنها عنصرية، وغير ذلك من الشخصيات غير المؤثرة والأقل شهرة في المجتمع الإسرائيلي، الذين يتبنون مواقف سياسية متطرفة تجاه الفلسطينيين، وترغب في نفس الوقت باحتكار قرار الحرب والسلام في دولة إسرائيل، بدلا من النخب المتموضعة في مؤسسات الدولة العميقة. وتنتمي الكثير من تلك الشخصيات إلى أصول شرقية، ويمكن تقسيم المجموعات المذكورة إلى الفئات التالية:

الفئة الأولى، يعتبر بنيامين نتنياهو وأعضاء الكنيست، الذين تم اختيارهم بعناية من قبله، وما يمثله من ثقل في الشارع الإسرائيلي خاصة في أوساط اليهود الشرقيين، الذين يصوت أكثر من ٦٠٪ منهم لأحزاب اليمين، وفي مقدمتهم حزب الليكود، من أكثر الفئات المؤيدة لتغيير نظام الحكم، وتحويل مراكز القوى فيه من مؤسسات الدولة العميقة إلى الحزب الحاكم وشركائه. ولولا التهم الموجهة لبنيامين نتنياهو بملفات الفساد المتنوعة والمختلفة لما أقدم على هذه الخطوة، حيث سبق وأن أبلغ في السنوات الماضية ،التي سبقت لوائح الاتهام المختلفة، جميع الجهات اليهودية داخليا وخارجيا، أنه لن يسمح لفئة قليلة من المجتمع اليهودي (المستوطنين والمتدينين المتزمتين) بمصادرة قرار الحرب والسلام في دولة إسرائيل، أو تغيير الوضع القائم داخل دولة الاحتلال الإسرائيلي،لأنه يدرك بأنه سيدخل في معركة قوية مع مؤسسات الدولة العميقة التي سبقت وأن أسقطته عام ١٩٩٨، بعد أن كشف الرواتب العالية لكبار ضباط الجيش، والتفاوض مع سوريا من دون معرفة أو مشاركة الأجهزة الأمنية.

الفئة الثانية من المجتمع الإسرائيلي التي تطالب بأن يكون لها دور في عملية اتخاذ قرار الحرب والسلام، من دون أن تشارك حتى في الخدمة العسكرية، أو على الأقل السماح لعناصرها بالوجود في مؤسسات الدولة العميقة، مع عدم السماح للغير بالتدخل في شؤون حياتهم الخاصة والعامة، هم المتدينون المتزمتون دينيا (الحريديم)، الذين يشكلون ١٣٪ من المجتمع الإسرائيلي، وممثلون بحزبين هما: الأول، شاس الممثل لليهود الشرقيين (سفارديم) ويقوده مجلس حاخامات ويترأسه الحاخام آرييه درعي، وكثير من قادة الحزب جرت إدانتهم وسجنهم بقضايا فساد، بمن فيهم رئيس الحزب نفسه آرييه درعي في أكثر من جريمة فساد. والثاني، «يهدوت هتوراه» وهو أكثر محافظة من حزب شاس، المكون من تيارين هما: أغودات يسرائيل (التي أُسست في بولندا) وديغل هتوراة (التي أُسست في ليتوانيا) وتسمى بالتيار الليطائي نسبة إلى بلد المنشأ. والحزب بفرعية يمثل اليهود الغربيين المتزمتين دينيا (الاشكناز). ويقود الحزب مجلس كبار التوراة، وجل اهتمامه ينصب على عدم تدخل الدولة في شؤون أتباعه ومناصريه، مع استمرار ضخ الميزانيات لهم، وفي نفس الوقت عدم التجنيد، لأن جهدهم ينصب على دراسة التوراة، بموجب الاتفاقيات الموقعة بين قادة دولة إسرائيل وقادة هذه الاحزاب عند تأسيسها عام ١٩٤٨.

أما الفئة الثالثة من المجتمع الإسرائيلي، فهم أتباع تيار الصهيونية الدينية الوطنية أو بصورة أدق تيار المستوطنين، المنتشر نصفهم في مستوطنات إسرائيلية في الضفة الغربية ومدينة القدس. ويشكل أنصار هذا التيار أقل من ٨٪ من مجموع سكان دولة إسرائيل، لكن قوتهم في الحياة السياسية أكبر بكثير من قوتهم الانتخابية، فهم من جهة يسيطرون على أكبر الأحزاب الإسرائيلية (الليكود). ومن الجهة الأخرى يمثلون في أحزاب مستقلة تحمل اسم الصهيونية الدينية، الذي يترأسه بتسلئيل سموتريتش، وحزب عوتسماه يهوديت ورئيسه ايتمار بن غفير. ويقود الحزب بفرعيه الصراع من أجل إحداث إصلاحات جوهرية في نظام الحكم في دولة الاحتلال، يفرغ الدولة العميقة من مصادر قوتها، ويجعلها أداة طيعة لتحقيق السياسات التي يرغب بها من حل السلطة الوطنية الفلسطينية والعمل على ضم الضفة الغربية بالكامل مع تحويل الكانتونات والمعازل إلى أمر واقع للشعب الفلسطيني.

علاوة على ذلك، تُدعم المجموعات المذكورة، من قبل مجموعة من مراكز الأبحاث مثل مركز أبحاث «بوروم كهيليت» اليمني المتطرف، الذي يرأس مجلس إدارته المستوطن من مستوطنة إفرات موشيه بوغل، والمدعوم ماليا من قبل رجال أعمال يهود مثل الملياردير جيفري هاس وشريكه أرثور دانشسيك، المنتمين للتيار المتطرف في الحزب الجمهوري الأميركي، الذي وقف خلف الاستشارات القانونية التي أدت لسن «قانون القومية» العنصري والإصلاحات القضائية الحالية في إسرائيل. ومن الناحية السياسية تدعم هذه المجموعات من مراكز أبحاث مثل مراكز بيغن-السادات للدراسات الإستراتيجية ومركز القدس للدراسات الإستراتيجية المدعومين من كبار المتبرعين اليهود الأميركان المنتمين للحزب الجمهوري. إضافة لذلك، تضم المجموعات المذكورة أعلاه مئات الجمعيات اليمينية المتطرفة في إسرائيل مثل جمعية «رغابيم» الاستيطانية التي تمارس الرقابة على البناء الفلسطيني فيما تسميه إسرائيل مناطق C.

خلاصة

بعيدا عما تحاول الأحزاب والجماعات المؤيدة للمستوطنين والمتدينين والمتزمتين وبعض النخب الشرقية تحقيقه، يدرك بنيامين نتنياهو أن الصراع الحالي داخل المجتمع الإسرائيلي للسيطرة على مراكز الحكم، وتغيير موقعها من داخل مؤسسات الدولة العميقة، إلى الأحزاب الحاكمة لن يكتب لها النجاح، من دون الاتفاق بشكل جماعي مع بقية مكونات المجتمع اليهودي في الدولة العبرية، لأن الاختلافات بين الطرفين إن كانت في المجال السياسي أو الاقتصادي أو حتى في الكثير من القضايا الداخلية، ليس كبيرا.

كما يدرك بنيامين نتنياهو، وبحكم تجربته السابقة، التي أدت إلى إسقاطه من سدة الحكم عام

١٩٩٨، أن الصراع مع مؤسسات الدولة العميقة مصيره الفشل، فيكفي أن قُدم تقرير من قبل الجيش الإسرائيلي لوزير الدفاع الحالي يؤاف غالنت بخطورة التغييرات على نظام الحكم، حتى تسارعت الأحداث والمظاهرات والاحتجاجات، خاصة بعد إقالة وزير الدفاع، التي أجبرت بنيامين نتنياهو على التراجع، والذهاب نحو رئيس الدولة العبرية للدخول في حوار مع بقية نخب المجتمع للاتفاق على الاصلاحات المنوي إدخالها في مؤسسات الدولة ونظام الحكم.

كذلك لا بد من الإشارة، أن الصراع الإسرائيلي الداخلي، لن يذهب إلى أبعد من المظاهرات والاحتجاجات، لأمرين هما: قوة المؤسسة العسكرية، حامية وحارسة الاستقرار السياسي والمجتمعي الداخلي، نظرا لقوة التأييد الذي تتمتع به في الشارع الإسرائيلي، الذي يفوق ٧٥٪، وإلى اصطفاف بقية مؤسسات الدولة المختلفة حول نفسها. والثاني، قدرة مؤسسات دولة الاحتلال العميقة على تحويل جدول أعمال المجتمع الإسرائيلي اليومي من خلافات وصراعات داخلية، إلى حرب ضد حزب الله في لبنان أو ضد الشعب الفلسطيني، كما جرى في العدوان الإسرائيلي الأخير على قطاع غزة.

بخصوص انعكاس ما يجري في الشارع الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، اعتقد أن السياسة الحالية القائمة على حشرهم في كانتونات ومعازل ستستمر، وربما تزيد من وتيرتها لإرضاء المستوطنين وقياداتهم المطالبين بإدخال إصلاحات على نظام الحكم، والتعامل مع القيادات التي فرضها واقع الكانتونات والمعازل، بدلا من السلطة الوطنية الفلسطينية. وفي ذات الوقت، تتواصل السياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين في الداخل المحتل، القاضية بحرمانهم من الحقوق الوطنية، مع تراجع في الحقوق الفردية، وفي العيش بأمان.

بالعموم، لا يمكن القول أن الحديث يجري عن نخب جديدة في المجتمع الإسرائيلي، خاصة أن المستوطنين والمتدينين المتزمتين دينيا، الراغبين بإحداث التغييرات المطلوبة، لم تتجاوز نسبتهم في المجتمع الإسرائيلي الـ ٢٠٪، فربما إعطاء مساحة أكبر لأبناء اليهود الشرقيين في مؤسسات الدولة العميقة، بما يتلائم مع نسبتهم داخل المجتمع، وقوتهم الانتخابية سيحل الخلاف والصراع الدائر. لكن الواقع يقول أن من يحتل شعبا أخر، ويتعامل معه بفاشية وعنصرية، لن ينزعج كثيرا بنوع من التمييز بحق أبنائه.

أوراق الذاكرة

هند طاهر الحسيني: أنموذج لإدارة الأزمة
الحضن الدافئ لأطفال دير ياسين المنكوبة

عزيز محمود العصا

مقدمة

لا يمكن لأي كاتب أو متحدث عن النكبة الفلسطينية التي حلت بالشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨م، القفز عن دير ياسين، الواقعة في رواق القدس؛ تلك القرية الفلسطينية التي أمعنت القوات الصهيونية في قتل أهلها وتشريدهم. وهذا ما أطلق عليه «مذبحة دير ياسين»، تمت في ١٩٤٨/٠٤/٩م.

وكانت «مذبحة دير ياسين» أكثر مذبحة تم توظيفها لإشاعة الذعر بين الفلسطينيين، فقد أذاعت القيادة اليهودية (بافتخار) رقمًا مرتفعًا للضحايا، كي تجعل من دير ياسين تحذيرًا للفلسطينيين كافة من أن مصيرًا مماثلًا ينتظرهم إذا رفضوا أن يتركوا بيوتهم ويهربوا، وما إن وصلت أخبار دير ياسين ومجزرتها، بعد ثلاثة أيام، حتى هرب كثير من سكان قرية ناصر الدين وطبرية(١).

وفي ١٩٤٨/٠٥/١م، يُجمل بن غوريون وضع الفلسطينيين بالقول: «إن (المسيحيين) قلقون على سلامة أبناء طائفتهم. ولم يبق من المسلمين سوى الفقراء، لأنهم خافوا من مصير دير ياسين. أدرك العرب أن العيش بين اليهود مستحيل»(٢).

لكي نستذكر معًا هذه المجزرة، التي جاءت بين ما يزيد عن مائة وعشر مجازر، وفق اعتراف يقول مدير أرشيف الجيش الإسرائيليّ الأسبق أرييه يتسحاقي(٣)، يأتي هذا المقال في العدد (٣٢) من مجلة أوراق فلسطينية، الذي يصدر في أجواء الذكرى الخامسة والسبعين لمجزرة دير ياسين، وقد أردنا منه تبيان الدور الذي قامت به الماجدة المقدسية «هند طاهر الحسيني»، حينما أبدعت وتجلت عبقريتها الإدارية في إدارة تلك الأزمة-الفاجعة التي ألمّت بأهالي دير ياسين من جميع العائلات، ومن جميع الشرائح المجتمعية.

سنتطرق، فيما يأتي إلى مجزرة دير ياسين، من مختلف الجوانب، كما سنستعرض السمات الشخصية لـ «هند الحسيني» والإمكانات والقدرات التي تمتلكها، وقد وظفتها في حالة من الانتماء الصادق، والإيمان بالدور الإنساني الذي كرست نفسها له دون كلل أو ملل، ودون الالتفات إلى مغنم تغتنمه أو ربح تجنيه.

مجزرة دير ياسين- أفعال مشينة وأطفال مشردون:

لقد حظيت مجزرة دير ياسين بعديد من الدراسات والأبحاث والمتابعات، وكانت قد تمت في قرية دير ياسين التي تقع في منطقة ذات أغلبية يهودية بالقرب من القدس، وقد وقعت اتفاقية عدم اعتداء مع جيرانها اليهود منذ عام ١٩٤٢م. ونتيجة لذلك، لم يطلب سكانها من اللجنة العربية العليا الحماية عند القتال. ولكن طوال يوم ٩ أبريل ١٩٤٨، نفذ جنود الأرغون وجنود ليحي المذبحة بطريقة باردة ومتعمدة؛ بأن «حاصروا الرجال والنساء والأطفال، وصلبوهم على الجدران ثم أطلقوا النار عليهم»، فاستشهد ٢٥٠ إلى ٣٦٠ فلسطينيًّا، وعندما انتهى المهاجمون من مهامهم الإجرامية، نهبوا القرية وفرّوا(٤).

من جانبه، يروي «د. حسين الخالدي» أنه في حين كان جثمان الشهيد عبد القادر الحسيني/ قائد الجهاد المقدس مسجّى، والبلاد تستعد لوداعه وتشييعه إلى مثواه الأخير، أحاطت عصابات اليهود بقرية دير ياسين من أطرافها الأربعة، وأعملوا فيها الحديد والنار، وأمطروها وابلاً من رصاص بنادقهم ومدافعهم الرشاشة ومدافع الهاون الصغيرة والقنابل اليدوية والألغام, فلم يبق في ضواحيها حجر، وانهارت البيوت على من فيها من الرجال والنساء والأطفال. ولم يبق بيت في القرية إلا وألقيت عليه القنابل شديدة الانفجار(٥).

أما الأحياء من أهالي تلك القرية، فقد أرغموهم، والحراب تعمل في أقفيتهم، على التجمع في مكان عينوه بعد أن اغتالوا فريقًا من هؤلاء النسوة، وبعضهن من الحوامل, ثم أركبوا الصغار منهم السيارات الكبيرة المكشوفة، وطافوا بهم في الأحياء اليهودية، بعد أن رجمتهم جموع اليهود بالحجارة. وأخيراً، أوصل اليهود هؤلاء التعساء إلى الحدود الفاصلة بين الأحياء العربية واليهودية في حي المصرارة، فأنزلوهم من السيارات، وأمروهم بالتوجه إلى الأحياء العربية وهم يطلقون مئات العيارات النارية فوق رؤوسهم؛ زيادة في الإرهاب(٦).

ثم أجرى المجرمون المهاجمون تفتيشًا دقيقًا على بيوت القرية ونهبوا وسلبوا كل ما وجدوه أمامهم من مصاغ ومال ومؤن، ولم يبقوا على شيء هناك إلا حملوه وأخذوه معهم(٧).

وفي مساء يوم المذبحة/ المجزرة، أجرى أحد قادة عصابة الإرغون مؤتمرًا صحافيًّا في مستعمرة «جفعات شاؤول»، حضره مراسل وكالة أسوشيتدبرس، ومما يقوله المراسل على لسان رجل الإرغون: «يسرني أن أعلمكم بأننا قمنا بحملة تأديبية على قرية دير ياسين (...) فأبدناهم عن بكرة أبيهم ودمرنا قريتهم ليكونوا عبرة لغيرهم (...) ونعترف بتقتيل عدد من النساء والأطفال، الذين تعرضوا لخطوط نيران بنادقنا ومدافعنا الرشاشة(٨).

ومما ورد في تقرير كُتب مساء يوم المجزرة، بإمضاء «أنور نسيبة»: حضر جميع النساء والأطفال (...) إلى حي المصرارة في القدس، ومن هناك إلى مقر اللجنة القومية، حيث أعد لهم الطعام والشراب وأماكن النوم. ثم حضر حوالي (٥٠) امرأة و(١٠٠) طفل، تتراوح أهمارهم بين (٢٠) يومًا و(١٠) سنوات، ولا يزال القسم الأكبر من النساء والأطفال تحت الأنقاض، وفي ساحات قرية دير ياسين(٩).

هند طاهر الحسيني- نبذة تاريخية:

ولدت هند محمد طاهر الحسيني في بيت جدها لأمها في القدس في ١٩١٦/٠٤/٢٥م. توفي والدها عام ١٩١٨م؛ وهي في السنة الثانية من عمرها. فاستقرت فاطمة بنت محمد صالح الحسيني(١٠) -والدة هند- وأيتامها الستة -هند وأشقائها: برهان الدين، وجمال الدين، وزين الدين وصادق ومهدي- في بيت والدها(١١).

وكان جمال الحسيني خال هند، أحد الشخصيات المشهورة في القدس، فقد انتخب عضوا في بلدية القدس عام ١٩٢٧م، وتولى رئاسة الحزب العربي الفلسطيني عام ١٩٣٥م، ونفي -من قبل الإنجليز- إلى روديسيا لمدة أربع سنوات، ثم عاد إلى فلسطين عام ١٩٤٦م، وعين عضوا في اللجنة العربية العليا(١٢).

أما هند، ففي عام ١٩٣٢، أنهت دراستها الابتدائية من مدرسة البنات الإسلامية -باب الملك فيصل- بالقدس؛ وهو أحد أبواب المسجد الأقصى المبارك (كان يسمى باب العتم). ثم التحقت بالكلية الانجليزية للبنات في القدس حيث أنهت دراستها الثانوية عام ١٩٣٨ (تأخرت لمدة عام دراسي بسبب إضراب عام ١٩٣٦). وفي العام الدراسي ١٩٣٨/١٩٣٩م، وحيث كانت تستعد للذهاب إلى الجامعة، تعاقدت هند للعمل مدرّسة في مدرسة البنات الإسلامية بالقدس، إلا أن اندلاع الحرب العالمية الثانية غير من برامجها؛ فاستمرت في التدريس حتى نهاية العام الدراسي ١٩٤٤/١٩٤٥(١٣).

هند طاهر الحسيني- تقود العمل الخيري قبل النكبة:

في عام ١٩٤٥، تركت هند الحسيني مهنة التعليم والتحقت بالعمل الاجتماعي التطوعي؛ حيث عملت سكرتيرة لجمعية التضامن الاجتماعي النسائي بالقدس. ونظّمت فروعا محلية تقدم خدمات للأطفال والنساء العاملات، مثل: بساتين أطفال ومراكز مكافحة الأميين وتعليم الخياطة وغير ذلك(١٤). وفي أيار/ ١٩٤٦م تسلمت إدارة جمعية التضامن الاجتماعي النسائي -محلة القطمون/القدس- ونقلت هذه الجمعية إلى دار محمد صالح الحسيني؛ البيت الذي ولدت فيه هند وتربت فيه، وكانت لا تزال تقطنه(١٥).

وفي ١٩٤٧/٠٥/١٩م ألقت هند الحسيني خطبة في حفلة نسائية أعلنت أن الهدف من إنشاء جمعية التضامن كان إيواء أيتام الشهداء الذين قتلت حكومة الانتداب آباءهم وهدمت منازلهم خلال الثورة الفلسطينية والحرب العالمية الثانية. وبذلت الجمعية جهودًا كبيرة في محو الأمية لدى النساء، فعقدت لهنّ دورات في مدارس البنات الإناث، وأسست مكتبة متجولة لإفادة العضوات في مختلف أماكن تواجدهنّ(١٦). وافتتحت

الجمعية (٢٢) فرعًا لها في فلسطين وشرقيّ الأردن، وكان لكل فرع رئيسة تشرف على نشاطات الفرع(١٧).

وفي نفس الحفلة المذكورة أعلاه في ١٩٤٧/٠٥/١٩، أعلنت هند الحسيني أن جمعية التضامن، التي تقودها، أسست دارًا للأطفال بها (٢٤) طفلاً، تتراوح أعمارهم بين الثانية والرابعة، وذلك في غرفتين في سوق الحصر. وحرصت الجمعية على أن يكونوا أطفال نساء عاملات(١٨).

هند طاهر الحسيني- تؤوي المنكوبين: مذبحة دير ياسين أنموذجًا:

مع ازدياد مآسي الشعب الفلسطيني، وخاصة بعد صدور قرار التقسيم (١٩٤٧/١١/٢٩م)، أصدرت جمعية التضامن -بقيادة هند الحسيني- نداءً إلى فروعها في فلسطين كافة بتشكيل لجان للإسعاف. وبعد وقوع مذبحة دير ياسين أخذت جمعية التضامن، إلى جانب جمعيات أخرى، دورها في توزيع المواد على الناجين. وفي ١٩٤٨/٠٤/٢٠م تلقت جمعية التضامن نداء استغاثة من منكوبي قرية قالونيا(١٩).

بعد أسبوعين من مذبحة دير ياسين (في ١٩٤٨/٠٤/٢٣م)، كانت»هند الحسيني» في طريقها للاجتماع بالسيد أنور الخطيب، رئيس بلدية القدس، فصادفت وجود خمسة وخمسين طفلاً، أكبرهم في الثانية عشرة من العمر، وأصغرهم في سنته الأولى، وعيونهم تنطق بالذعر والهلع مما رأوه، ويحاول الكبار منهم تهدئة روع الصغار، فاتجهت نحوهم وسألتهم عن سبب تجمعهم في تلك المنطقة؛ فوقف أكبرهم وقص عليها ما حدث في القرية، من قتل وذبح وسفك دماء، فشعرت بالحزن والأسى مما أصابهم, وأصاب الشعب الفلسطيني(٢٠).

قررت «هند الحسيني» أخذ هؤلاء الأطفال اليتامى، واحتضانهم، ورعايتهم. بإنسانيتها العالية، فوضعتهم في البداية في غرفتين في سوق الحصر، ودأبت على التردد عليهم، يوميًا؛ لتتفقدهم وتتلمس احتياجاتهم ملبية رغباتهم. وفي ١٩٤٨/٠٥/٠١ قررت هند الحسيني أن تجعل دار الطفل في سوق الحصر، المذكورة أعلاه، دارًا لإيواء أيتام دير ياسين. وسرعان ما بدأت المساعدات تتدفق على جمعية التضامن، التي تبدل اسمها ليصبح «مؤسسة دار الطفل العربي»(٢١).

ذات صباح، ذهبت هند من مكان إقامتها في دير راهبات صهيون في طريق المجاهدين، إلى البناية التي يقطنها الأطفال، فوجدتهم مذعورين مرتعبين بسبب أصوات القنابل، فأبلغت رئيسة الدير التي أصرّت على نقل الأطفال إلى الدير، الذي شكل المحطة الثانية من محطات المؤسسة، فلقي الأطفال الرعاية الكافية، لمدة (٤٥) يومًا، حيث هدأ القتال، فأعادتهم إلى غرفتيّ سوق الحصر. ولمّا أصبح عددهم (٧٠) طفلاً، اضطرت إلى استئجار غرف أخرى في نفس البناية(٢٢).

«هند الحسيني» تؤسس في القدس ما يعزز عروبتها ويحفظ أجيالها:

هكذا، تأسست «دار الطفل العربي» بعيد النكبة، من قبل رائدة العمل الاجتماعي/ المرحومة «هند الحسيني». فأتبعت خطواتها المذكورة أعلاه بان طلبت من خالها إخلاء دار والده -محمد صالح الحسيني

وهو جدّ هند لأمها- فاستجاب خالها لها، وموّلت جمعية المشروع الانشائي العربي تعمير المنزل، ثم حلّت به السيدة هند والأطفال. وفي أيلول/١٩٤٨م، ارتفع عدد النزلاء إلى (١٢٥) طفلًا، فزادت الحاجة إلى تبرعات أهل الخير في الداخل والخارج(٢٣).

ثم دعمها «أنور الخطيب»؛ رئيس بلدية القدس في حينه، ففتحت مدرسة لهم في البيت، كما أن أهل الخير، وعندما سمعوا بما تقوم به «هند الحسيني» أمدّوها بالمال والطعام والكساء. وكانت تقول، في نفسها: لو مات هؤلاء الأطفال لمُحي الشعب الفلسطيني، فقطعت عهدًا على نفسها بأن ترعى الأيتام وتُربيهم تربية صالحة(٢٤).

وفي عام ١٩٤٩ تكونت أول هيئة إدارية للمؤسسة، من السيدات والسادة: السيدة هند طاهر/ مؤسِّسة الدار ورئيستها، السيد أنور الخطيب/ المستشار القانوني للدار، السيدة باسمة فارس/ أمينة الصندوق, السيدة أمينة الحسيني/ عضوًا, الآنسة لزي ناصر/ عضوًا, السيدة سميحة الحسيني/ عضوًا, السيدة نزهة نسيبة/ عضوًا, السيدة مليحة النجار/ عضوًا(٢٥).

لم تتوقف هند الحسيني عند ذلك، وإنما واصلت جمع التبرعات من أهل الخير، وبدأت اتصالاتها لتؤمن حياة كريمة لمن نُكبوا بفقد الأهل. وازداد عدد اليتامى وازداد العبء عليها، ولكنها لم تيأس، وظلت تسعى وتجد وتتنقل من بلد لآخر لتجمع ما تستطيع من أموال، وهي تضع نصب عينيها الهدف الاستراتيجي القائم على تأمين مستقبلهم؛ بتوفير فرص التعليم لهم. فأعدت الأبنية اللازمة للمدرسة، واستكملت استملاك الأرض والأبنية القديمة المحيطة بها ووهبتها كلها لدار الطفل العربي، ثم أوقفتها على مصلحة الدار.

وبمساعدة أهل الخير، استطاعت أن تضيف للأبنية القديمة أبنية حديثة؛ حيث أصبحت المؤسسة تضم: الحضانة والروضة والمدرسة الأساسية والثانوية وقسماً لمحو الأمية، وقسما لتعليم الضرب على الآلة الكاتبة وقسماً لتعليم الخياطة. تشير المصادر أنه خلال الفترة بين عامي ١٩٥٨-١٩٧٥، تمكنت «هند الحسيني» من شراء بيت جدها لأمها، الذي ينتمي لأمها ولأبناء خالها، ولأبناء عمها. كما بنيت الأبنية الحديثة عام ١٩٦٩، بتبرعات سخية من شركة أرامكو في الظهران وآل الشايع في الكويت، بالإضافة إلى عمارة القسم الداخلي التي بنيت عام ١٩٧٠م بتبرع من الكنيسة الألمانية اللوثرية في بون، وقامت في العام ١٩٨٢م بشراء بيت أديب العربية «محمد إسعاف النشاشيبي».

بجهد «هند الحسيني» وإصرارها أضحت «دار الطفل العربي» تمتلك ست بنايات، تضم: القسم الداخلي، والحضانة والروضة، والمدرسة الأساسية والثانوية، متحف دار الطفل العربي للتراث الشعبي الفلسطيني ودار إسعاف النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب، وجميعها وقف إسلامي لدار الطفل(٢٦). أي أن المتحف ودار الفنون في حالة، شبه التحام، مع مؤسسة تربوية؛ تربي أبناء القدس وتعلمهم، ثم تردف ذلك كله بأن تجعل الوطن، الذي لم يسكنوه ولم يولدوا فيه، يسكنهم؛ حتى يصبح جزءًا من كينونتهم وتكوينهم العاطفي والوجداني(٢٧).

وفي صباح الثلاثاء، الموافق ١٩٩٤/٠٩/١٣م، انتقلت السيدة هند الحسيني الى رحمته تعالى، وشيعت يوم الجمعة التالي إلى المسجد الأقصى المبارك، حيث صلي عليها، ودفنت في مقبرة باب الرحمة المحاذية للسور الشرقي للمسجد الأقصى المبارك(٢٨).

الخاتمة

جاءت هذه المقالة في الوقت الذي تمرّ فيه الذكرى الخامسة والسبعين لواحدة من المجازر التي حلّت بالشعب الفلسطيني إبان النكبة عام ١٩٤٨م. فلم تكن مجزرة دير ياسين الأولى ولا الأخيرة، كما أنها لم تكن المجزرة البشعة الوحيدة؛ وإنما كان هناك ما يكافؤها ويزيد عنها بشاعة. لتكون تلك المجازر -في مجموعها- جزءا من الثمن الباهظ الذي دفعناه في فاتورة إقامة الدولة اليهودية في ذلك العام، إلى جانب الأجزاء الأخرى من تلك الفاتورة، كالتشرد، وفقدان الأرض والممتلكات، وفقدان الهوية وغير ذلك.

إن الوصف المذكور أعلاه لمجزرة دير ياسين، ما هو إلا وصف مقتضب ومكثف لأحداث بشعة، تجعل المرء يصاب بالغثيان عند التمعن في تفاصيلها. كانت نتيجتها النهائية قتل مئات وتشريد الأحياء من أبناء تلك القرية المقدسية الوادعة الآمنة، والإلقاء بهم هائمين على وجوههم في شوارع القدس وأزقتها وحاراتها.

في تلك اللحظات المؤلمة والموجعة، وجد أبناء دير ياسين من أبناء القدس وشخصياتها الاعتبارية من كرّس وقته لاستقبالهم واحتضانهم ورعايتهم، وتوفير الأمن والأمان لهم. وكانت المرحومة هند طاهر الحسيني على رأس أولئك الغيارى على الكرامة الوطنية.

كانت هند في ذلك الحين على رأس مؤسسة مقدسية تقود العمل الخيري والتوعوي في الوطن الفلسطيني، وصولًا إلى شرقي الأردن. وعندما داهمتها أحداث دير ياسين، وما نجم عنها من عشرات الأطفال الأيتام، حوّلت إمكاناتها وقدراتها لصالح هؤلاء الأطفال، بإيوائهم ورعايتهم، فأنشأت «مؤسسة دار الطفل العربي» لتكون الحاضنة والموئل لهم.

لم تتوقف هند الحسيني عند رعاية الأيتام وتتبع احتياجاتهم، وإنما انطلقت قدمًا لتوفير فرص التعليم والرعاية للأيتام والفقراء والمعوزين الآخرين، لتنقلهم من عالم التيه والتشرد والضياع إلى أعضاء فاعلين في المجتمع، يسهمون في بنائه، وإعادة بناء وترميم ما هدمته الحروب. فأصبحت المؤسسة مكانًا مترامي الأطراف ومتعدد الأغراض: مدرسة، وجامعة، ومكتبة، ومتحفًا، وورشًا للفنون والحرف اليدوية، وساحات واسعة وفسيحة. لتكون بذلك مصنعًا للآلاف من قادة المجتمع والمبدعين في مختلف المجالات.

ونحن نغادر هذه الثنائية التي تجمع بين مجزرة دير ياسين، والقائدة المقدسية هند طاهر الحسيني، نكون قد وضعنا أمام الأجيال أنموذجًا لعبقريتين، هما: عبقرية الصمود والصبر الذي تحلّى به أهالي دير

ياسين، وإقبالهم على الحياة بتفاؤل وبهمّة عالية. وعبقرية الإنتماء الوطني وإدارة الأزمة التي تحلّت بها هند الحسيني، وهي تضع نفسها وإمكاناتها وممتلكاتها وأموالها ووقتها... تضع ذلك كله في خدمة مشروع إنسانيّ ووطنيّ رياديّ سيبقى شاهدًا على إبداعاتها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هوامش

١ بابه، إيلان (٢٠٠٧). التطهير العرقي في فلسطين. تحرير: ترجمة: أحمد خليفة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ص: ١٠٢-١٠٣.

٢ بن-غوريون، ديفيد. يوميات الحرب (١٩٤٧-١٩٤٩). تحرير: غيرشون أورن، ريفلين إلحانان. ترجمة: سمير جبّور. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨. ص: ٢٨٥.

٣ محارب، محمود. الأرشيفات في إسرائيل والرواية التاريخية الإسرائيليّة والنكبة: كشف النقاب عن التقرير الذي يدحض الرواية التاريخية الإسرائيلية. حيفا: مدى الكرمل، ٢٠٢٢. ص: ١٢، ١٤.

٤ بابه، إيلان (٢٠٠٧). التطهير العرقي في فلسطين. تحرير: ترجمة: أحمد خليفة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ص: ١٠١؛ وفا (٢٠٢١/٠٤/٠٨). «٧٣ عاما على مجزرة دير ياسين». يُنظر الرابط الآتي (شوهد في ٢٠٢٣/٠٣/٠١): https://www.wafa.ps/Pages/Details/٢١٥٣٨؛
Flapan، S. (1987). The Palestinian Exodus of 1948. Journal of Palestine Studies Vol. 16 No. 4. p: 326-.

٥ الخالدي، حسين فخري (٢٠١٤). ومضى عهد المجاملات (مذكرات)-بيروت ١٩٤٩- المجلد الثاني. تحرير «د. رفيق الحسيني». دار الشروق للنشر والتوزيع. ص: ٢٦٠-٢٦١.

٦ () الخالدي (٢٠١٤)، ٢٦١.

٧ () الخالدي (٢٠١٤)، ٢٦٣.

٨ الخالدي (٢٠١٤)، ٢٦٥.

٩ الخالدي (٢٠١٤)، ٢٦٣-٢٦٤.

١٠ والدتها سيدة مثقفة؛ تتقن اللغتين الفرنسية والتركية بالإضافة إلى العربية.

١١ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ١٠-١١.

١٢ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)،١١.

١٣ العصا، عزيز، والخطيب، عماد (٢٠١٨). مقدسيون صنعوا تاريخًا. اللجنة الوطنية للقدس عاصمة دائمة للثقافة العربية. القدس. ص: ٢٤٥

١٤ المصدر نفسه ص ٢٤٥

١٥ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ١٩-٢٠.

١٦ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ٢١-٢٢.

١٧ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ٢٨-٢٩.

١٨ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ٢٩.

١٩ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ٢٩.

٢٠ العصا والخطيب (٢٠١٨)، ٢٤٧.

٢١ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ٣٠.

٢٢ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ٣٤-٣٦.

٢٣ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ٣٦.

٢٤ العصا والخطيب (٢٠١٨)، ٢٤٧.

٢٥ يُنظر: التقرير السنوي لمؤسسة دار الطفل العربي-القدس (٢٠١٢-٢٠١٣). ص٨.

٢٦ إبراهيم، بشار (٢٠١١/٠٢/٠٣). قصة هند الحسيني: "لم يكن في جعبتي حينها، سوى ١٣٨ جنيهاً فلسطينياً"، فيلم سينمائي من إخراج: ساهرة درباس. يُنظر الرابط الآتي (شوهد في ٢٠٢٣/٠٣/٠٤):
https://doc.aljazeera.net/cinema/٣/٢/٢٠١١/قصة-هند-الحسيني

٢٧ العصا والخطيب (٢٠١٨)، ٢٥٠.

٢٨ مؤسسة دار الطفل العربي (٢٠١٤)، ٦٤.

٢٩ *عمل جبرا في العلاقات العامة لشركة نفط العراق ثم وزارة الثقافة والإعلام العراقية وكان من أوائل الفلسطينيين الذين كتبوا عن تجربتهم في المنفى كان الكثير من كتاباته يهتم بالحداثة والمجتمع العربي. قاده هذا الاهتمام إلى أن يصبح في الخمسينات من القرن الماضي عضوًا مؤسسًا لمجموعة بغداد للفنون الحديثة، وهي حركة جماعية وفكرية للفنانين حاولت الجمع بين التراث الفني العراقي وأساليب الفن التجريدية الحديثة. بالرغم من أن مجموعة بغداد للفن الحديث كانت ظاهريًا حركة فنية، إلا أن أعضاءها ضموا شعراء ومؤرخين ومهندسين معماريين وإداريين. كان جبرا ملتزمًا بشدة بمثل مؤسس المجموعة جواد سليم، واستلهم من الفولكلور والأدب العربيين ومن الإسلام.

٣٠ * في عام ١٩٦١ أصدرت الحكومة العراقية قراراً برقم ٢٦ وجاء في المادة الأولى الإشارة إلى اصدار وثيقة سفر اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في العراق والمشمولين برعاية الحكومة العراقية وقد اصدر التعديل الأول لنظام وثائق سفر اللاجئين الفلسطينيين ذي الرقم ٢٩ لسنة ١٩٦١م، وذلك من خلال حذف كلمات (اللاجئين واللاجىء) وكان رقم القرار ٤١ لسنة ١٩٦٥م.

٣١ *حاول عودة أن يقدم خدمات إنسانية للفلسطينيين من خلال علاقاته مع الحكومة العراقية، وأبرز حدث في حياته المهنية في العراق كان المشروع الذي تقدم به للحكومة العراقية ووافقت عليه والقاضي بمنح أراضٍ للاجئين الفلسطينيين في العراق في منطقة أبو غريب، ومنطقة قريبة من منطقة الكاظمية غرب العاصمة بغداد للاستفادة منها في الزراعة والسكن، نظراً إلى أن اللاجئين هم من بيئة مزارعة. ولكنه حورب واتهم بأن مشروعه هذا يلغي حق العودة ويصبّ في طريق توطين اللاجئين الفلسطينيين في العراق، وأبرز من وقف بوجهه في ذلك الوقت حركة القوميين العرب.

٣٢ * أصبح عضو اللجنة المركزية لفتح،والتنفيذية لمنظمة التحرير فيما بعد، سفيراً لفلسطين في العراق وممثلا لـ م.ت.ف بين عامي ١٩٧٩ – ١٩٩٤م، رئيس الاتحاد في العراق حتى ١٩٧٤،الذي نشّط في الحركة الطلابية، وأنتخب نائب رئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين، ورئيس الاتحاد العام للطلبة العرب ١٩٧٦-١٩٨٠، ومعتمدًا لحركة فتح في العراق في العام ١٩٨٠، عضو في المجلس الوطني منذ العام ١٩٧٤م.

٣٣ * ظهر إسم حسن عصفور، الذي تخرج من جامعة بغداد في العراق بتخصص الهندسة الزراعية عام ١٩٧٣م،وقد اعتقل لفترات في العراق وسوريا، انتخب عضو قيادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين ممثلًا للحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٨٤م، وتم الاعتداء عليه عدة مرات من البعثيين، وبسبب ارتباطه بالحزب الشيوعي، تنقل عصفور من دولة عربية إلى أخرى. فقد ترك الأردن عام ١٩٦٩ ليسافر إلى العراق، ثم أجبر على ترك العراق في عام ١٩٧٥ ليسافر إلى سوريا.

٣٤ * وهو مناضل قديم في صفوف حركة فتح حيث اعتقل عام ١٩٦٨ في الضفة الغربية من قبل الاحتلال وامضى سنتين، وعاد دقة عام ١٩٨٠ الى بغداد وتم تعيينه مساعدا لعزام الاحمد الذي شغل منصب السفير.

٣٥ * مسؤول الاعلام الموحد في الجزائر فترة الثمانينات، وممثل م.ت.ف في مطار هواري بومدين، كان له دور عسكري كبير رغم كل تكليفاته المدنية، أصيب في حرب بيروت ١٩٨٢ وفقدت اثاره لمدة عام ونصف، وبعد عودته للجزائر تم علاجه في المستشفى العسكري، واوفد أبو عمار أمين عام الصندوق القومي آنذاك في القاهرة أبو علي حمودة ليشرف على علاجه، وساهم دور أبو النصر في نجاح انعقاد المجلس الوطني عام ١٩٨٨م.

٣٦ * وجدت الأجهزة العراقية فرصتها عام ١٩٧٤ عندما أُعلن برنامج النقاط العشر الفلسطيني الذي كان أول دخول فلسطيني في عالم التسوية السياسية، فرعت بغداد من خلال امتدادها الفلسطيني (جبهة التحرير العربية) تشكيل ما عرف باسم (جبهة القوى الفلسطينية الرافضة للحلول الاستسلامية) أو جبهة الرفض، ودعمتها نكاية بسوريا. وعندما دخلت القوات السورية بيروت عام ١٩٧٦ لدعم الطرف الماروني، هربت قيادات وكوادر هذه الجبهة إلى بغداد حيث أعادت بغداد فتح مكاتبهم، ووفرت لهم كل الإمكانيات لضرب سوريا وحركة فتح التي كانت تسيطر عمليا على منظمة التحرير الفلسطينية.

٣٧ * حيث بلغت موازنة المؤتمر مليونين ونصف مليون دولار، تكفلت بها العراق.

٣٨ عبد القادر ياسين، كيف أسهمت الصحافة الفلسطينية في توثيق جرائم الاحتلال، عربي ٢١، ٢٠٢٢/٢/١٧.

٣٩ - منشورات رياض الريس – بيروت، ٢٠٠٦

40 - Jean-Yves Tadié : Le récit poétique – Ed. Gallimard (Tel) – 1993.

٤١ - جيرار جُونيتْ، عودة إلى خطاب الحكاية – ترجمة محمد المعتصم – المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء – ٢٠٠٠، ص. ٣١.

لجنة الدفاع عن الثقافة القومية *(٢)

أسماء الغرباوي*

خاضت اللجنة العديد من المعارك الفكرية ، ما استدعى تبنِّيها آليات عمل، عبر وسائل شتى ؛ منها الكتابة، حيث قامت بإصدار سبعة أعداد من مجلة «المواجهة « ،والعديد من «نشرات المواجهة» ،التي تسبق ،وتلحق بالمجلة ، فضلا عن البيانات، وتوزيعها، على نطاق واسع ،وعقد الندوات ، والمؤتمرات ، وتنظيم المظاهرات، و المهرجانات ،وجمع التوقيعات على البيانات ،ومخاطبة الرأي العام ،المصري ،والعالمي (١).

***الندوات الفكرية**

تصّدت اللجنة للمنطلقات، والمؤسسات الإيديولوجية ،التي تُهدِّد الوعي القومي ،والهوية العربية ،والتعليم ،والإعلام، والمؤسسات الثقافية الأجنبية ، كما دافعت اللجنة عن حرية الفكر ،ورفض الاغتيال السياسي ،ومصادرة الرأي .

أقامت اللجنة عددًا من الندوات الفكرية، التي استهدفت مفهومًا معاصرًا للثقافة الوطنية ، لعل أهمها ندوتا : « الوافد والموروث « ،و « التبعية الثقافية « ، اللتان جمعتا مثقفين مصريين وطنيين، على اختلاف مفاهيمهم الفكرية ،ومنطلقاتهم الأيديولوجية.» وكان موقف اللجنة ،في الندوة الأولى ،رفض الثنائية التثبيتية للوافد- الموروث، باعتبارها إعادة إنتاج حديثة للثنائية القديمة -المعاصرة .وقدمت مفهومها الخاص بثقافة حيّة ،منطلقة من تراثنا الوطني الشعبي ،ومستفيدة من الإنجازات العالمية ،للعلم ،وللفكر العقلاني التقدمي .أما ندوة (التبعية الثقافية) فتناولت الأوجه المختلفة للتبعية في الجذور الثقافية «(٢).

أما بالنسبة لسلسلة ندوات اللجنة المُكرّسة لحرية الرأي، والعقيدة ،والكتابة ،فتناولت اللجنة ذكرى

---

* تم نشر الجزء الأول في العدد (٣١) السابق من مجلة «أوراق فلسطينية».

* باحثة فلسطينية.

بعض ضحايا الفكر ، والفن، في الوطن العربي ،من جهة ، ودراسة بعض أركان الرقابة ،والمصادرة التي تطارد التعبير الحر في مصر، من جهة أخرى؛ فأحيت اللجنة ذكرى المفكر المناضل ،حسين مُروّة*، في شهري مايو/أيار ويونيو/حزيران ١٩٨٧، قُدمت فيها عدة دراسات ،حول « المشكلة الطائفية في مصر «(٣).

في ذكرى مهدي عامل** «أقامت اللجنة بالمشاركة مع (مركز البحوث العربية) ندوة فكرية ،تناولت قضية (النظرية ،والممارسة في فكر مهدي عامل « *(٤).

بالرغم من أن الندوة لم تُجب عن كثير من الأسئلة المطروحة على الفكر العربي المعاصر ،وعلى نضال شعوبنا الثوري ، فإنها كشفت عن الكثير من التضليل ،و رواسب الماضي في فكرنا المتجدِّد ،ويردُّنا إلى مناطق التخلف ،والعجز عن التقدم .

كما جمعت ندوة «ناجي العلي» ، أفضل فناني الكاريكاتور ،في مصر ،حول معرض لأعمال الفنان المحتفى به ،وبعض المحاضرات ،والشهادات عن فنه ،وحياته ، ودور الكاريكاتور في الفن ،والنقد ،والرأي الآخر ، مُركِّزة على الدور الجماهيري المهم لهذا الفن في تراثنا التصويري الحديث (٥).

*حسين مُروّة: مفكر ،وفيلسوف،وباحث،وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني ،له العديد من المؤلفات ،أبرزهاكتاب «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية،»الذي صدر في العام ١٩٨٧،وتوفي مُروّة في ١٨فبراير/شباط ١٩٨٧.

**حسن حمدان ، المعروف باسم مهدي عامل (١٩٣٦-١٩٨٧)، هو أستاذ جامعي لبناني ، مفكر ،وفيلسوف ،وعضو قيادي في «الحزب الشيوعي اللبناني» ،اغتالته يد طائفية ،في بيروت، في ١٩٨٧/٥/١٨.

خلال « حرب الخليج الثانية « (١٩٩٠) دافعت اللجنة عن، واشتركت في الحملات التي نُظِّمت مع معارضي الحكومة، ضد موقف الحكومة المصرية من الحرب، ودخولها في جبهة «الحلفاء» ضد العراق ،وقصفهم الوحشي لمباني ،ومدن ،وقرى العراق، مدمرة للبشر ،والبنية الإنتاجية للبلاد .»فدافعت اللجنة عن المثقفين ،الذين قُبض عليهم في هذه المعارضة ،مثل الشاعر عفيفي مطر ،والمهندس عادل المشد «(٦).

سعت اللجنة إلى مكافحة ما يُسمى « بمشروع البحث عن أرض مشتركة « ؛حيث سعت مجموعة باحثين عرب ،وإسرائيليين ،تحت إشراف باحثين، ورجال سياسة أميركيين، لإيجاد مناطق ،ومواقع مشتركة، للحوار بين العرب ،والإسرائيليين(٧). فأكدت اللجنة ،مع كثير من الباحثين المصريين ،هذا الوجه الجديد لجهود قديمة ،من أجل «تطبيع» العلاقات بين العرب ، وإسرائيل (٨).كما اتخذت اللجنة من البيانات، والوثائق الصادرة عنها ،فضلاً عن الكتابات في مجلتها « المواجهة «، وسيلة للتصدي ،والدفاع ،في أغلب القضايا، التي تتطلب الوقوف عندها ؛ فها هي اللجنة ،مُدافِعة عن حرية النشر ،والتعبير ، أصدرت بيانًا ،بعد قرار المجلس الأعلى للصحافة،في مصر بتجريم إصدار الكتب ،والنشرات غير الدورية ،ومعاقبة مُصدريها

بالحبس، والغرامة ،وإلزام الصحف ،ودور النشر ،والمطابع بعدم طبعها ،أو توزيعها ،وفق تفسير متعسِّف لقانون المطبوعات ؛حيث طالبت اللجنة : (٩)

١-إلغاء هذا القرار ،وإيقاف العمل به ،فوراً؛

٢-مطالبة وزارة الثقافة بتحمل مسؤوليتها ، في حماية حق التعبير ،والابداع؛

٣-تعديل قانون المطبوعات ،وقانون سلطة الصحافة ،بما يضمن الحرية الكاملة الحقيقية، في النشر ،والتعبير؛

٤-مناشدة جميع المثقفين ،والهيئات التشريعية ،والأحزاب السياسية ،والجمعيات الثقافية ،والأدبية ،والفنية ،والنقابات ،خاصة، نقابتي المحامين ،والصحافيين، بالوقوف أمام هذه الهجمة السافرة، من أجل حماية حق المواطن في المعرفة ،والثقافة.

جاء رد اللجنة على توفيق الحكيم ،عندما بعث يوم ١٩٧٩/٥/٦ ،ببرقية، للسيد رئيس الجمهورية(السادات) ،ونشرتها الصحف المصرية، بتاريخ ١٩٧٩/٥/٧،وفيمايلي نصها :» تحية لموقفكم الراسخ أمام الأقزام ...لقد أفزعهم صلح الفئتْين (المتحضرتيْن)، بعد اطمئنانهم إلى ضعف مصر، لتُذَل تحت أقدامهم، لِم لا، وجهلهم سر المقاطعة، والتخريب، وخوفهم من قوة مصر، بعد الصلح، لأنهم يريدونها منهكة القوى، بالحرب، لتستنجد بهم، وتتملقهم ، فيحتقرونها. فإلى الأمام نحو (الكرامة) ، و(الحضارة) ،وخطوة من المتحضرتيْن، نقابلها بخطوتيْن، ولن ترجع مصر مع المتخلفين للوراء .والتقدم دائمًا ،والمجد لمصر المتحضرِّة « (١٠).

لم يكن هذا الموقف جديداً على توفيق الحكيم. فقد زار فلسطين ،صيف ١٩٤٦، وتعمّد أن ينزل ضيفاً على الحركة الصهيونية ، ولم يُطق بعض الشباب العربي الفلسطيني أن يوصم بهذه التهمة ، فتوجهوا إليه في تل ابيب ،وألَّحوا عليه بأن يزور القطاع العربي من فلسطين، وكانت صدمتهم به كبيرة ؛إذ رفض هذا العرض ،مؤكدًا لهم أنه يزور منطقة متحضِّرة! عندها، قال له ،عضو المجموعة العربية الفلسطينية ،خليل الخطيب : « وهل أوحى لك حمارك بهذه الفكرة ؟!(١١)

ردت لجنة الدفاع على برقية توفيق الحكيم، و حَديثُه الذي أدلى به إلى جريدة «الأخبار» اليومية القاهرية ،بتاريخ ١٩٧٧/٥/٩، إلى السادات:

« قام توفيق الحكيم ،ومازال، يقوم بدور المنظِّر الفلسفي ،لفصم مصر عن العالم العربي ،وتقليص دورها في هذه المنطقة ، خاصة في المشرق العربي ...وفي أعقاب زيارة الرئيس للقدس ،في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٧، كان الحكيم أول من طالب بإسقاط قضية فلسطين، وعقد صلح منفرد بين إسرائيل ،ومصر (الأهرام ،١٩٧٧/١٢/٢)، وفي الفترة ما بين ١٩٧٨/٣/٣ إلى ١٩٧٩/٥/١٢ ، قاد توفيق الحكيم دعوة على صفحات (الأهرام) إلى حياد مصر، بين العرب من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى، وتَضَّمن ،بالطبع، تحقيق صلح

منفرد، أولاً ،وخروج مصر من الصراع العربي- الإسرائيلي، ثانياً، وانعزالها في أرضها ،ثالثاً»(١٢).

كما أشار الرد إلى أن الحياد ،المقصود بهذا المعنى ،هو شرط من شروط إسرائيل للانسحاب من سيناء، وعلى هذا النحو : (١٣)

١-يلتقي منطق الحكيم ،ومنطق عتاة الصهاينة ، فالحكيم يُقسِّم المنطقة إلى معسكريْن :معسكر الإسرائيليين المُتحضِر ،ومعسكر العرب المتخلف؛

٢- بتقسيم المنطقة إلى معسكر تقدم، ومعسكر تخلف، يُفرِغ الحكيم الصراع العربي- الإسرائيلي من كل محتوى سياسي ،وطني، تحرري ،ويُفرِغ السياسة الإسرائيلية الصهيونية من كل محتوى عدواني، عنصري ؛

٣-يحاول الحكيم أن يخلع عن الشخصية المصرية الهوية العربية، ليُضفي عليها ثوب الحضارة الإسرائيلية.

أنهى الحكيم الحديث بالعبارة التي يُنهي بها، عادة ،كل حديث خطير ،»فهو رجل تَحرَّر من مطالب الدنيا ،ولم يعد يطمع سوى في حُسن الختام ،وتَصدُق العبارة إذا ما أضفنا «جائزة نوبل» إلى حُسن الختام» .

أتى تعقيب توفيق الحكيم ، الذي أورد فيه أن الخلاف جاء من اختلاف المقصود في معنى كلمة «الحياد» ،والذي يعتمده الحكيم على أنه عدم التدخل في سياسة غيرنا .

بينما لم تترك اللجنة تعقيب الحكيم دون تعقيب ، فأضافت تعقيبًا على تعقيب ، حيث رأت اللجنة أن الحكيم يقوم ،بمهارة فائقة ،لحماية معتقدات طبقته ، وأنه ،لأول مرة، يتصالح مع نفسه، ويقول ما يعتقد، ،ويُنادي بما يؤمن .

التظاهر في مواجهة «التطبيع»

اشتركت اللجنة في مختلف التظاهرات ،التي قامت ضد تمثيل إسرائيل في المعرض الصناعي، كما اشتركت، في ١٥ مايو/أيار ١٩٨٥ ، في التظاهرة الكبرى، أمام المعبد اليهودي، احتجاجًا على قيام وفد إسرائيلي، يزور القاهرة، بصلاة شكر في المعبد، بمناسبة إقامة الدولة الصهيونية .وتم إلقاء القبض على أربعة من أعضاء اللجنة هم : فتحية العسال ، و صلاح سليمان ، وجلال الغزالي ،وعادل المشد (١٤).

لم تكن معركة تمثيل إسرائيل في معرض الكتاب هي المعركة الأولى ،والأخيرة ،التي عمدت فيها اللجنة إلى التظاهر، كشكل من أشكال المقاومة ، وقد خاضت اللجنة معركتها في هذا الاتجاه، في يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٨٥. وفي مواجهة تمثيل إسرائيل بجناح في «معرض الكتاب السنوي» ،أعدّت اللجنة بيانها (لا للصهيونية ، ولا لتمثيل إسرائيل في معرض الكتاب) ،وبالاتصالات مع النقابات ،والهيئات المَعنية، حصلت اللجنة على تأييد عدد من الهيئات المهنية لذلك البيان ، وحمل البيان توقيع عدد كبير من المثقفين، ووَزَّع أعضاء اللجنة البيان على روَّاد معرض الكتاب ،وقادوا مظاهرة ضخمة ،ضد الجناح الإسرائيلي ،تصدى

رجال الأمن لفضّها ،وتم إلقاء القبض على عضوين من أبرز أعضاء اللجنة ، هما صلاح عيسى ،وحلمي شعرواي (١٥).

عن خطورة «التطبيع» غير الحكومي ، كشفت اللجنة عن موقفها الرافض لدعوة أي إسرائيلي ،من قِبَل جهة غير حكومية، للمشاركة في أي مؤتمر ،كما حدث في المؤتمر الدولي للفكر والإبداع ،الذي عُقد ،في القاهرة (١٥-١٩ /١٩٩٣/٢)، وشارك فيه نحو مئة مثقف من أقطار العالم ،بما فيها إسرائيل ، حيث كانت معظم منطلقات المؤتمر ،تدعو إلى التسامح، ونسيان العداوة ،تلك الدعوة «الإنسانية» الساذجة ،التي تجاهلت قتل أطفال، ونساء ،ورجال، لمجرد أنهم يريدون الحياة على أرضهم .لذلك، أقرَّت اللجنة رفضها أن يُحطِّم مثل هذا اللقاء إجماعًا، اتفق عليه المثقفون المصريون الوطنيون، بعدم التعامل مع الإسرائيليين ،على أرضية كامب ديفيد ،أو أيه ترتيبات مشابهة، حتى يحصل الشعب الفلسطيني على كامل حقوقه المشروعة ؛ فدعت اللجنة المثقفين المصريين لإعلان إدانتهم لهذه الخطوة ،وهي إحدى الخطوات الأولى في مشروع يُراد له أن يكون طويل المدى ،وعظيم الخطر (١٦).

رابعاً: اللجنة والقضية الفلسطينية

*لا للكتاب الإسرائيلي في معرض الكتاب

اشتركت إسرائيل في «معرض القاهرة للكتاب «،بدورته الثالثة عشرة ،في الفترة ما بين ٢٩ يناير /كانون الثاني، حتى ٩ فبراير/ شباط ١٩٨٥،وقال الناشر عبد الغني سروجي من (عكا)، إن عددًا من أصحاب دور النشر الإسرائيلية ،سوف يشاركون بإنتاجهم في المعرض (١٧). ناشدت اللجنة، في نداء لها، بتاريخ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٥ ، المواطنين المصريين ،من الناشرين ،والموزِّعين ،والكُتّاب ،والأُدباء ،والمدرسين، والطلاب ، والعمال، والمهنيين ،لمقاطعة الكُتَّاب الإسرائيليين، في معرض الكتاب الدولي الثالث عشر ،مقاطعة تامة شملت :(١٨)

١-عدم دخول جناح «أدكو إنترناشيونال»، الوكيل الوحيد في مصر للناشرين الإسرائيليين، أو شراء أي كتب منه ،أو تلقي أي مطبوعات مجانية ،أو هدايا ،ومقاطعة أي جناح آخر، يعرض المطبوعات الإسرائيلية؛

٢-مقاطعة كافة الحفلات ،واللقاءات، التي يدعو إليها ،أو يحضرها الناشرون الصهاينة ،وألا يعقدوا معهم ،أو مع وكيلهم أي اتفاقات للتوزيع، أو النشر المشترك ،أو الترجمة؛

٣-أن ترفع دور النشر المصرية، والعربية العَلَم الفلسطيني ،على أجنحتها ،رمزاً للاحتجاج على مشاركة الناشرين الإسرائيليين في المعرض؛

٤-أن تقوم كافة الأحزاب السياسية، والشخصيات الوطنية، واتحادات الطلاب، ونوادي هيئات التدريس

،والنقابات المهنية ،والعمالية ،بدعوة أعضائها ،وأصدقائها ،والمواطنين جميعاً لمقاطعة الجناح.

كما وضّحت اللجنة ،بأن دعوتها لمقاطعة الكتاب الصهيوني، في معرض الكتاب ،ليست دعوة للتعصُب الفكري ، ولكنها احتجاج على أفكار استعمارية، توسعية ،وإن اشتراك الناشرين الإسرائيليين في هذا المعرض، التي جاء نتيجة ضغط إسرائيلي مكَثَّف، لدفع عملية «التطبيع الثقافي» إلى الأمام، باعتبارها جبهة الحرب الأساسية ضد العرب.(١٩)

كذلك أكّد بيان اللجنة على المطالب التالية: (٢٠)

١-مطالبة المسؤولين المصريين بالإيقاف الفوري ،لإجراءات اشتراك الكيان الصهيوني في المعرض؛

٢-دعوة سائر دور النشر، الوطنية ،والعربية، لعدم الاشتراك في المعرض؛

٣-حضَّ جماهير الشعب المصري على مقاطعة الجناح الصهيوني؛

٤-التأكيد على ضرورة رفع الأعلام الفلسطينية ،على أجنحة الدور المصرية ؛

٥-الالتزام بسرعة الإعداد لمعرض بديل للكتاب العربي ،بنقابتيْ المحامين ،والصحافيين، يشارك فيه الناشرون ،الذين اتخذوا موقفًا وطنيًا ،برفض اشتراك إسرائيل في المعرض؛

٦- مباشرة اتخاذ الإجراءات القضائية المُمكنة، لمنع اشتراك الكيان الصهيوني في المعرض .

مقاطعة أي نشاط علمي مع إسرائيل واجب وطني ،وإنساني

حرَّرت اللجنة بيانًا، في١٩٨٤/٣/٥ ، أكّدت فيه رفضها التبرير لأي نشاط مشترك مع إسرائيل ،تحت حجة العِلم ؛ فالأساتذة ، والعلماء الإسرائيليون ليسوا بعيدين عن الآله العسكرية، أو السياسة الصهيونية العنصرية . أضافت اللجنة، بأن اشتراك أي مصري في أي نشاط ، في إسرائيل ،ضرب لأبسط القيم الإنسانية ؛لأن الصهيونية تحمل وزر جرائم عديدة ضد البشرية ، وذَكَّرت اللجنة بمذابح دير ياسين ،وصبرا وشاتيلا ،وذبح الأطفال، والشيوخ، وانتهاك الحرمات، والمقدسات. وأشارت اللجنة إلى» أن مقاطعة أي عمل مشترك مع إسرائيل ،هي أقل ما نستطيع أن نؤدِّيه، لخدمة وطننا الصغير ،والكبير، ومواطنينا .وأخيراً نكرر الدعوة للمقاطعة، وأن يعود هؤلاء الذين خدعتهم الدعاوى الصهيونية إلى مبادئهم الوطنية ،والإنسانية»(٢١).

برقية من أجل الإعادة الفورية للمبعدين الفلسطينيين إلى بلادهم

وجّهت اللجنة برقية لسكرتير عام الأمم المتحدة ،وأمين عام الجامعة العربية ،ومنظمة الوحدة الأفريقية، والمنظمات الثقافية ،العالمية ،والإقليمية ،لإدانة عملية إبعاد الفلسطينيين ،والإجراءات التعسُّفية العنصرية

من قبل الكيان الصهيوني، على أرض فلسطين ، وطالبت اللجنة بإعادة جميع المبعدين من الأراضي المحتلة ، وناشد الموقعون على هذه البرقية من المثقفين المصريين، كافة مثقفي العالم للتضامن، والمطالبة بالآتي:((٢٢

أولاً: تنفيذ السكرتير العام للأمم المتحدة لجميع القرارات الصادرة ضد انتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة ؛

ثانياً: استنكار كافة المنظمات الحكومية دولية، واقليمية ،ومحلية ، الموقف الاسرائيلي ،والمطالبة بإعادة المبعدين، فوراً، إلى بلادهم؛

ثالثاً: الإبراق إلى رئيس الولايات المتحدة الأميركية ،للمطالبة بوقف الدعم الأميركي المستمر للنظام الإسرائيلي القهري، على أرض فلسطين.

ختمت اللجنة بيانها ،بالدعوة للمشاركة في الاجتماع ، الذي عُقد مساء الأربعاء ١٩٩٣/٦/١٦، حول توحيد الموقف الوطني في هذه القضية ،ودور القوى المختلفة في التعريف بأبعادها.

في الذكرى الأربعين لقيام دولة إسرائيل.. وتحية لانتفاضة الشعب الفلسطيني

بعد مرور سنة على اندلاع «انتفاضة الحجارة «،في الضفة، والقطاع المحتلَيْن، في ٨ديسمبر /كانون الأول ١٩٨٧، أصدرت اللجنة بيان تحية للانتفاضة ،مؤكِّدة على : (٢٣)

١-إن المشروع الصهيوني ، بدأ كطرح استعماري أوروبي ،وأصبح دولة ذات طبيعة عنصرية عسكرية ،تسعى إلى الهيمنة ،والتوسُّع في المنطقة ،وتطمع إلى تطبيع العلاقات مع الدول العربية المحيطة؛

٢-إن القضية الفلسطينية هي لبّ الصراع في الشرق الأوسط، ومن المستحيل الفصل بين قضية تحرير فلسطين ،وقضية التحرر العربي ؛

٣-لقد أثبتت التجربة التاريخية أن الكيان الصهيوني خطر على مصر، مُهدِّد لأمنها ،ويهدم جهودها لبناء مجتمع ديمقراطي حر.

حول الحملة المعادية للفلسطينيين في الصحف العربية

في ٢٢يناير / كانون الثاني ١٩٩٠، جاء بيان اللجنة ،وفيه ندَّدَت بموقف بعض القيادات الصحافية، والكُتَّاب المعروفين، في مصر، الذين فجَّروا حقدهم على المواقف، والتصريحات الفلسطينية ،في محاولة لعزل الشعب العربي في مصر عن قضية فلسطين، بمثل هذه الحملة المضلِّلة الجائرة على الفلسطينيين ، لكن

اللجنة أكّدت بأنها « تهيب برجال الإعلام ،في مصر، أن يرتفعوا بمستوى الحوار ،في مثل هذه القضية المصيرية ، وأن يراعوا اتجاه الرأي العام ،في مصر، ويدركوا خطورة ما تحدثه كتاباتهم من تراكم سلبي، لا يصبّ، في النهاية ،إلا لمصلحة العدو، ومقولاته المعادية لنا ؛ وهو مالا نتصور أن يغفل عنه كُتَّابنا ،ولا أي مصري شريف «(٢٤).

خامساً: اللجنة والقضايا العربية

تحية إلى القوى الوطنية اللبنانية

أعلنت اللجنة مساندتها للقوى الوطنية اللبنانية ، مؤكِّدة على تأييدها للمقاومة الباسلة، التي يخوضها الشعب اللبناني، بطلائعه الوطنية، في قرى الجنوب، ومدنه ،ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي،مؤكِّدة بأن نضال المقاومة،في بيروت ،والجبل،والبقاع ،يكسر الحلقة الجديدة من حلقات «كامب ديفيد» ،ويفتح باباً أمام صيغة جديدة ،للعمل المشترك ،بين مختلف الطوائف ،والقوى السياسية الوطنية اللبنانية .كما بيّنَت اللجنة الدور الواجب عليها ،تجاه جبهة الثقافة ، وفضح التناقض بين الواقع ،والصورة الحكومية ،والإعلامية ؛حتى يتمكن المواطن من اتخاذ الموقف المناسب تجاه الإمبريالية ،والصهيونية (٢٥).

لا للعدوان الإمبريالي على العراق

عقدت اللجنة، مساء الخميس ٣١ يناير/كانون الثاني ١٩٩١، مؤتمرًا ضم أكثر من خمسمائة مثقف مصري ، حيث تَبنَّت اللجنة موقف المثقفين الرافض للحرب المدمِّرة في الخليج ، والتي تقودها الولايات الأميركية، ولا علاقة لها بتحرير الكويت، بأي حال من الأحوال ، وأنها ليست إلا عدوانًا وحشيًا ،همجيًا على الشعب العراقي ، بهدف تحطيم قدراته الاقتصادية ،والعسكرية ،والبشرية . « وإزاء هذا الوضع ، رأت اللجنة أن من واجب المثقفين المصريين ،والعرب ،وكافة الشعوب العربية ، أن تُعلِّن تضامنها مع الشعب العراقي الصامد، وأن تستنكر هذا العدوان الهمجي ،وتطالب بوقفه، فوراً، وأن ترفض تورّط الحكومة المصرية ،في هذا الحلف المعادي ، وأن تُدين الإعلام المصري الرسمي ،الذي تجاوز كل الحدود ،في تزييفه للحقائق ،ومعاداته لمشاعر الجماهير العربية، في مصر» (٢٦) . ذكّرت اللجنة أنها سبق وأدانت ضم العراق لأراضي الكويت بالقوة ، ولكن الخطر الأكبر، هو خطر العدوان الاستعماري، والوجود العسكري للقوات الأجنبية في الخليج.

حول التهديد الأميركي ضد الشعب الليبي

مع تصاعد حدِّة التهديدات الأميركية بالعدوان على الشعب الليبي ،مطلع ١٩٩٢، من تكثيف المقاطعة

،بهدف التجويع ،إلى العدوان العسكري المباشر، لا يغيب السبب الحقيقي عن وعي الشعوب العربية ،وهو محاولة تحقيق المخطط الأميركي للهيمنة، والسيطرة، بالتحالف الرأسمالي الإمبريالي ،عن طريق توجيه الضربات ،تباعاً، للشعوب المقهورة ،خاصة في بلدان العالم الثالث «(٢٧).

أصدرت اللجنة بياناً، بتاريخ ١٩٩٢/٢/٢، أدانت فيه التهديدات الأميركية ،وأكدت على عدوانية الولايات المتحدة الأميركية، ضد شعوبنا العربية ، وضد الشعب الليبي ، وذكّرت اللجنة الجماهير، والمثقفين العرب في الوطن العربي ، بمعاناة الشعب العربي في العراق ، ووصفت ما يحدث ، بالمسلسل المتكرر ! كما حيّت «اللجنة موقف اتحاد المحامين العرب ،ونقابات المحامين العربية ،التي حدَّدت يوم الخامس من فبراير / شباط١٩٩٢، إضرابًا عامًا ، للاحتجاج على التهديد الأميركي ،ودعمًا للشعب الليبي الشقيق»(٢٨).

المحصّلة

خاضت «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» ،في مصر ، على مدى خمسة عشر عامًا متصلة ، العديد من المعارك ،الفكرية الوطنية ،من أجل مصلحة الوطن المصري ،كجزء من الوطن العربي؛ ما جعل من مواقفها ،معياراً لدى المثقفين المصريين، في الكثير من القضايا الوطنية . ولابد من الإشارة هنا إلى أن ثمة ضريبة، دفعها أعضاء اللجنة ، لمجرد الثبات على موقفهم ، والتمسُّك بمبادئهم ،فلم تكن مصادفة أن تشن حكومة السادات ،مثلاً، هجومها الدعائي ،والسياسي على مطبوعات اللجنة ،في خُطب السادات ، والتي سبقت «مذبحة الحريات» ،واعتقالات سبتمبر / أيلول ١٩٨١، وأن تشمل هذه الاعتقالات قيادات اللجنة :د.لطيفة الزيات ،ود.أمينة رشيد ،ود.عواطف عبد الرحمن ،وصلاح عيسى ،وفتحية العسال(٢٩).

بينما يروي حلمي شعرواي ، « وجاء الموعد الدوري لمعرض القاهرة الدولي للكتاب، أواخر يناير/ كانون الثاني ١٩٨٠ ،وسط انتشار فكر وطني، يرى أن الفكر الصهيوني سيبدأ النفاد إلى الثقافة العربية، في مصر ، رغم الرد بأنه يستحيل ذلك .وارتفع شعار (الغزو الثقافي) ،وضرورة الرد الوطني عليه . وانعقد ،عندئذ (أواخر يناير/ كانون الثاني) ،معرض الكتاب ، وقررت اللجنة تشكيل وفد ، من عدد كبير من المثقفين، يذهبون بمنشور بعنوان (لا للصهيونية) ، ويقفون أمام المعرض في محاولة رمزية، تشير إلى إحراج المثقفين، إذا دخلوا جناح العدو الصهيوني .

"في الصباح ،ذهب الوفد ، في الساعة التاسعة ، وتحرجت لطيفة الزيات من الوقوف بهذه الطريقة ، فوقفنا صلاح، وشخصي[شعراوي]، في صدر المجموعة، بحكم صلتنا بالعمل الوطني العام ، ورغبة في الإشارة للرد على ما يردِّده بعض المثقفين ،من أن اللجنة ليس لها دور فعال في الوسط الثقافي .فسارع رجال مباحث الصحافة- كما فهمت من مسمياتهم - إلى القبض على كلينا ، وأرسلونا إلى مبنى وزارة الداخلية ، ثم إلى سجن قلعة محمد علي ،بتوصية أن نُحجز في زنزانتيْن منفصلتيْن ، ولكنى استطعت الاتفاق مع صلاح على البدء بالإضراب عن الطعام معًا ، فخفَّت شروط الحبس ،نسبياً . ثم عُرضنا على

وكيل النائب العام ، الذى أصدر أمره ،على ما أذكر ،بحبسنا لمدة خمسة عشر يومًا، لإتمام اجراءات التحقيق. وكدنا نستمر في هذا المحبس، ونحن في شهر يناير ، والبرد قارس جداً، في أعلى زنازين معتقل القلعة ، ونافذة الزنزانة عالية، ومفتوحة ، ورُحت أتذكر ذلك المملوك، الذى لا أذكر تفاصيل حبسه ، وقد قفز من موقع في ردهات القلعة ، ووجد (خيل الحكومة) مرصوصة أمامه ، فأخذ أحدها ،وراح يتدحرج به من التلال العالية ،حتى الطريق الترابي، الذي نراه، الآن ،(طريق صلاح سالم). لم ينقذنا من هذا الوضع، إلاّ ما سمعناه من لقاء السادات ،ومناحم بيجن ،بالإسماعيلية، للاتفاق على خطوات تنفيذ (كامب ديفيد)، وإذا بمناحم بيجن يغضب من (تعنُّت) السادات ،ويغادر الإسماعيلية ، وأشهد أن رجال الأمن قد سعدوا بذلك ، وسارع إلينا بعضهم للقول بأنها يبدو (قد فُرجت)، إشارة إلى قرب الإفراج عنا»(٣٠) .

على الرغم من إصرار اللجنة على كونها «جبهوية « ، وتأكيد حلمي شعرواي على ذلك ،في قوله : « كانت اللجنة جبهوية، بالفعل، ضمَّت إلى جانب اليساريين ، وفديين ، وناصريين ، وأعضاء من (حزب العمل) شبه الإسلامي . وهؤلاء جميعاً ممن اتفقوا على إبعاد المسألة القومية ، والوطنية، عن التفسير الديني السلفي ، وحشد الجماهير على هذه المبادئ . فإن التفوُّق جاء في عدد اليساريين عن بقية الانتماءات الأخرى .كما أن مقر اللجنة في «حزب التجمع « ،أثار تحفَّظ بعض ذوي الانتماءات الأخرى ،ربما لاحتمالية إعطاء اللجنة طابعًا حزبيًا يساريًا، ،وليس قوميًا ،أو لاتهامه بالولاء للحكومة ،أو إعطاء اللجنة طابعًا سياسيًا، وليس ثقافيًا، كما يطلب الجميع «(٣١).

بيد أن نشاط اللجنة أخذ بالذبول ، نتيجة لعدة ظروف تدريجية، مثل ، اشتداد مرض الراعية الرئيسية ، د.لطيفة الزيات ، وسفر أمين اللجنة ، حلمي شعراوي ، للعمل بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس ، وانشغال الكثيرين من الأعضاء الشبان في دروب الحياة العملية ،والتغلُّب على المعايش، كما يقول ابن خلدون ، ثم كان هناك عامل يشير إلى قيام أشكال متعددة كثيرة ،تقوم بأدوار مماثلة، فعلاً .يؤكد حلمي شعراوي ، أن نشاط اللجنة لم ينقطع، بوفاة رئيسها ،د. لطيفة الزيات ، ولكن الرأي العام الشعبي أثبت وجوده، في رفض التعامل مع الصهاينة ،سواء بسبب ديني، أو وطني، لرفض احتلال إسرائيل، أحياناً، للأراضي المصرية ، ومن ثم ،شعر أعضاء اللجنة بأن قضايا "لجنة الدفاع عن الثقافة القومية "أصبحت على قارعة الطريق ،بالنسبة لرفض "التطبيع" ، وصار ثمة استنكار لسلوك الكاتب علي سالم ، ولوم لإميل حبيبي ، وحتى بالتشجيع الشعبي لما يتم من عمليات فدائية، في سيناء ...الخ ، أما عن أسباب عدم قيام لجان مماثلة في الأقطار العربية ، فبسبب موقف الحكومات من هذه الأشكال في العمل الثقافي، التي يمكن أن تكون مجالًا للعمل السياسي ، مع القوى المعارضة ، باعتبارها ،في النهاية ،شكلاً سياسياً ، كما أن الدولة في مصر، نفسها ، لم تكن مرحبة بهذا النوع من النشاط .

الهوامش

١. http/alahalygate.com.

٢. د.أمينة رشيد،د.رضوى عاشور،د.سيد البحراوي ،دراسات ووثائق ١٩٧٩-١٩٩٤،مركزالبحوث العربية للدراسات والتوثيق والنشر،القاهرة،١٩٨٠،ص١٨-٢١.

٣. المواجهة (القاهرة)،العدد الخامس ، سبتمبر /أيلول ،١٩٨٥.

٤. وثائق وبيانات «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية "،ص١٥.

٥. د.رشيد،عاشور،البحراوي،مرجع سبق ذكره،ص١٧-١٨.

٦. المرجع نفسه ،ص١٨.

٧. المرجع نفسه،ص٤٠-٤٢.

٨. وثائق وبيانات «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» ،مصدر سبق ذكره،ص١٥.

٩. د. سعيد النشائي، التسرب الصهيوني تحت المظلة الأميركية ،الشعب(القاهرة) ١٩٨١/٣/١٧.

١٠. صبري جريس ، العرب في إسرائيل،منظمة التحرير الفلسطينية ،مركز الأبحاث ،بيروت،١٩٦٧،ج٢،ص١٢٤.

١١. " المواجهة "،مصدر سبق ذكره .

١٢. د.رشيد،عاشور،البحراوي،مرجع سبق ذكره،ص٤١-٤٢.

١٣. المرجع نفسه ،ص٤٤.

١٤. المرجع نفسه ،ص٤٤-٤٥.

١٥. الأهرام (القاهرة)، ١٩٨٠/١١/١٠.

١٦. وثائق وبيانات «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية «،مصدر سبق ذكره،ص٢٩.

١٧. المصدر نفسه،ص٣٢.

١٨. د. أنيسة الأمين، الثقافة والمقاومة ومواجهة الصهيونية ،لجنة الدفاع عن الثقافة القومية،المجلس الثقافي اللبناني،القاهرة،١٩٨٩/١١،ص٥٣.

١٩. المرجع نفسه،ص٥٦-٥٨.

٢٠. المرجع نفسه،ص٦٩-٦٣.

٢١. د.رشيد،عاشور،البحراوي،مرجع سبق ذكره،ص٨٦.

٢٢. وثائق وبيانات «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية «،مصدر سبق ذكره،ص٦٤.

٢٣. د.الأمين،وثائق وبيانات «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية «،مرجع سبق ذكره،،ص٦٠.

٢٤. المرجع نفسه،ص٦٢-٦٣.

٢٥. المرجع نفسه،ص٦٥.

٢٦. أحمد بهاء الدين شعبان ، ما بعد الصهيونية وأكذوبة حركة السلام في إسرائيل،ط٢،مكتبة جزيرة الورد ،القاهرة ، ٢٠١٠،ص١٣٨-١٣٩.

٢٧. وثائق وبيانات «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية «،مصدر سبق ذكره،ص١٢٨-١٢٩.

٢٨. المصدر نفسه،ص١٣٠-١٣٢.

٢٩. أحمد بهاء الدين شعبان ، من ثقافة المقاطعة إلى ثقافة المقاومة ،ط١، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٤،ص٣٧.

٣٠. مقابلة مع المفكر ،أمين «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» ،حلمي شعراوي، بتاريخ ٢٠٢١/٤/٢٨.

٣١. المرجع نفسه.

تجربة الاتحاد العام لطلبة فلسطين درع م.ت.ف في العراق*

أ.حسام أبو النصر

منذ عام ١٩٤٨ لجأ الفلسطينيون الى العراق التي فتحت الباب لهم، واستطيع القول ان بداية الحركة الطلابية الفلسطينية في العراق كانت أواخر الخمسينات، حين أخذ الطلبة الفلسطينيون يدرسون في المدارس والمعاهد والجامعات العراقية، فقد جرى قبول عدد معين من الفلسطينيين المقيمين في العراق أسوة بقبول عدد آخر من البلاد العربية، فمنذ عام ١٩٥٨ زاد عدد المقبولين، حيث في سنة ١٩٦٢م، تم قبول ٧٥ طالباً من الضفة، و٢٤ طالباً فلسطينياً من غزة، و٢٠ وطالباً من ترشيح الهيئة العربية العليا في كليات جامعة بغداد ، حيث كان العراق قد خصص للفلسطينيين ١١٠ مقاعد منح كاملة، تشمل الدراسة والسكن والقرطاسية والطعام، وملابس موحدة لكافة الطلاب، كما شملت المنح الدراسية كافة التخصصات العلمية في الجامعات، وكان طلبتنا محاطون بأشكال العناية والاهتمام وكانت لهم مكانة خاصة لدى العراقيين ويدرسون في المدارس والمعاهد والكليات العراقية، كما تم قبول عدد من المقيمين في العراق إضافة إلى قبول القادمين من الأراضي الفلسطينية والبلدان العربية في الجامعات، حيث اتاحت الحكومة العراقية للفلسطينيين اللاجئين فرصة التعليم المجانية بمختلف مراحلها الابتدائية والثانوية والجامعية، وكانت الحكومة العراقية تخصص سنوياً عشرين منحة دراسية في جامعاتها للطلبة اللاجئين الذين يتم اختيارهم عن طريق لجنة ثلاثية من وزارة التربية والتعليم ومديرية الفلسطينيين و م.ت.ف وهذه النسبة تضاف للمنح التي ذكرناها سابقاً، إلا أنها عدلت عن ذلك وصارت هناك مساواة كاملة بين الطلبة العراقيين والفلسطينيين بما يتعلق بالقبول في الجامعات، وقد أدت هذه التسهيلات المقدمة من الحكومة العراقية إلى رفع نسبة التعليم وانخفاض نسبة الأمية في صفوف اللاجئين الفلسطينيين في العراق.

* باحث فلسطيني.

فقد كانت للحكومات العراقية المتعاقبة مواقف داعمة للفلسطينيين منذ العهد الملكي، ازداد هذا الدعم بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م، وما بعدها من حكومات حتى وصول حزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٨م، الذي أعطى قضية فلسطين بعداً قومياً، رأى البعض فيه تجميلاً لسياسات النظام في المنطقة.

وقد وصل أول فوج عسكري فلسطيني للعراق عام ١٩٥٩م، وفي تجربة أخرى تم انشاء رابطة أبناء فلسطين في العراق التي تأسست في ١٩٦٠/٣/١٤م.

وهذه الفترة بعد وقوع النكبة شهدت الحركة الطلابية الفلسطينية تطورات متسارعة، فبدأت الأطر الطلابية تسعى إلى خلق أشكال نضالية طلابية، من هنا تشكلت رابطة طلاب فلسطين وفي فترة الخمسينات نشطت مجموعة من الطلبة الفلسطينين في بغداد، أبرزهم سعيد كمال (قوميين عرب)، وتحسين الشخشير(بعثي)، لطف غنطوس(بعثي)، وهم وغيرهم شكلوا رابطة الطلبة في بغداد على غرار القاهرة، وكانت العراق في حالة اضطراب بعد انقلاب ١٩٥٨ وهذا جعل من رابطة بغداد لا تشارك في المؤتمر الأول في القاهرة، ولكن في عام ١٩٥٩م، هرب مجموعة من الطلبة القوميين إلى الشام، ثم القاهرة، ليشاركوا في المؤتمر التأسيسي ١٩٥٩م، الذي ترأسه زهير الخطيب، حيث كان الشخشير عضو الهيئة التنفيذية وأمين الصندوق للاتحاد العام وكان حريصاً جداً ومتشدداً في الموضوع المالي، وقد شارك أيضاً في المؤتمرأحمد جمعة (رئيس فرع البصرة).

باشرت الهيئة التنفيذية عملها بإنشاء الفروع، حيث استطاعت أن تبلور اللوائح والدستور بشكل واضح كما نشط الاتحاد على الصعيد الخارجي حيث شاركت وفود عدة في مؤتمرات مختلفة أبرزها مؤتمر اتحاد الطلاب العالمي، ومؤتمر بكين، ومؤتمر بغداد الذي عقدته الوفود الطلابية الفلسطينية في اطار التشاور والتحشيد لدعم القضية الفلسطينية، وكان من أبرز الذين التحقوا بالساحة العراقية المفكر الفلسطيني الكبير جبرا إبراهيم جبرا*٢٩، حيث استقر في العراق بعد حرب ١٩٤٨، وعمل بالتدريس في جامعة بغداد، عام ١٩٥٢م، بعد عودته إليها ودرّس فيها بكليات مختلفة، وأصبح أستاذاً للغة الإنجليزية في جامعة بغداد،وكان منزل جبرا الواقع في شارع الأميرات في منطقة المنصور ببغداد مكانًا للقاء المثقفين العراقيين والفلسطينيين ومنهم الطلبة والشعراء حيث كان العراق ملتقى لهم، (فقد قلت ذات مرة «كاد الشعر أن يكون ديناً في العراق»)، ويذكر أيضاً من الحركة الطلابية في بغداد فيصل الحسيني الذي انضم سنة ١٩٥٨ إلى حركة القوميين العرب، وسافر إلى بغداد للالتحاق بكلية العلوم، لكنه اضطر إلى مغادرة العراق في السنة التالية، بسبب النزاع الذي نشب بين القوميين العرب والشيوعيين، وعاد إلى القاهرة، وقد يكون الحسيني قد شارك في تشكيل نواة طلابية في بغداد،كما أن الشاعرة والباحثة سلافة حجاوي، سافرت مع عائلتها إلى العراق وحصلت على شهادة البكالوريوس في الأدب الانجليزي من جامعة بغداد عام ١٩٥٦م، لتعمل بعدها في تدريس العلوم السياسية بجامعة بغداد لعدة سنوات،

وعملت حجاوي محررة في مجلة مركز الدراسات الفلسطينية الصادرة عن كلية العلوم السياسية في جامعة بغداد، والتي شارك في تحريرها عدد من الطلبة الفلسطينيين،وكان المركز ينظم ندوات وورشاً تخص القضية الفلسطينية والاحتلال الصهيوني بحضور قيادات فلسطينية مثل أبو جهاد وأبو اياد وخالد الحسن، وكانت لهم مداخلات مركزية في هذه الندوات وكل ذلك بحضور الطلبة الفلسطينيين والاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي ينظم ذلك.

***فرع الاتحاد في العراق، ستينات القرن الماضي :**

خلال هذه الفترة كان من أهم الإجراءات التي قامت بها الحكومة العراقية تجاه القضية الفلسطينية قبل تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في منتصف الستينات من القرن الفائت - أسوة بموقف الحكومتين السورية والمصرية، أن أعلن رئيس الوزراء العراقي عبد الكريم قاسم في ١٩٦٠م، عن تشكيل وحدات فلسطينية مقاتلة فوق أراضيها تابعة إلى جيش التحرير الفلسطيني في العراق، والتي قدم لها الجيش العراقي كل تجهيزاته وتولي تدريبها، لتكون نواةً لتحرير فلسطين، حيث وضع لها نظاماً متكاملاً، وتم تجهيزها بجميع التجهيزات العسكرية من الأسلحة والمعدات المخصصة أصلاً للجيش العراقي، فضلاً عن التدريب في المعسكرات العراقية.

بقيت الأوضاع في العراق مضطربة بعد انفكاك الوحدة السورية المصرية، حتى عام ١٩٦١م*٣٠، حيث عاد عدد قليل من الطلبة لجامعة بغداد وحدث انقسام في اتحاد الطلبة الفلسطينيين لم يشارك على اثره طلبة العراق في المؤتمر الثاني حيث تحالفت فتح مع الديمقراطيين ضد البعثيين.

إلا أن بداية العلاقات العراقية ومنظمة التحرير الفلسطينية، بدأت رسمياً بإعتراف العراق بـها، عام ١٩٦٤م، وهذا ما فتح المجال لعمل الاتحاد العام لطلبة فلسطين في العراق، وقد يكون هذا هو البروز الرسمي الأول للحركة الطلابية الفلسطينية في بغداد، وكان أول ممثل لـ م.ت.ف في العراق داود عودة*٣١، وكان على علاقة وطيدة بالرئيس عبد السلام عارف، وهذا أتاح تواجد مقرات لمنظمة التحرير في بغداد منها الاتحادات وعلى رأسها الاتحاد العام لطلبة فلسطين.

حيث شهد منتصف الستينات السماح بتأسيس الأندية والمؤسسات والاتحادات الفلسطينية الطلابية والثقافية والاجتماعية والرياضية؛ لتكون سوحًا للعمل الشعبي الفلسطيني، ومنها: اتحاد طلبة فلسطين، واتحاد العمال الفلسطينيين،والاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، والاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، وغيرها، فضلًا عن نادي حيفا الرياضي، ومستوصف الهلال الأحمر الفلسطيني، ومعسكرات الكشافة والأشبال والمرشدات، وغيرها.

وكان جميع الطلبة العرب بمن فيهم الفلسطينيون يدرسون مجاناً وكانت توفر لهم إقامة دراسية أيضاً

وهذا الأمر اختياري فمن الطلبة من كان يسكن خارج الاقامة الطلابية.

خلال تلك الفترة كانت الصراعات داخل المنظمة في أوجها، حيث في عام ١٩٦٤م، دخلت مجموعات من (ج. ت.ف) جبهة التحرير الفلسطينية، شفيق الحوت وأحمد صدقي الدجاني في تحالف مع الشقيري، ولكن فتح استطاعت من خلال هايل عبد الحميد، من تشكيل الهيئة التنفيذية، وكان هاني الحسن رئيساً للمؤتمر، والعناية الخاصة بشريحة الطلبة الفلسطينيين بعد عام (١٩٦٧م)، وتوفير السبل المناسبة لهم للدراسة في العراق. وكان الطلبة الفلسطينيون يُعاملون عند دخول الجامعات معاملة خاصة بعد عدوان (١٩٦٧م)؛ حيث كان يتاح لهم دخول الكليات والجامعات والمعاهد العراقية وبمعدل مئات الطلبة سنويًا، وصدرت تعليمات بمساواة الدخول للجامعات ارتباطًا بالمعدل بالنسبة للفلسطينيين المقيمين والدارسين في الثانويات العراقية، الذين كانوا يعاملون معاملة طلبة العراق، وبرز دورالوحدات التابعة للاتحاد، ومن أهمها (الموصل، البصرة، الرمادي، بغداد، بابل (الحلة)، أربيل.

وبعد ثورة ١٧-٣٠ تموز، تسلم حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة في العراق، وأصدر قرار رقم ٣٦٦ في ١٩٦٩/٨/١٧ جاء فيه مساواة الفلسطينيين بالعراقيين في قطاعات واسعة شملت السكن، والترقيات والتقاعد والوظيفة وحصولهم على اجازات دراسية، وهذا اعطى زخماً أكبر للتواجد الطلابي الفلسطيني خاصة فترة ١٩٦٤ – ١٩٧٥ في عهد الرئيس العراقي الأسبق عبد الرحمن عارف، ويذكر أن خليل تايب أحد الذين شاركوا في ثورة تموز، وقد تخرج من جامعة بغداد وحصل منها على بكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية ودرجة الماجستير عن رسالة في الصراع العربي الصهيوني ليكون أحد مؤسسي الرابطة والمدافعين عنها والتي وصلت الى مستوى طيب في توثيق العلاقة بين طلاب وخريجي الجامعات والمعاهد العراقية واستثمارهم في العمل الوطني والقومي، ومن الأسماء التي ترأست فرع العراق خلال تلك الفترة يوسف أبو سرية١٩٦٤ حتى ١٩٦٧ رئيس وحدة بغداد، وعلي شكري محمود عيد ١٩٦٧ حتى ١٩٦٩م، ثم احمد قاسم١٩٦٨ حتى ١٩٧٠م.

*فرع الاتحاد في العراق، سبعينات القرن الماضي:

كان الفلسطينيون يشكلون رافداً مهماً في الحياة المدنية في العراق، خاصة في مجال التعليم والصحة وقطاع الخدمات أثناء فترة السبعينات وما بعدها، كوْن الفلسطينيين أحد أكثر شعوب المنطقة تعلماً، وقد نتج عن التداخل الاجتماعي بينهم وبين محيطهم، انتماء شديد إلى العراق، خاصة فئة الطلاب منهم، الذين كانوا يتلقون التعليم المجاني كما العراقيين، ولم يكن هناك فرق في المعاملة بين العراقي والفلسطيني.

فشهدت فترة السبعينات حركة طلابية نشطة جداً، حيث تشكلت هيئات ادارية في الثانويات عام ١٩٧٠م وكان محمد عبد الواحد وعاصف ... من الذين عملوا بها، بل اعتبر البعض أن ساحة العراق

كانت الأهم بالنسبة للاتحاد العام لطلبة فلسطين في تلك الفترة، خاصة بوجود عزام الأحمد*٣٢(الذي سيرأس فرع العراق لاحقاً)حيث ذهب بمنحة إلى ليبيا تاركاً جامعة بغداد، التي درس فيها ادارة واقتصاد، وبتدخل من جورج حبش عاد الأحمد إلى العراق، وتم تسوية وضعه مع النظام العراقي، شهر ١٢ من عام ١٩٦٩م، وفي تلك الفترة انقسمت الهيئة الادارية لوحدة بغداد، والتي تشكلت من عماد ملحس رئيس الاتحاد في بغداد ١٩٧٠(فتح) كلية طب، وكان أيضاً في تلك الفترة أكرم عبد اللطيف (جراب)، عبد الرحمن العجوري، محمود معروف(الذي بقي في العراق حتى ١٩٧٦م)، وكان عدد أعضاء الهيئة الادارية لفرع بغداد ٩ أشخاص، بينهم سيدة، وكان مقر الفرع في منطقة الأعظمية، عند جسر الصرافية وهي منطقة الكليات مما سهل عملية تحرك الطلبة الفلسطينيين هناك والتواصل مع الجميع قبل أن ينتقل المقر إلى منطقة قريبة جداً، في الوزيرية أيضاً على شط دجلة.

وقد توالى ممثلوا م.ت.ف في بغداد إلى أن تولى صبري البنا (أبو نضال) إدارة مكتب فتح ١٩٧٠،ليشغل منصب أمين سر حركة فتح - إقليم العراق ثم أضيف له ممثل المنظمة في أواسط عام ١٩٧١، قبل أن يُفصل من حركة فتح عام ١٩٧٥م، والذي استغل سوء العلاقات العراقية مع م.ت.ف ليقوم بأفعال اجرامية ضد عدد كبير من القيادات الفلسطينية، بمساندة أجهزة الأمن العراقية آنذاك، ويذكر أن رشاد عبد الحافظ كان مساعداً لأبو نضال، وقد التحق بكلية العلوم في جامعة الموصل بالعراق وكان له دور في تلك الوحدة، وتخرج منها بدرجة البكالوريوس في العلوم،(ترأس تحرير فلسطين الثورة) لكن حكم عليه بالاعدام من جماعة أبو نضال لرفضه الانشقاق، وتمكن من الإفلات، واغتيل عام ١٩٧٦م، في بيروت منطقة عين الرمانة.

وكان مقر فعاليات الطلبة الفلسطينيين كلية الآداب في جامعة بغداد، وحين عقد مؤتمر الفرع كان أعضاؤه تقريباً الفي عضو، وهذا يدل أن عدد الطلبة ارتفع في تلك الفترة، فيما الجبهة العربية لم تستطع السيطرة على الاتحاد إلا بعد عام ١٩٧٥م، مع أن علاقتهم بالنظام العراقي كانت قوية، وقد تم استحداث مكتب الطلبة والشباب، فترأس الأحمد دورتين في رئاسة الفرع، كانت الدورة الثانية ١٩٧٢ حتى١٩٧٤م، وقد قاد التوجه ضد الانشقاق، وتخرج عام ١٩٧٤قبل اعتقاله في ١٩٧٤/٢/١٥ من قبل جماعة أبو نضال، بعد أن سيطر على التنظيم الطلابي، وسُحب جواز سفره من قبل النظام، ولم يدم إعتقاله ١٠ أيام، فخلال تلك الفترة جاء إلى العراق ثلاثة مبعدين، وهم سليمان النجاب وعبد الجواد صالح، ومعهم ثالث، فإصطحب حسن عصفور*٣٣ الاحمد إلى المبعدين لكي يتدخلوا لدى النظام العراقي فوافقوا على منحه جواز سفر إلى بيروت ذهاب بلا عودة، ويذكر أن الرئيس العراقي انذاك كان أحمد حسن البكر، وبعدها اعتقلت جماعة أبو نضال ثلاثة آخرين في حزيران ١٩٧٥م، وهم عبد الله حجاوي (أمين سر المنطقة الطلابية في حركة فتح بغداد حتى نهاية ١٩٧٤ الذي كان له دور بارز في ترشيح من هو ممثل فتح في

اتحاد الطلبة)، وغازي ظاهر (كلية الاداب جامعة بغداد)، وإسماعيل التلاوي الذي كان من الأسماء الطلابية النشطة في تلك الفترة أي من نهاية ١٩٧٠م،تحديداً شهر أكتوبر حتى ١٩٧٦م، حيث كان يدرس في كلية الاداب، تخصص أدب انجليزي، في الجامعة المستنصرية وترأس لجنة المهرجانات والفعاليات في الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وهذا جعله مقرباً من الأحمد، وتم سجن التلاوي مع رفاقه في قاعدة الشهيد أبو علي اياد في منطقة هيت في الرمادي (بعد أن سيطر على القاعدة أبو نضال) لثلاث شهور أي ٨٥ يوما تقريباً، وفي شهر ٩ عام ١٩٧٥م، تم الافراج عنه ورحلوه إلى مكتب فتح في بغداد حيث التقى عائلته التي تدخلت للافراج عنه، ثم عاد الى الأردن ثم الكويت، فحاول مساعدة اصدقائه وذهب إلى مخيم صور في لبنان، لاقناع عائلة غازي ظاهر للذهاب لبغداد وإنقاذ ابنهم بنفس الطريقة، ونجحوا في ذلك، أما بالنسبة لعبد الله حجاوي فقد تدخل المناضل الكبير أبو حسين حجاوي (وهو كان يشغل مدير مكتب أبو عمار مكتب ٢٣ في دمشق) وفعلاً تم الافراج عن عبد الله بعد أن فقد دراسته لعدم اكمال امتحاناته.

-في عام ١٩٧٥م، استلم محمود دقة*٣٤ رئاسة الفرع في بغداد، التي غادرها بعد انتهاء دراسته وتخرجه عام ١٩٧٨تقريباً، وكان على علاقة تنظيمية سرية مع الاحمد وحين كان يتردد الأخير على العراق بصفته هيئة تنفيذية، كان يتواصل معه، وكان يشرف على مؤتمر الفروع في العراق، وفيما بعد عام ١٩٧٧م، أصبح الأحمد رئيس الاتحاد العام للطلبة العرب، حيث عقد المؤتمر في ادنبرة، وتحالف أبو نضال وجبهة التحرير العربيةأدى لاستلامهم الفرع بعد الدقة،فيما عاد دقة عام ١٩٨٠م، إلى بغداد وتم تعيينه مساعداً لعزام الاحمد الذي شغل منصب السفير.

وخلال تلك الفترة، منتصف السبعينات قامت الحرب الأهلية في لبنان والتي ارخت بظلالها على الوجود الفلسطيني هناك، وتطوع تقريباً خمسون طالب فلسطيني من بغداد عام ١٩٧٦م، وأكثر من ١٥٠ طالب عام ١٩٧٨م حيث كانواأول المتحمسين للعودة للدفاع عن الثورة فسافروا إلى القاهرة، ومن هناك إلى الإسكندرية وركبوا السفن بإتجاه بيروت، وقد حدثني والدي الراحل محمود أبو النصر*٣٥ عن ذلك، وعن الاجتياح الإسرائيلي١٩٨٢م، وأنه كان هناك قرار بالتعبئة العامة في صفوف الاتحاد العام لطلبة فلسطين في كل مكان، وكان العراق من أهم الساحات التي شاركت رغم عدم دراية بعض الطلبة بتفاصيل الحرب واستعمال الأسلحة لكن الدافع القومي والوطني جعلهم لا يتأخرون ثانية، وهذا ما أكده لي الشاعر أحمد يعقوب فيما بعد.

تم تشكيل اللجنة التحضيرية لاجراء الانتخابات في نهاية ١٩٧٦ وكان صخر بسيسو رئيس الهيئة التنفيذية، تموز ١٩٧٤ حتى آخر السبعينات، وخلالها استلم الاحمد مهام نائب رئيس الهيئة التنفيذية مكلفاً باللجنة الاعلامية في الاتحاد، ويذكر في تلك الفترة أن كان القائد أبو عمار غضباناً على الهيئة التنفيذية، وكانت قناة

الاتصال الوحيدة مع الاتحاد عن طريق الاحمد، حيث كان هناك خلاف داخل فتح ادى لنزول قائمتين.

وحين كان الأحمد رئيساً للجنة التحضيرية للاتحاد العام للطلبة العرب (مقره دمشق)، انتقل إلى للقاهرة، بسب اعتقاله عام ١٩٧٦م، وعندما عقد المؤتمر اعلن عن تأسيس الاتحاد العام للطلبة العرب بعضوية كل منظمات الطلبة العربية واتحاد الطلبة في الأقطارالعربية جميعاً، وكان نائب الاحمد، عبد الواحد العصوني (عراقي)، وكان شائع محسن السكرتير العام (من اليمن الجنوبي)، وكان هناك ممثل عن طلبة مصر لمرة واحدة، وكان في الاتحاد الوطني لطلبة العراق هوشيار زيباري، وعن الاتحاد الوطني لطلبة سوريا فيصل المقداد، بمشاركة الإتحاد الوطني لطلبة المغرب، واتحاد طلبة الجزائر، والاتحاد الوطني لجنوب اليمن، والبحرين وعمان أيضاً.

ومما يدلل أن هناك توتراً حقيقياً آنذاك بين اتحاد طلبة فلسطين والنظام العراقي، هو بيان صادر عنه عام ١٩٧٩ أعربت فيه الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين عن قلقها واستنكارها الشديد لحملات القمع والملاحقة التي يتعرض لها الحزب الشيوعي العراقي على أيدي أجهزة النظام العراقي جاء ذلك في مذكرة موجهة إلى المكتب التنفيذي للاتحاد الوطني لطلبة العراق ونشرتها صحيفة فلسطين الثورة.

استمرت هذه العلاقات الفلسطينية العراقية على حالها، حتى عام ١٩٧٩ عند إعلان العراق الحرب ضد نظام آية الله الخميني في إيران، ووقوف أغلب التنظيمات الفلسطينية بادئ الأمر ضد الموقف العراقي، فأغلقت المخابرات العراقية ما كانت قد فتحته من مكاتب لهذه التنظيمات، وتحديداً مكاتب الجبهتين الشعبية والديمقراطية، فهرب أعضاؤها وكوادرها، عائدين إلى لبنان.

رؤساء فرع العراق ووحدة بغداد في السبعينات:

عزام الاحمد رئيس الفرع ٧١ حتى ٧٢ ، عماد ملحس رئيس الوحدة (كلية صيدلة) ١٩٧١ حتى ١٩٧٢م ومعه عبد الرحمن العجوري سكرتير الاتحاد عضو هيئة إدارية، ثم عاد عزام الأحمد فترة ١٩٧٢ حتى ١٩٧٣م، ثم محمود معروف١٩٧٣ حتى ١٩٧٤م رئيس الوحدة، محمود دقة١٩٧٤ حتى ١٩٧٥ رئيس الفرع ومعه سالم سرية عضو هيئة ادارية، ثم استلم محمود معروف رئاسة الفرع في نفس العام، ١٩٧٥حتى ١٩٧٦م، وبعده سمير درويش ١٩٧٦ وحتى نهاية ١٩٧٧، حيث كان قبلها عضو هيئة إدارية، ثم جاء سالم سرية رئيساً١٩٧٧حتى ١٩٧٨م، وعضو مؤتمر سوق الغرب، ثم عبد علان استلم عام١٩٧٩م.

الطلبة النشطاء في السبعينات:

فقد نشط فترة السبعينات عدد من الطلبة في الساحة العراقية وخاصة بغداد منهم على سبيل المثال لا الحصر فترة ١٩٧٤م حتى ١٩٧٩م، غسان انضوني، و حازم قمصية، وحنا بنورة، وراجي مصلح، من بيت ساحور،فضل عبد الدايم (بعثي، يدرس صيدلة)، لكن لا أحد منهم كان في هيئة ادارية، وكان هناك شخص

من عائلة ناصر من بيرزيت، وآخر من عائلة زقوت ديمقراطية،فيما درس بيتر قمري سنتين وغادر، وكان مروان قاسم كفارنة رئيس وحدة الموصل١٩٧٦م، وأنور دغلس كان في نفس الوحدة عضو هيئة إدارية لكن ليس في نفس العام،سميح سنقرط رئيس وحدة، عصام أحمد عيسى فرع أربيل، ومحمدمهدي كمال، أحمد سعد عضو مجلس مركزي عن اتحاد الطلبة، صابر عارف، نعيم مشعل هيئة إدارية، اكرم الدحلة، هاني الحايك عضوهيئة ادارية(الذي أصبح رئيس بلدية في بيت لحم)،وليد الشوملي (الذي كان طالب كلية رياضيات عام ١٩٧٤م)، عزيز العصا وصل بمنحة لدراسة الفيزياء في بغداد عام ١٩٧٥، عبد علان فيزياء، وكانت رشا عمر، وسميح الزير (جبهة عربية واستشهد في لبنان)، آصف قزموز، كامل دنون،نعيم مشعل (جبهة شعبية حين كان ماهر الطاهرفي الشعبية، وكان مسؤولاً للجنة العلاقات السياسية وإطار المنظمة الطلابية؛ وقد انتقل إلى بغداد عام ١٩٧٤م، حيث أكمل نشاطه في الحركة الطلابية الفلسطينية وأكمل نشاطه مع الجبهة الشعبية؛ حصل على شهادة البكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بغداد عام ١٩٧٨م)، كما كان عوني خريس قيادي بعثي، وهنا يُذكر أن البعثيين وجبهة التحرير العربية كان ينظر لهم من باقي الفصائل بعين الريبة لقربهم من الحزب الحاكم انذاك.

وكان كل هؤلاء الطلبة النشطون، موزعين بين جامعة بغداد، التكنولوجية، والمستنصرية، كلية الزراعة (أبو غريب)، وكانت هناك وحدات اخرى منها، البصرة، السليمانية، الموصل.

***الندوات والفعاليات الطلابية العراق:**

يذكر أنه نُظمت فعالية ليوم الارض وهي الأكبر في العراق بل وفي الأقطار الاخرى، عام ١٩٧٦م، حيث خرجت الجماهير على مسافة ٤ كيلو متر شملت كل المدارس والجامعات والفعاليات الشعبية العراقية، بدأت من السفارة التركية ومقر الاتحاد حتى ساحة الميدان وقد اشرف عليها الاتحاد العام لطلبة فلسطين.

كان العراق انشط الفروع في عهد عزام الاحمد، وحافظ على وحدة حركة فتح وقاد التحرك ضد انشقاق ابو نضال، وكان فرع الاتحاد في العراق هوالأبرز خلال منتصف السبعينات، وكان له علاقة مع اتحاد الطلبة العراقي الذي يقوده الشيوعيون، من نشاطاته خلال رئاسة الاحمد فرع بغداد، القيام بعدد من الندوات بحضور نايف حواتمة، وجورج حبش، وصلاح خلف، وفاروق قدومي، وأبوعمار، وغالباً كانت تتم الندوات في جامعة المستنصرية، وكل سنة كان يقام احتفالان أحدهما بمناسبة استقبال الطلبة الجدد وثانيهما للخريجين، كما كانت تقام رحلات داخل العراق، مرتين في السنة، وكان لاتحاد الطلبة، فرقة فنون شعبية فلسطينية، يشرف على تدريبها التلاوي، الذي كان يقوم أيضاً بمهمة إحضار المنشورات والملصقات الاعلامية من الكويت، التي تقام على اساسها الفعاليات بشكل دوري ،كما اشرف على نشرة جدارية ثقافية في الاتحاد.

وذات مرة استقبل مقر الاتحاد العام لطلبة فلسطين عبد الفتاح اسماعيل زعيم اليمن الديمقراطي ومعه صالح رأفت(عضو اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف، وعضو هيئة تنفيذية في الاتحاد العام لطلبة فلسطين سابقاً)، خلال زيارة رسمية للعراق، وحضرت جماهير غفيرة إلى مقر الاتحاد في الأعظمية، مما أغضب النظام العراقي، تقريباً في ١٩٧٣م، وكانت هناك عدة ندوات لكن أهمهاكانت لأبو جهاد قبل اغتياله بعشرين يوماً في جامعة بغداد قاعة كلية الاداب، رتبها راتب العملة، وتحدث فيها عن دخوله حركة فتح، وحياته حيث خروجه من الاردن بعد أن كان رئيس اللجنة المشتركة. كان أيضاً من أهم المحاضريين في ندوات نظمها الاتحاد العام لطلبة فلسطين، خالد الحسن وهاني الحسن، وناجي علوش ومنير شفيق خاصة في الفترة ما بعد ١٩٧٤م وموضوع النقاط العشر، في مقر الاتحاد، كما حضر غالب هلسا عدة ندوات بعد عام ١٩٧٧م، حين أبعد من مصر إثر ترؤسه ندوة عن المخطط الأميركي في المنطقة العربية.

وكانت هناك نشاطات فرعية في كل كلية، منبثقة عن النشاطات المركزية في الوحدات، وهناك ممثل فلسطيني في سكرتارية الطلبة العرب (التي تشمل كل اتحادات الطلبة) وعادة يكون رئيس فرع بغداد.

ويذكر أنه كانت في كل جامعة لجنة اتحادية تابعة لفلسطين، داخل كل كلية تنسق نشاطاتها، داخل الكليات بالتنسيق مع الاتحاد، كانت مهمتها استقبال الطلبة الجدد وتسهيل عمليات القبول والتسجيل، والاقامة ومتابعة أمور الطلبة الجدد في الكليات والجامعات، وكما أن الحكومة العراقية كانت توفر لكل الوفود القادمة لمؤتمرات الطلبة في العراق تذاكر السفر والاقامة وكل ما يلزم لانجاح المؤتمرات المتعاقبة على أرضها.

والى جانب اغلب المؤتمرات التي كانت تقام في جامعة المستنصرية، كان تستضيف انتخابات الفرع،وفعاليات ذكرى معركة الكرامة، وانطلاقة الثورة الفلسطينية، وغيرها، وكانت كل الفصائل والاتحادات العربية، لبنان، ومصر، والبحرين، تحل ضيوفاً ومن أهم الشخصيات العربية، عبد المجيد الرافعي عضو قيادة قومية لحزب البعث العربي الاشتراكي (كان متحدثاً عن الرئيس العراقي)، ميشيل عفلق الأمين العام لحزب البعث الاشتراكي، وقد حضر أسبوع الطالب، الذي كان يعقد في بغداد من ١ الى ٧ نيسان سنوياً، إضافة لمخيم (القدس لنا) الذي أقيم في بغداد، وكان الرافعي يفتتحه ممثلاً عن الرئيس، وعبد الرحيم أحمد (أمين سر جبهة التحرير العربية ، عضو لجنة تنفيذية)، ومحمد دبدب رئيس الاتحاد الوطني لطلبة العراق.

حادثة ندوة المستنصرية١٩٧٤م:

نظمت ندوة في جامعة المستنصرية في بغداد ألقى فيها الدكتور جورج حبش محاضرة،ويُعتقد كان معه بسام أبو شريف، وكان ذلك في نفس الفترة لتشكيل جبهة الصمود والتصدي التي يتزعمها، عقدت على اثر فكرة مؤتمر جنيف، ١٩٧٤م*٣٦، بعد أكتوبر وكانت هذه الندوة بدعم من صبري البنا (أبو

نضال)، وخلال الندوة حضر عزام الاحمد يقود تيار فتح المناوىء لهم، ومعه من أبناء فتح، عبد الله حجاوي، واسماعيل التلاوي وغيرهم، وجلسوا في الصفوف الخلفية لمدرج القاعة التي تطل على كل مسرح الجامعة، تمهيداً لحدث ما وخلال الندوة هاجم المتحدثون حركة فتح التي وافقت على طرح جنيف، فنهض الأحمد مقاطعاً للندوة ليهتف ضدهم ،وضد انشقاق أبو نضال، وعندها هتف الجميع مع الأحمد، مما اثار فوضى في القاعة، وأدى ذلك لفض الندوة، واعتقل بعدها الاحمد، ومعه المجموعة التي ذكرتها سابقاً.

*فرع العراق، ثمانينات القرن الماضي:

ظلت العلاقة العراقية - السورية في فترة السبعينات وخاصة الثمانينات، هي المتحكمة في مصير ونوع العلاقة مع المنظمات الفلسطينية، بسبب الاختلاف بين جناحي البعث في هذين البلدين. وهذا انعكس سلباً على نشاط الاتحاد العام لطلبة فلسطين.

رؤساء فرع العراق ووحدة بغداد في الثمانينات:

عبد علان ١٩٧٩ حتى ١٩٨٠م، توفيق بليبلة، ثم عمر ابو زيد رئيس الفرع، قاسم الزعانين ٨٠ حتى ٨١، محمد عبد الفتاح ٨٢ حتى ٨٣، رفيق محمد توفيق، ٨٤ حتى ٨٥، نبيل الظاهر ٨٥ حتى ٨٦، محمود رزق.

ومن الذين كانوا مع قاسم زعانين،(بعثي) حين كان رئيس الفرع، (وأيضاً كان في رئاسة وحدة بغداد قبل ذلك)، فاتنة القدسي، عبد الرحمن محمود، أسامة العكة، خالد سردي (جبهة التحرير العربية)، وفي فترة ماجد الكفارنة ١٩٨٥حتى ١٩٨٧م،كان معه زياد محمد صادق، غازي لطفي، محمود أبو رزق، جمال ياسين، جهاد محمود العملة رئيس وحدة الموصل، وكانت ابتسام الزعانين عضو هيئة ادارية، محمد سليمان وحدة بغداد، أنور دغلس (مسؤول الجبهة في الموصل)، فادي عايشة عضو هيئة ادارية، راتب العملة (الذي استلم العمل الطلابي الحزبي في بغداد من ١٩٧٩ حتى ١٩٩٦م)، وكان حسن النويهي مسؤول الجبهة في الموصل، محمود الصيفي، خالد الزير (جبهة التحرير العربية)، هشام عودة، ويذكر أنه كان هناك وحدة السليمانية واغلقت بعد ١٩٨٤م، بسبب عدم وجود عدد كاف من الطلاب يستطيعون تكوين وحدة فأُغلقت.

الهيئة التنفيذية لاتحاد الطلبة في الثمانينات:

في تلك الفترة ترأس ناصر القدوة الاتحاد العام لطلبة فلسطين ١٩٨٤م، ومعه أعضاء الهيئة التنفيذية: فريز مهداوي (باكستان) عضو هيئة تنفيذية، عدنان أبو الهيجاء، لؤي عيسى(لبنان)، عوض حجازي

(المانيا)، وإبراهيم المصري، نور حجاوي (إيطاليا)، عابد الزريعي (جبهة شعبية)، وحسين عجاوي (جبهة الديمقراطية، موسكو)، واصل أبو يوسف (سوريا)، حسن عصفور (حزب الشيوعي)، ونظمي الحزوري (فتح ، عن لبنان).

وفي اجتماع المجلس الاداري الدوري في تونس، انتخب ابراهيم أسد رئيساً للاتحاد ١٩٨٧ -١٩٩٠م، ونائبه فريز مهداوي ومسؤول العلاقات الخارجية، عدنان أبو الهيجاء، لؤي عيسى، عوض حجازي، وإبراهيم المصري، نور حجاوي، عابد الزريعي، وحسين عجاوي، واصل أبو يوسف، فيما أصبح ماجد الكفارنة عضو هيئة تنفيذية بعد أن قدم حسن عصفور استقالته.

وكان في المجلس الإداري عن ساحة العراق عمر أبو زيد من ١٩٨٤ حتى مؤتمر بغداد، وقبله هاشم اسحاق ١٩٨٤م وجاء مكانه ماجد الكفارنة، وانتخب غازي لطفي مجلس اداري مكان أبو زيد عن ساحة العراق.

***فرع العراق، تسعينات القرن الماضي:**

لقد استمر الدعم المادي والإعلامي العراقي الرسمي للفلسطينيين المقيمين في العراق طيلة العقود التالية، حتى في أثناء الحصار الاقتصادي الذي استمر ١٣ سنة منذ عام ١٩٩٠م، وقد اكتسبت التجربة الطلابية في الساحة العراقية أهمية بارزة بسبب العديد من المتغيرات التي أثرت على طبيعة الشريحة الطلابية المتواجدة هناك، منها قدوم جيل دفعة الانتفاضة الأولى (التي اندلعت عام ١٩٨٧) الذي عمل على مواصلة تعليمه الاكاديمي، ومتابعة تحصيله العلمي خارج الوطن، وبدأت العراق تقدم تسهيلات من جديد وزيادة عدد المنح وهذا فتح المجال لتدفق عدد كبير من طلبة الأرض المحتلة سواء المنح المقدمة من بعض الاحزاب مثل جبهة التحرير العربية أو المقدمة من م.ت.فحتى العدد فاق المئات، وبالتالي هذا أعطى قوة وترجمة للتجربة النضالية التي اكتسبها جيل الانتفاضة تجسدت من خلال نشاطات عمل نقابي طلابي في الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وبالتالي كانت تجربة مختلفة.

بعد أحداث كردستان العراق والخروج عن سيطرة الحكومة غادرت القوات العراقية منطقة كردستان في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١م، واغلق فرع الاتحاد في كردستان، بعد أن انتقل معظم طلبة فلسطين منه إلى جامعة الموصل وتوزعوا على بقية الجامعات قادمين من وحدة أربيل ولم يعد العدد كاف لتشكيل وحدة.

وفي انتخابات الفرع عام ١٩٩٢م، فازت بها حركة فتح في جامعة بغداد في الجادرية، وهذه كانت مفاجأة للجميع بعد ان كانت الحصص توزع بالمحاصصة وتكون فتح بنسبة الثلث، فحصدت لأول مرة في هذه الانتخابات معظم المقاعد الانتخابية وكانت قوة لتقدم وصعود العمل الطلابي لتنظيم حركة فتح، وفاز

فيها إياد الشامي برئاسة فرع العراق.

إضافة إلى تجربة العمل الطلابي التي تركها الطلبة القادمون من الكويت بعد الغزو العراقي، وإنتقال معظم الطلبة الذين كانوا يدرسون في الجامعات الكويتية إلى العراق أثرى ذلك التجربة الطلابية الثقافية والفكرية في اطار الأحزاب أو في اطار حركة فتح، لما يمتلكوه من زخم، وبالتالي تدفق جيل كامل اضافة للطلبة المقيمين في العراق ومن الأردن، وحصيلة كل هذه المتغيرات أدت لوجود حراك لتجربة طلابية فريدة تقوم على المزج بين مختلف التجارب الطلابية من ثلاث ساحات في مكان واحد، مما ولّد نوعاً من الحماسة والاندفاع والتقدم في المسار الطلابي والتنظيمي، وأوجد روحاً تنافسية في العمل الطلابي في الساحة العراقية بكل تجارب الساحات التي التقت هنا، وما بين الفصائل المختلفة وقد تزايدت قوة حركة فتح من جديد كفصيل أساسي ومؤثر بفعل كل هذه التدفقات، وطبعاً هذا البروز والتقدم لفتح لم يرُق لبعض الأحزاب،حيث بدأت حركة فتح تنافس فيما يسمى باللجان الاتحادية أو على مستوى الكليات والجامعات في بغداد، وحصدت تقدماً من خلال الانتخابات في الاتحاد، خاصة ما بين الفترة ١٩٩٢و١٩٩٣م، وفي نهاية المطاف لم يكن متقبلاً هذا التقدم والصعود لفتح من الأحزاب الموجودة، خصوصاً جبهة التحرير العربية المقربة من النظام العراقي وبدأت تحصل التوترات في الساحة الطلابية وأحياناً مشاجرات وصدامات كبيرة بين طلبة فلسطين من حركة فتح وجبهة التحرير العربية وتم الاعتداء على ممثلي فتح في اتحاد طلبة وحدة بغداد، ونتيجة لذلك صدر قرار من قبل الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين بتجميد عمل فرع العراق، نتيجة لحالة المشاحنات التي طفت والتي اقترنت بمرحلة توقيع اتفاق أوسلو مما شكل أيضاً خلافاً سياسياً بين م.ت.ف والنظام العراقي، وخلافاً بين الفصائل على البرنامج السياسي في اطار المعارضة لتوجه أوسلو، وبالتالي أصبح الخلاف مقترناً ببعده السياسي وفي تصاعد الدور الطلابي والنقابي لحركة فتح في الساحة العراقية والذي لم يكون مقبولاً من عدة جهات، وبذلك حدث نوع من الشلل في العمل الطلابي والنقابي لسنوات عديدة ما بعد مرحلة أدى لفتور العلاقات الرسمية بين الجانبين بعد توقيع إتفاق أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل.

رؤساء فرع العراق ووحدة بغداد بعد التسعينات:

بسام سعود، فؤاد الجشي ترأس الوحدة تقريباً من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٠، (وتشكلت الوحدة من غالبية الطلبة المقيمين في العراق)، هشام عودة رئيس فرع، نبيل تايه رئيس وحدة ، غازي لطفي رئيس وحدة وفرع، اياد الشامي رئيس فرع ١٩٩٢، عاصم سمارة عضو هيئة ادارية، برهم السيد، عماد الجراح وحدة، زياد عبد السلام وحدة، اقبال بداح وحدة، رائد ابو عابد وحدة، خالد بدوي وحدة ٢٠٠٢م.

ومن الطلبة النشيطين من أوائل التسعينات، دواس دواس (حاصل على بكالوريوس في العلوم السياسية، جامعة بغداد، ١٩٩٥م) الذي أصبح أمين سر الاتحاد العام لطلبة فلسطين في وحدة بغداد ممثلاً عن

حركة فتح، (ولاحقاً أمين سر جمعية خريجي الجامعات والمعاهد العراقية في فلسطين)، وكان معه أعضاء آخرون، منهم يوسف التكروري، كما نشط أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات عبد الغني سلامة (خريج كلية الزراعة - جامعة بغداد ١٩٨٩)، وكان في نفس الفترة، عماد الأصفر الذي كان منفياً إلى العراق (أصبح عضو مجلس إداري فيما بعد، درس هندسة كيماوية، أستاذ الاعلام وكتب مقالات عديدة عن العراق)، مروان بركات، سهيل حرز الله، خضر دراغمه، أحمد القنة، جهاد جرايسة (بيت ساحور)، لما الشنطي (قلقيلية) وغيرهم، في فترات متفاوتة.

***المؤتمر الوطني العاشر للاتحاد العام لطلبة فلسطين في بغداد:**

بعد أن تم اجراء الانتخابات في كافة فروع الاتحاد، وكان آخرها فرع الجزائر، تم التشاور مع الاخوة الجزائريين حول إمكانية عقد المؤتمر في الجزائر، إلا أن الظروف العامة في تلك الفترة كانت صعبة أمنياً(ومنها العشرية السوداء، وصراع الحزب الحاكم جبهة التحرير مع جبهة الإنقاذ الإسلامية، والإسلاميين)، وهنا بادر ماجد الكفارنة بعرض خطة أن يتم نقل المؤتمر من الجزائر إلى العراق، وبعد التشاور مع الاخوة في الهيئة التنفيذية وافقت على المقترح، وعليه تم الاتصال من قبل الاخوة مهداوي والكفارنة وتشكيل وفد من قبلهم، لزيارة العراق، وتنفيذ الاتفاق مع رئيس الاتحاد الوطني أنور مولود ذبيان، وعبد الغفور مسؤول العلاقات الخارجية، وسيف الدين محمود رئيس الاتحاد العام للشباب العراقي، وبعد مشاورات رحب الرئيس صدام حسين بعقد المؤتمر بل وتوفير جميع اللوجستيات*٣٧.

انعقد في بغداد قبل حرب الخليج تحت إسم دورة الشهيد القائد خليل الوزير (أبو جهاد) بين ٣-١٩٩٠/٥/٨م، في ظل تواصل الانتفاضة، ومبادرة السلام الفلسطينية، ولأول مرة يتم إضافة عدد من كوادر الأرض المحتلة إلى عضوية المؤتمر من المبعدين، وكان الخلاف على أشده حول الوضع التنظيمي على عكس المؤتمر التاسع الذي شهد الوضع السياسي فيه الخلاف الأشد، فكان التيار التجديدي يطالب بالتغيير في الأطر، والدستور، وعضوية المجلس الإداري،أما التيار المحافظ يطالب بالتمسك بالأشكال القديمة، وتطور لصراع حاد داخل المؤتمر وفي الكواليس مع الاتجاه الانقسامي في الجبهة الديمقراطية، وتم تعريته وهزيمته سياسياً ونقابياً داخل المؤتمر بوقوف الأغلبية الساحقة من مندوبي حركة فتح إلى جانب الجبهة الديمقراطية، ضد المنشقين منهم، رغم كل التدخلات التي جرت من قبل أبو عمار الذي حضر إلى بغداد لكي يكون بالقرب من أعمال المؤتمر، وأجرى فيها المؤتمر تعديلات على الدستور.

وفي المؤتمر أنتخب سمير صبيحات رئيساً للاتحاد العام لطلبة فلسطين ومعه في الهيئة الإدارية: إبراهيم خريشة، حسام خضر، حمدي الريفي (الجزائر)، موسى عليان (سوريا)، مروان جيلاني، احمد الديك(الأرض المحتلة) جميعهم عن فتح، ناصر أبو عزيز (شعبية)، وماجد الكفارنة (الجبهة العربية، العراق) ورائد أبو السعود (الحزب الشيوعي)، هشام قاسم (جبهة التحرير الفلسطينية).

* حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠م-١٩٩١م:

نشبت على أثر غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠، فكان موقف منظمة التحرير بالإجماع ضد الحرب على العراق، بالرغم من وجود اختلافات بين قيادات المنظمة في تأييد ورفض الغزو العراقي للكويت ونتائجه، فكانت منظمة التحرير من المصوتين بالتحفظ على المشاركة في أي حرب ضد العراق في مؤتمر القمة العربية الطارئة الذي عقد بالقاهرة في عام ١٩٩٠م، وكانت كتلة الدول الاشتراكية تتبنى وتدعم اتحاد الطلاب العالمي ومن ضمنه الاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي كان عضواً فيه، فكانت الكتلة الاشتراكية، تقدم مساعدات بلا حدود لنشاطات الاتحادات في العالم الثالث، ولكن بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ١٩٩١م، أصبحت الحركة الطلابية العالمية تعاني من التراجع مما اثر على دورها بما فيه دعم الحركة الطلابية الفلسطينية.

تحسنت العلاقات الرسمية الفلسطينية-العراقية بسبب دعم معظم قادة م.ت.ف للموقف العراقي، وعقدت المهرجانات الشعبية لدعم موقف العراق وصدرت عشرات البيانات التي تهدد الإمبريالية الأميركية إن أقدمت على ضرب العراق، وقد تجلت هذه الدعاية الإعلامية في شهر نوفمبر / تشرين ثاني ١٩٩٠م، فيما سُمي «مؤتمر القوى الشعبية والوطنية لدعم صمود العراق» الذي انعقد في عمّان، لكن في ذات الوقت، ظهر تيار من قيادات الفصائل الفلسطينية، رفض التدخل العراقي بالكويت وأعلن ذلك بصراحة، وما أدى به الموقف المؤيد من نتائج وخيمة على المنظمة وأبناء الشعب الفلسطيني المقيمين في الكويت، واكتشفت القيادة الخطأ الفادح الذي ارتكبته، فبدأت تحجم علاقاتها مع صدام حسين، فعاد التوتر من جديد في العلاقة، واعتقدت قيادة المنظمة أن هذا التحجيم كفيل بإعادة العلاقات التي انقطعت نهائياً مع الكويت ودول الخليج، حتى أن زار وفد من منظمة التحرير الفلسطينية عام ٢٠٠١م، الكويت لاعادة العلاقات معها وترأس الوفد الراحل الكبير فيصل الحسيني.

وخلال حكم صدام حسين، تلقى الفلسطينيون المعاملة العادلة بوجه عام، ومُنحوا تصاريح الإقامة، وحق الوصول الكامل إلى الخدمات الحكومية بما في ذلك الرعاية الصحية والتعليم، وسمح لهم أيضًا بالعمل، حيث امر الرئيس صدام، في مجال التعليم بتخصيص مكرمة خاصة للطلبة الفلسطينيين الراغبين في الدراسة في الجامعات العراقية على النفقة الخاصة، وذلك خلال ترؤس صدام حسين لجلسة مجلس الوزراء كما امر بشمول اباء وامهات شهداء الانتفاضة الثانية بالدراسة على نفقة الدولة في المدارس والمعاهد والجامعات العراقية أسوة بأبناء واخوة هؤلاء الشهداء الذين سبق لهم أن شملوا بهذه المكرمة، ولم يتوان العراق عن تقديم المنح الدراسية لأبناء الشعب الفلسطيني سواء من الأراضي الفلسطينية المحتلة أو من فلسطيني الشتات ايماناً وادراكاً منه بأن واجبه الوطني والعروبي والقومي، يحتم عليه ذلك بالرغم من الظروف الاقتصادية المعقدة التي كان يمر بها القطر العراقي جراء الحصار الدولي الخانق المفروض عليه منذ عام ١٩٩١م، وحتى احتلاله ٢٠٠٣.

***وضع الطلبة الفلسطينيين بعد الحرب على العراق ٢٠٠٣م:**

ظل العراق الشقيق يستقبل الطلبة الفلسطينيين في جامعاته ومعاهده كأبنائه، بتعليم مجاني، وتسهيلات عديدة، حسدوا عليها حتى من العراقيين أنفسهم، لكن الفلسطينيين أينما كانوا تلاحقهم المعاناة، فبالأمس في حرب الخليج الثانية عاشوا مأساة تهجير جديدة من الكويت، وبعدها في الحرب الأنجلو-أميركية على العراق، اضطر الطلبة الفلسطينيون للمغادرة إلى حيث وطنهم المحاصر أو إلى شتات آخر. ومن مأساة طلابنا القادمين من العراق، كان عدد الطلبة الفلسطينيين الذين كانوا يدرسون في العراق، أكثر من مائة طالب من قطاع غزة، وأكثر منهم من الضفة، كانوا يدرسون في تخصصات مختلفة، وكانت معاملة الحكومة العراقية حسنة جداً، فقد كانوا يتلقون تعليماً مجانياً كما العراقيين ولا فرق في المعاملة، بل كان لنا تسهيلات، ولكن وضع الفلسطينيين حتى اندلاع الحرب المجرمة على العراق أصبح خطيراً جداً، كما كل الشعب العراقي إذ أن الآلة العسكرية لا تفرق بين الأهداف المدنية والعسكرية، حيث استشهد عدد من الطلبة العراقيين وكذلك من الطلبة العرب(سوريين-أردنيين) على حدود البلدين الشقيقين، وكان حجم الدمار الذي لحق بالجامعات العراقية أثناء الحرب كبيراً، فالعديد من الجامعات قد تعرضت للقصف الجوي والمدفعي المباشر، وقد قصفت الجامعات عن قصد من الأميركيين وكأن فيها سلاحاً نووياً أو كيماوياً، كما نهبت بشكل متعمد المعدات والأجهزة والحواسيب منها، وأحرقت محتويات المكتبات والمختبرات، واستهداف الجامعات كان الهدف منه تدمير العراق بإمكانياته وحضارته الضاربة في الجذور عبر القرون، والتدمير لم يطل المباني فقط، بل طال الأجهزة والبرامج والملفات الجامعية وكل شيء، وأثر ذلك على الفلسطينيين كثيراً حيث ضاعت كل الأوراق التي تثبت أنهم قد درسوا في جامعات العراق، فالملفات أحرقت، وليس لديهم إثباتات، والجامعات العراقية سابقاً لم تكن تعطيهم إفادات بالمواد والساعات التي درسوها، فقط كان لديهم أوراق أنهم ملتحقون ومقيدون بالجامعات، لكن دون تفاصيل كما هو في الجامعات الفلسطينية، التي رحبت بالطلبة العائدين من العراق، والمسؤولين في وزارة التربية والتعليم العالي قدموا لهم كل ما لديهم من أوراق وإثباتات تفيد دراستهم في الجامعات العراقية منها القبولات.

وحتى تاريخ الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣، بدا للبعض أن الفلسطينيين كانوا محسوبين على نظام حزب البعث، فتعرض الفلسطينيون إلى هجمة منظمة من قبل ميليشيات مسلحة، أدت إلى هجرة ثانية قلصت أعدادهم من قرابة ٣٥,٠٠٠ إلى عدة الآف يتركزون في مناطق معينة من العاصمة بغداد كحي البلديات، ومدن أخرى في البلاد كالموصل، حيث غادر بعضهم إلى دول الجوار، حيث قبلت البرازيل، والولايات المتحدة بضعة الآف منهم أيضاً بعد معاناة لسنوات في مخيم الوليد بالقرب من الحدود العراقية مع سوريا والأردن، وهذا كله قلص جداً وجود الطلبة الفلسطينيين ودور الاتحاد العام للطلبة هناك.

مراجع:

*جواد الحمد وآخرون، مستقبل اللاجئين الفلسطينيين (فلسطينيو الشتات في العراق)، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، ٢٠٠٠م، ص ٢٢٩.

*حسام أبو النصر، استقالة الشاذلي بن جديد ١٩٩٢ وتحول الحياة السياسية في الجزائر، الحوار المتمدن، العدد ٥١٤٤، ٢٠١٦ / ٤ / ٢٦ .

*سليم الحشاش، دور العراق تجاه القضية الفلسطينية، دراسة لنيل درجة الماجستير، جامعة الأقصى،غزة، ٢٠٢٠، ص٧٧

*صحيفة الطليعة، بغداد، ٣١/أيار ١٩٧٩م.

مقابلات أجراها المؤرخ حسام أبو النصر:

*مقابلة راتب العملة، ٢٠٢٣/٥/٧

*مقابلة مع عزيز العصا،٢٠٢٣/٥/٧

*مقابلة مع عزام الأحمد،٢٠٢٣/٥/٧

*مقابلة مع عبد العزيز عرار ،٢٠٢٣/٥/٧

*مقابلة إسماعيل التلاوي،٢٠٢٣/٥/٩

*مقابلة محمود الصيفي،٢٠٢٣/٥/٧

*مقابلة مع ماجد الكفارنة،٢٠٢٣/٥/٩

*مقابلة مع وليد الشوملي،٢٠٢٣/٥/٩

*مقابلة مع سالم سرية،٢٠٢٣/٥/٩

*مقابلة مع دواس دواس،٢٠٢٣/٥/٩

جهاد أحمد صالح، الصحافة الفلسطينية قبل سنة ١٩٦٧م

صلاح عبد الرؤوف*

الصحافة مرآة للمجتمع، تسرد سطورها أحداثه، أما بين السطور، فتبرز معالمه، السياسية، والاجتماعية، والثقافية، حتى في الدول الشمولية، وما تعانيه من وصاية الأنظمة على ما يُكتب في الصحافة. وما كان للعدو أن يُحرِّك كتائبه، لمواجهة أقلام حرة، خوفًا من أن تحمل للأمة قسمات، أراد العدو أن يخفيها عنه، فتستكين الشعوب، وتضعف.

إن قراءة تاريخ شعب تبدأ من مطالعة صحفه، الصادرة في الفترة المعنية؛ ما يُوفِّر فرصة رصد مشكلات المجتمع، وتوجهاته، وممارسات الحكم، الاقتصادية، والسياسية، وتأثيراتها على ثقافة الشعب، وحركته اليومية. وكما يقول بول جونسون: «مارس الصحافة، وانتقل إلى التأريخ ، فهدف الصحافة والتاريخ واحد، ينقلان للقارئ المعرفة، والمعلومات، ومحاولة شرح الأحداث، إذ لا يمكن القول أين ينتهي عمل المؤرِّخ، وأين يبدأ عمل الصحافي».

اهتم أنيس صايغ بتوفير بعض من صحافة فلسطين العربية، وضمَّتها مكتبة مركز الأبحاث، لكنها سُرقت على يد قوات الاحتلال الصهيوني عند اجتياح بيروت (أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢)، وبالرغم من إعادتها، أواخر ١٩٨٣، فإن الإهمال قد التهم ما بقي منها، فغابت عن الباحثين، إلا من خلال المصادر الصهيونية![٣٨]

في مقدمته للكتاب، الذي بين أيدينا، قسَّم جهاد صالح نشأة، وتطور الصحافة الفلسطينية، إلى مرحلتيْن، فصلت بينهما حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧، وقد خصَّص الكتاب لدراسة المرحلة الأولى، ما بين النكبة (١٩٤٨)، والهزيمة (١٩٦٧)، وقد مهَّد لدراسته، بلمحة عن الصحافة الفلسطينية، منذ نشأتها، إلى النكبة (١٩٤٨)، وذلك فيما يقارب المئتي صفحة.

---

* باحث فلسطيني.

أرَّخ المؤلف لنشأة الصحافة في فلسطين إلى العام ١٨٧٦؛ حيث ظهرت جريدتا «القدس الشريف»، و«الغزال»، وهما جريدتان رسميتان خُصصتا لنشر «الفرامانات»، والقوانين، والأنظمة الرسمية، غير أن جريدة «الغزال» كانت تصدر باللغة العربية، فحسب، في حين صدرت «القدس الشريف» باللغتين، العربية والتركية. وتوالى صدور الصحف، بعد ربع قرن من صدور «القدس الشريف»، و«الغزال»، وشهدت طفرة، بعد إعلان الدستور (١٩٠٨)، وانصب اهتمامها، في تلك الفترة، «على خدمة الحاجات المحلية في البلاد، وأدت إلى تقوية الروح القومية، والإحساس بالوعي».

تطورت الصحافة الفلسطينية، في عهد الانتداب، تطورًا ملحوظاً، وقد ساهم المد الثوري، والتطور التقني لمجال الطباعة، في توسيع قاعدة انتشارها، منذ مطلع ثلاثينات القرن العشرين؛ ما دفع سلطات الانتداب لفرض مزيد من القيود على الصحافة. ومع ارتفاع نبرة الصحافة ضد الانتداب البريطاني، وممارسات العصابات الصهيونية، اتخذت سلطات الانتداب إجراءات قمعية، ضد بعض الصحف، وقد ساندت «الصحافة الفلسطينية النضال الوطني، خلال فترة الانتداب البريطاني»، كما عقدت مؤتمرًا لها، في ٢٧ أيار / مايو ١٩٣٧، «قررت فيه الإضراب، مبدئيًا، والتوقُّف عن الصدور، مدة ثلاثة أيام»، في سياق أطول إضراب سياسي في تاريخ العالم، الذي استمر نحو ستة أشهر متصلة (نيسان / أبريل – تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٦). وقد تكرَّر اتجاه الصحافة العربية الفلسطينية للاحتجاب، أكثر من مرة، خلال مراحل النضال ضد الانتداب، وربيبه المشروع الصهيوني.

أورد صالح قائمة تضمنت أسماء ١٧٦ صحيفة، هي الصحف التي صدرت في عهد الانتداب البريطاني (١٩١٩ – ١٩٤٨)، وقد تصدَّرت يافا القائمة، من حيث عدد الصحف التي صدرت فيها، بينما لم تصدر في قطاع غزة، خلال تلك الفترة، سوى خمس صحف. وأشار المؤلف إلى مواجهة الصهاينة للنشاط الإعلامي العربي، في فلسطين، من خلال إصدارهم ثلاث صحف عربية: اتحاد العمال (١٩٢٥)؛ العامل (١٩٣١)؛ و حقيقة الأمر (١٩٣٧). كذلك ذكر الكاتب أسماء أشهر الكتاب، في تلك الفترة. وإن نقص الفصل أن يتحدث عن المهنيين، أصحاب الدور الرئيسي في تأسيس عدد من الصحف، خلال تلك الفترة، أمثال عادل جبر.

تناول الفصل الثاني الصحافة الفلسطينية، منذ النكبة وحتى هزيمة ١٩٦٧، فذكر الصحف الفلسطينية، التي صدرت في (الضفة الغربية)، التي أضحت تابعة للأردن، بعد النكبة، مشيرًا للتحوُّل الذي شهدته توجهات بعض الصحف، مثل صحيفة «فلسطين»، حيث تبنَّت رؤية الملك عبد الله بن الحسين، باندماج أهالي الضفة في الأردن، وزيَّنت الحصول على الجنسية الأردنية. أما قطاع غزة، فقد شهد عددًا محدودًا من الصحف، نتيجة الرقابة العسكرية، ولقوة منافسة الصحافة المصرية، في القطاع. ثم ذكر الكاتب الصحف الفلسطينية، التي صدرت في الأراضي المحتلة.

***

تحت عنوان «الفكر المقاوم في الصحافة الفلسطينية قبل العام ١٩٦٧م»، جاء الجزء الثاني، موزعًا على ثلاثة فصول، اختصَّ أولها بصحافة حركة «فتح»، وذكر صالح أن الحركة أشرفت على تحرير جريدة «فلسطيننا-نداء الحياة»، منذ صدورها (تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٩)، واستمرت حتى أواخر ١٩٦٤، وكان خليل الوزير هو رئيس التحرير السري للصحيفة، وكانت شبه علنية؛ حيث تُوزَّع، على الفلسطينيين، سرًا، في القطاع، والضفة، ومصر، والأردن، وسوريا، والعراق؛ بينما يتم توزيعها، علنًا، في لبنان، ودول الخليج، والجزائر. وقد كانت المجلة «أكثر من كونها نافذة للخُطب الحماسية، والتحليلات البسيطة، فقد أرادها محرروها الشبان، وسيلة، وقناة للاتصال، والتنظيم، بين فلسطينيي الشتات، وأرادوا، عمدًا، العمل سرًا، لأنهم كانوا يسيرون على أرض سياسية حساسة». ومن آثارها، أن «أخذت الطلائع الفلسطينية الوطنية، والمنظمات الفلسطينية الوطنية، تتصل بحركة (فتح)، من خلال اتصالها البريدي بالمجلة، الأمر الذي زاد من عدد انضمام الطلائع إلى الحركة». وقد تعرَّضت المجلة للملاحقات الأمنية، والتضييقات، من قِبل حكومة لبنان، وكانت تصدر بصفة شهرية.

لخَّص المؤلف أهم معالم شهرية «فلسطيننا» الفكرية في إبراز الكيان الفلسطيني، والشخصية الفلسطينية؛ والتأكيد على أن الحرب التقليدية ليست في صالح العرب، ولن تحسم قضية تحرير فلسطين؛ وأن تحرير كامل تراب فلسطين هو الهدف، الذي من أجله سيظل الشعب الفلسطيني يناضل، وخائن من يقول عكس ذلك؛ وضرورة العمل الثوري الموحَّد؛ كما اهتمت بقضية اللاجئين الفلسطينيين؛ إبراز الجوانب الإيجابية في بنية المجتمع الفلسطيني، وقدرته على الاستمرار في النضال؛ الإجابة على سؤال من هو العدو؟ وتمييز جبهة الأصدقاء.

بعد «فلسطيننا»، جاء ذِكر «العاصفة»، التي تأسست لتحل محل الأولى، في ١٥ أيار / مايو ١٩٦٥، وقد صدرت لها ثمانية أعداد، حتى تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٧، وقد اهتمت بالتحريض من أجل الثورة، ودعت الشعب الفلسطيني للالتحاق بها، كما اهتمت بنشر أخبار المقاومة المسلحة، وعملياتها ضد العدو الصهيوني. وأشار المؤلف للمنطلقات الثلاثة الرئيسة، التي ركَّزت عليها المجلة: أولها الموقف السلبي من «منظمة التحرير الفلسطينية»، بقيادة أحمد الشقيري، ووصفتها بأنها إفراز عربي في الساحة الفلسطينية؛ كما اجتهدت المجلة لتثبيت رؤية «فتح» للوحدة الوطنية الفلسطينية؛ وتحذير القوى في الدول العربية، وخاصة في الأردن، ولبنان، حيث تعمد أجهزة مخابراتها، إلى ممارسة أعمال قمع، وإرهاب، للتنكيل بمناضلي الثورة الفلسطينية.

جاء الفصل الثاني، متحدثًا عن صحافة «القوميين العرب»، وأولها «نشرة الثأر»، الصادرة عن «هيئة

مقاومة الصلح مع إسرائيل»، نواة «حركة القوميين العرب»، في الفترة من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٥٢، حتى أواسط العام ١٩٥٨؛ نقل المؤلف من دراسة عصام سخنيني: أن «موضوعاتها كثيرة، بتكاثر أبعاد القضية التي تصدَّت لها، وتشابكها». وكانت، أحيانًا، تعالج القضايا، فكريًا، فتطرح المفاهيم، وأحيانًا أخرى تلاحق تطوراتها السياسية، وقد عمدت، في القضية الفلسطينية ؟إلى كشف الستار عن عدة مفاهيم: «فهم النكبة؛ وتحديد العدو؛ وتصوُّر الهدف، والطريق»، وكذلك اهتمت بعرض «مهام الفلسطينيين في العمل»، حيث أكدت على دور»النازحين العرب» في الصراع مع العدو، وأنهم «يستطيعون أن يصبحوا قوة تفرض إرادتها، وتُساهم في رسم مستقبل شعبنا»، مع الإشارة لضرورة تنظيمهم، لتحقيق هذا الهدف، ف»من العسير عليهم الدخول في المعركة، والخروج منها منتصرين، فعلاً، ما لم ينخرطوا في تنظيم جماعي منسَّق، يرسم لهم طريق العمل الجدي، المثمر». كما أشارت «الثأر» إلى أن «عودة النازحين» تعني «عودة السيادة العربية على أرض فلسطين، سلطة مطلقة، ومسيطرة». لقد كان لـ»الثأر» نصيب من إسمها، فقد رفضت أي تسوية غير عادلة للقضية الفلسطينية، لذا، فقد رفضت أفكارًا مثل: «العودة الجزئية؛ التعويض؛ المفاوضات والتسوية؛ الإسكان». كما اهتمت النشرة بقضية «الوحدة العربية».

عرض صالح لصحيفة «الرأي» الأسبوعية الأردنية، التي بدأت في الصدور، في كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٢، بتصريح باسم جورج حبش، واستمرت في الصدور، في الأردن، حتى ألغت السلطات الأردنية تصريحها؛ نتيجة تصديها المزعج للسلطات مثل انتقادها لزيارة «تمبلر». ثم انتقل حبش إلى سوريا، وهناك، استمرت «الرأي» في الصدور، ولجأت الحركة لتهريب أعدادها إلى الأردن.

في لبنان، أسس «القوميون العرب»، نشرة «فلسطين» ملحق بصحيفة «المحرر»، بدورية نصف شهرية، استمرت في الصدور، بين الفترة ١٩٦٤/١١/١٥ إلى ١٩٦٧/٧/٦، وقد كانت نشرة نخبوية، اهتمت بالمعالجة الفكرية لقضايا الساحة العربية، والفلسطينية؛ وتصدَّت لـ»كشف أهداف الصهيونية العالمية»، ووصفتها بأنها حركة قومية عنصرية؛ لا أخلاقية، هدَّامة؛ وأنها تهديد لليهود أنفسهم، وأكدت على أن إسرائيل دولة توسعية، لا تقف حدود أطماعها عند فلسطين. واهتمت «فلسطين» بموضوعات، مثل قضية الأرض الفلسطينية، ونظام الحكم العسكري، وقدرات العدو العسكرية، ووحدة العمل الفلسطيني. وقد كان للصحيفة آراء مخالفة لرأي حركة «فتح»، في بعض قضايا منها «العمل الفدائي الفلسطيني، ودوره في معركة التحرير».

حمل الفصل الثالث عنوان «صحافة منظمة التحرير الفلسطينية قبل العام ١٩٦٧»، وإن تناول في الفصل مجلات، وصحف غير تابعة للمنظمة، أشار المؤلف في هذا الفصل لصحيفة «أخبار فلسطين»، الصادرة في غزة، والتي نشأت في الأصل، بمساندة مؤسسة «أخبار اليوم « المصرية، واستمرت في

الصدور بعد توجيه الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، بدعمها، ماليًا، وبعد مفاوضة قيادة «منظمة التحرير الفلسطينية»، أصبحت الجريدة ناطقة باسم المنظمة، في قطاع غزة، وتسلم زهير الريس رئاسة تحريرها، وبدأت بهذا التوجُّه الجديد، من عددها الصادر في ٤ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٥؛ حيث أصبحت ناطقة بلسان المنظمة، حتى في خلافاتها مع الفصائل الأخرى.

كذلك عرض صالح، في هذا الفصل، لمجلة «فلسطين»، وقد بدأت في الصدور، في ١٥ شباط / فبراير ١٩٦١، عن مكتب «الهيئة العربية العليا لفلسطين» لدى الأمم المتحدة، في نيويورك، كنشرة دورية سياسية، ناطقة باسم الهيئة، تحت إشراف مكتب الإعلام، والصحافة، والنشر، في دائرتها السياسية، ومقره بيروت، واستمرت المجلة في الصدور، حتى عام ١٩٨٢. ثم تناول الكاتب مجلة «جبل الزيتون»، التي صدرت، في القاهرة، عن «الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين» (تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٥)، وتحوَّلت للصدور في بيروت، في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧١، ثم توقفت، في أيار / مايو ١٩٨٢.

طاف بنا المؤلف، في بحثه القيِّم، بين صفحات الجرائد، والمجلات العربية الفلسطينية، قبل العام ١٩٦٧، وعرض بعضًا منها، متناولاً أهم المنطلقات الفكرية لتلك الصحف، وخيرًا فعل، فالموضوع هام، وإن كان غياب المصادر الرئيسية أهم العوائق التي تقابل أي باحث، يختار أن يتعرَّض لتاريخ فلسطين من هذا المدخل، ولم تزل الحاجة الماسة لدراسة موسوعية، تتناول، بشكل نقدي، كل الصحف، والجرائد العربية الفلسطينية، ومدى تفاعلها مع الواقع الفلسطيني، حينها، ثم ماذا بقي من هذه الصحف للتاريخ.

أوراق ثقافية

«في حَضْرَة الغياب» : مَحْمُودْ دَرْويشْ يَكْتُبُ أوطوبْيُوغرافيا قصيدته

حسن نجمي

«قُلْنَا : إنَّ الشّعْرَ هو الشَّاعِر.
وكان علينا أَنْ نُصَدِّقَ الشِّعْرَ ونُكَذّبَ الشَّاعِرَ...»

في حضرة الغياب

-١

مَا الشِّعْرُ الذي تَنْكَتِبُ سيرتُه الذاتية في هذا الكتاب (في حَضْرة الغياب) للشاعر العربي الكبير محمود درويش٣٩ ؟ وكيف يتأمل (نفْسَه)، خصوصيَتَه، صَوْتَه الخاص ضمن الأَصوات الأخرى والأَساليب الشّعْرية السائدة في الجغرافيا الشّعْرية العربية الراهنة ؟ أَيُّ علاقة يَنْسُجُها هذا الشِّعْر مع شَاعِرِه ؟ مَنْ يكْتُب مَنْ (ما) ؟ وإلى أَي حدٍّ تصل مغامرة الكتابة الشِّعْرية عبر شَكْلٍ مختلفٍ، أي في انزياحها الجديد من نصٍّ تفعيلي إلى نَصٍّ شعْري مُوَازٍ يتخذ له هذه المرة شَكْلَ مَحْكِيٍّ شِعْري بلَّوري ؟

مرةً أخرى، نجد أَنفسنا أَمام القوة ذَاتِها في اللغة واللَّعِب بالكلمات والمجاز والاستعارة والتشبيه، وإن شهدت سيرورة الاستعارة بعضًا من التحول والتطور. وأمام نص له نَفَسٌ أقرب إلى نَفَسِ القصيدة الدرويشية بكل ما فيها من ذكاءٍ ومَكْرٍ وتجربة إنسانية طازجة وحِسٍّ فجائعي ورؤية إشكالية.

ظاهريًا، نحن أَمام الشاعر الفلسطيني الذي نَعْرِفُه ونعرف مساره الشعري والإنساني، لكننا أَيضًا أَمام الشاعر الذي يذهب عميقًا في تحرير نَصِّه الشخصي من النص العمومي. يكسر أفق الانتظار الشائع

فلسطينيًا وعربيًا، ويكتُب عن نومه (اليقظة المُغْمَى عليها)، وعن حلمه وكوابيسه، وعن مرضه وهشاشته، وعن خوفه وحيرته، وعن حُبِّه ولا حُبِّه، وعن أَشجاره وفواكهه، وعن حياته وموته... مَوْتِهِ الذي مضى إليه وصافَحَهُ بقَلْب «مفتوحٍ» قبل أَن يعود موفور العافية شغوفًا بالحياة كما يليق بإنسانٍ حقيقي وبشاعرٍ كبيرٍ، صانعٍ للحياة والجَمَال أَساسًا.

يُكَثِّفُ محمود درويش ذاكرتَهُ ويعتصر مخياله في هذه السيرة الذاتية المتَقَلِّلة من التفاصيل، ومن كثيرٍ من الظلال والأَحداث والأسماء. وهو لا يكتب سيرته الذاتية بالمعنى العميق للمفهوم، بل يكتُبُ – إن شئنا الدقةَ – السيرةَ الذاتيةَ لقصيدته. وذلك من حيثُ إنه يقوم بتجميع، بإعادةِ تَمَثُّل، وإعادة بناء الاستثناءات والمفارقات التي ميزت هذه السيرة، سيرة انبثاق وتَشَكُّل المادة الأَولية (الخام) لكتابةِ الشِّعْر، ولميلادِ القصيدة (علينا هُنَا أَنْ نُفَكِّر في قصيدةِ «الجدارية» تحديدًا، كمُوديل شِعْري تَنْكَتِبُ سيرتُهُ في هذا الكِتَاب مثلما يُنْجِزُ الرسامُ اللوحةَ انطلاقًا من الموديل الجسَدي العاري أَمامه).

إذَن، فالشاعر في هذا النص العميق، المركَّب، يتَوسَّل جنْسًا أَدبيًا بات معروفًا اليوم في النظرية الأَدبية الحديثة، هو «المَحْكي الشِّعْري» (Le récit poétique). وشعرية المحكي في نَصِّ «في حضرة الغياب»، تأتي لتُنَبِّهَنا إلى ما لم يَتَسَنَّ لنا الانتباه إليه أو تعيد تركيب الاستثناءات التي لم تُوصَفْ من قبل كما كان ينبغي أَن تُوصَفَ. والأَساس الذي يتعَلَّمه المَرْءُ من «المحكي الشعري»، كما نجد ذلك لدى الفرنسي جان إيف تَادْيِي في كتابٍ نظري له بهذا العنوان، هو هذا الهَدْم الجَمَالي الخَلَّاق لِهُوَّة التَّعارُضاتِ الحَادَّة القائمة (التي ظلت قائمة لزمنٍ طويل) بين الأجناس الأَدبية، وبالخصوص بين الشِّعْر والنثر، مع أَن الأَمر يَتَعلَّق باختلافات ترجع في جوهرها، كما يرى إيفْ تادْيي نفسه، إلى توزيعات متغَيِّرة لوظائف أَدَقّ من وظائف اللغة، في أغلبها، مؤكدًا منْ ثَمَّ أن كُلَّ رواية هي قصيدة، وإنْ في القليلِ الممكن منها، وأَنَّ كل قصيدة هي مَحْكيٌّ، في مستوًى معين.

وسنجد أَن عددًا من خصائص المَحْكِي الشِّعْري تَتَلبَّس نَصَّ محمود درويش. هناك هَيْمَنَةٌ واضحة لوظيفة الفضاء كوظيفة رئيسية رغم أَن الإحساس بالموت يثير دائمًا وعادةً وظيفة الزَّمن (ولكنه هُنَا موتٌ لم يكتملْ لِحُسْنِ الحظ). وهناك إِيثار لِلَّحْظة على حساب الديمومة، وينعكس ذلك بجلاء حتى على مستوى التكثيف الحكائي وانقطاعات الخطية السردية. وهناك أيضًا، حضور للتاريخ من خلل استحضار بعض الوقائع، لكنه استحضار يتم في نفس الآن الذي تحضر فيه اللَّازمنية. ومن ثَمَّ، الذهاب إلى غموض المعنى الشعري حتى ولو أَن الأَمر يتعلق – كما يُفْتَرَض – بكتابةٍ نَثْرِيةٍ تتقصد «الوضوح». وكما نجد لدى إيفْ تاديي، فإِن الإيقاع كخاصية أخرى للمحكي الشعري، تحضر في نص محمود درويش عبر آلية التكرار الجمالي في الكلمات، في الجُمَل الأَساسية (الجُمَل المفاتيح)، في تكرار بعض الصور والأَحداث... إلخ، مما يجعل السَّرْد التفافيًا يتخذ صورة الدائرة (الولادة والموت، الخروج والعودة، الوطن والمنفى والوطن. كما أَن أهم

خاصية في المحكي الشعري تَحْضُرُ هُنَا أَيضًا، وهي أَن التجربة التي يعيد هذا المحكي كتَابتَها (رَسْمَهَا) هي «تجربة واحدة، وإِنْ تعددت تجلياتها وتنوعتْ ؛ وتتطلب بِنْيةً لها وحدةُ القصيدة وانسجامُها وغموضُها، أكثر مما يكون لها تَنَافُر الرواية واختلاطها»٤٠.

-٢

إن الشاعر غير مَعْنِيّ بتعميمِ خَبَرٍ سردي عن حياته الاجتماعية والسياسية والثقافية، وحتى عن حياته الشّعْرية (وإِنْ كان يلامسُها قليلًا). وإِنما هو يكتُب هذا النَّصَّ – هذا الكتاب، ليقدّم لنا السيرة الذاتية لقصيدته – كما أشرتُ – بنَفْس النَّفَس الذي يكْتُبُ به قصيدتَهُ ذَاتَها. ولذلك، قَلَّتْ شهيتُه للتفاصيل العمومية، وهي وافرة وغزيرة لدَيْه – لو أَراد، أو لو كانت تَهُمُّ استراتيجية كتابته أساسًا في هذا العمل – وإِنما كان منشغلًا بإِنجاز نصٍّ نثري شفيفٍ أَصبح في بعضِ مستوياتِهِ قَصيدَةَ نثر حقيقية.

ويخطئ من يطالب نَصَّ «في حضرة الغياب» بوظيفية نفعية معينة. إِنه محكي شِعْري يشتغل على عناصر واقعية، مَعيشَة، معلومة، تَنْتَسِبُ إلى الفضاء السيرذاتي للشاعر. وبدلًا من أَن يَكْتُب الشاعرُ هذه العناصر بتقنية التأريخ أو التوثيق والتدوين الذي يميز في العادة كتابة المذكرات واليوميات، فإنه فضَّل نَهْجَ أسلوبِ المَحْكي الشِّعْري مستثمرًا جماليات هذا الجِنْس وبَعَضَ تقْنياته، مُتيحًا لنَفْسِهِ قَدْرًا من التَّخَيُّل الذاتي (Autofiction)، على الأقل في تأطير البناء السردي للنص من خلال تقنية مضاعفة الذات المتكلمة في النَّص (شخصان في شخص واحد ؛ تصيرُ إلى اثنين : واحد يقول نعم، وواحد يقول لا – الكتاب، ص. ١٤١). وبالتالي، فإِن مَا نَقْرَؤُه في هذا العمل الجميل، الودود، الناعم والقاسي، هو نَصُّ محمود درويش (الشاعر العربي الفلسطيني الكبير) ونَصُّ الشاعر الافتراضي أو المتكلم المُضَاعَف (المُركَّب من شَخْصَيْن، ومِنْ صوتَيْن يُكثّفهما في الغالب صوتٌ مهيمن). بمعنى أننا أمام نص يستثمر خطاب الواقع الملموس وخطاب الواقع المتَخَيَّل (الحُلْمي، الاستيهامي، الكابوسي). ولنَقُلْ أَيضًا، إن هذا العمل يلعب بإِمكانيتَيْنِ نَصِّيتَيْنِ : بالخطابِ الفِعْلي المُلْقَى.. وبالخِطاب المُخْتَلَق، الكاذب، الماكر، الفَاتِن، الذي ليس في جوهره إلا خطاب الشِّعْر. ومن ثَمَّ صِدْقُ السارد (الذات المتكَلِّمة في النص) عندما قال بأَنْ «ليس على الشاعر من حَرَجٍ إِنْ كَذِبَ. وهو لا يَكْذِبُ إِلَّا في الحُبِّ...» (الكتاب، ص. ١٠).

يُبَئِّرُ الشاعرُ خطابَهُ الحكائي الشعري تَبْئيرًا مُخادِعًا. إِنه يحكي عن نَفْسِهِ فيما يحكي عن «الآخر» الذي يتذرَّعُ به. وليس هناك من آخر غير الشاعر نَفْسِهِ. وثمة سردية داخلية يَقُومُ بها الشاعر – السارد عبر موضوعه الموصوف، بينما يراهن على أَن يستكملها القارئ، المؤَهَّل شِعْريًا وسَرْديًا وجماليًا، بما يعرفه عن مسار حياة الشاعر، وعن أَهم علامات تجربته الإنسانية التي سبَقَ للشاعر أَنِ امْتَصَّها في شِعْرِه، وفي نصوصه الموازية.

إن البناء السردي الذي يتخذُ له هُنَا فَضَاءَ المحكي الشعري ولغة قصيدة النَّثْر عمومًا، لا يقولُ أَيَّ شيءٍ ولا يقول كُلَّ شيء. وهو ليس سردًا تقليديًا خَطِّيًا تتخلله وقفات وصفية، وإِنما هو سردٌ قائم على نوع من

الذهاب والإياب، بل يكاد يكون مجمل الإطار الحكائي في الكتاب قد تَمَّ داخل لحظة (وقْفَة) واحدةٍ ممتدةٍ ومسترسَلَة، يحركها التأمل الوجودي أو التعليق السريع الساخر أو السؤال أو الاستطراد الفني. وذلك ما يتحكَّمُ في وتيرةِ السرد ويُكْسِبُها جماليةً وشاعريةً وقوة. وهو يُنَوِّعُ الخطاب من خطابٍ حكائي إلى خطابٍ تأملي، إلى خطابٍ شِعْري (نثري أو تَفعيلي)، إلى خطابِ يومياتٍ...، لكي لا تَتَعطَّلَ حكايةُ النص خفيضَةُ الصَّوْت، الحَيِيَّة، التي ليست في العمق إلَّا حكاية قصيدة، حكاية حياةٍ فردية في أُقصى لحظات عزلتها وهشاشتها وصمتها... تتحول لتصبح حكايةَ قصيدةٍ أَولًا وأساسًا، وليس لتصبح حكاية شَخْصٍ يريد للحظةِ أَلَمِهِ و»مَوْتِهِ» أن تتحول إلى بطولةٍ للادِّعَاء أو التمجيد أو جلال التقديس.

لذلك، ينبغي أن نَتَوقَّع سوء فهم لهذا النص الذي يراوغ أفق الانتظار النمطي التقليدي. والمراد أَن ترتقي القراءة إلى مستوى الخطاب الشعري الرفيع المكثَّف في هذه التجربة الإبداعية التي يخوضها محمود درويش بجسارة. صحيح أَن عددًا من المعطيات الإحالية في النص معروفة ومتَدَاوَلة، لكن الشاعر بإعادتها أو استعادتها يكاد يقول لنا بأن المهم ليس أَن تعرفوا ما تعرفونه عنّي (وسبق أَنْ قلْتُه أو كتَبْتُه)، وإنما المهم أن تتعرفوا على طريقة مُغَايرةٍ في التمثل والنظر إلى ما تعرفونه عني. ونحن نعرف مُسْبَقًا (نظريًا على الأَقل) أَن المحكي النَّثْري استَثْمر دائمًا موارد التغيُّر الداخلي، وإنْ كان استثمارًا أكثر احتشامًا مما نجده في تعبيراتٍ فنية أخرى٤١. وليس هناك من شك في أَن الخطاب الشعري ككل، ومنه المحكي الشعري، هو المؤهل أكثر لاستثمار هذه الموارد الذاتية التي توفرها السيرورة الباطنية للشاعر، لِوَعْيِهِ الشِّعْرِي، لحساسيته اللغوية والمعجمية والجَمَالية والفنية، ولأفق قصيدته.

وليس التبئير وحده الذي جاء ماكرًا في بناءِ هذا النص، وإنما نجد أيضًا أن السيرورة الزمنية – بما هي سيرورة زمنية لمحكيٍّ شِعْري – قامت على زمنية مخادعة. إنها تقفز على الكثير من اللحظات، فيما يبدو للوهلة الأولى أَنها تمر بمجموع اللحظات التي عاشها الشاعر خلال حياته (في فلسطين النكبة وهو طفل، وفي لبنان، وبعد الخروج من فلسطين المحتلة : في القاهرة، بيروت، دمشق، تونس، باريس... وفي مختلف العواصم والمطارات والمنافي الصديقة والشقيقة). إن المحكي ينتقل من لحظة في الماضي إلى لحظةٍ في المستقبل، ومن لحظة في الحاضر إلى أخرى في الماضي، ومن لحظة الواقع إلى لحظة الحلم أو الكابوس. وكل ذلك اعتمادًا على ذاكرة انتقائية، تَصْطفي وتُرَتِّب عناصر التجربة الإنسانية التي تشكل المادة الخام للقصيدة. كما يعتمد الشاعر كذلك كثافة المحكي، عبر تكثيف وتسريع الخطاب الذي يحكي، مقابل الامتداد الزمني للواقع المعيش الذي يتَمَثَّلُه الحكي الشعري. وبعملية بسيطة، نجد أَن أَربعًا وستين سنة، هي التي تفصل ما بين تاريخ ميلاد الشاعر (١٩٤٢) وتاريخ صدور النص (٢٠٠٦)، يتم تكثيفها في ١٨١ صفحة من القطع المتوسط. لنقل إننا إنْ قسمنا ٢٣,٣٦٠ يومًا على عدد صفحات الكتاب نحصل على معدل ١٢٩,٠٦ يومًا لكل صفحة واحدة. طبعًا، مامن رهان كبير على «دلالة كبيرة»، بتعبير جيرار جونيت، في هذه المقارنة

الطريفة، لكننا نريد القول بأن الأمر لا يتعلق بسيرة ذاتية للشاعر، وهناك تضحية واضحة بالكثير من تفاصيل الحياة التي عاشها محمود درويش فعليًا. وبالتالي، فنحن أمام كتابة تعتَصرُ حياة الشاعر لتحتفظ لِنَفْسِها بما يتيح لِلُّغةِ الشِّعْريةِ الكثافَةَ والوَجَازَةَ والاقتصاد الخَلَّاق الموحي.

.٣

إذن، هناك ملفوظٌ شِعْري، وهناك تحليل شِعْري لهذا الملفوظ في الآن نَفْسِهِ.

هناك خطابٌ شِعْري (أَدبي) مُضَاعَفٌ، خطاب يقول نَفْسَه فيما هو يحلّل ويتأمل نَفْسَه أَيضًا. وهو خطاب مُضَاعَفٌ، بهذا المعنى، يتحدث عن صوتٍ مُضَاعَف، الصوت الذي يقول النص ويتكلم فيه، ويقدم عنه نَفْسه «صورة ذاتية» (أُوطُوبُّورتْريه) تتداخل مع السيرة الذاتية للقصيدة. وإذا أدركنا أَن النص المكتوب يمنح للقراءة حيزًا من الكلام، حيز شخص يتكلم بداخله عن شخص آخر لا يتكلم (وإن كان حاضرًا، ولو في حضرة الغياب)، نجد أنفسنا أَمام مكوّناتِ «خِطابٍ عَاشِقٍ» بالتحديد الذي أعطاه رولان بارتْ لهذا المفهوم.

إن الشاعر الذي أصبح أيضًا ساردًا في هذا المحكي الشّعْري يتيح لِنَفْسِهِ حريةً أكبر مما قد يتيحها له، عادةً، النَّصُّ الشعري المخصوص (النص الشعري التفعيلي تحديدًا)، «فَيَجْري داخل رأْسه»، والعبارة لبارتْ، أي داخل المساحات الممتدة للذاكرة ليداعب مُدَّخَراته النفْسية والأَدبية والسوسيوثقافية والسياسية، بل والجسدية أَيضًا (للجسد ذاكرته ؛ للحَواسّ بالطبع). وهو، وإن كان لا يقول جديدًا عن حياته، لكنه يقول ما نعْرِفه عنه بطريقة جديدة، بَدَا لنا أننا نَعْرِفُ هذا المحكي أو نعرف هذا القول، «نتعرف على هذا المَشْهَد اللغوي» (بارت) الذي نعرفه بالطبع لأنه مشهد ذاكرة مشتركة بين الشاعر والقارئ داخل النص وخارجه. مشهد شَيَّدَتْهُ مشاعرُ وأَحاسيسُ الشغف المشترك بين الكتابة والقراءة. وهو مشهد يعيد تكوينه هُنَا المُتَخيَّلُ الشّعْري والرغبةُ الجمالية وجسارة البَوْح بالشخصي والخصوصي والحميمي.

ومرة أخرى، لكي نُلامِسَ خصائص المحكي الشعري، فإن هذا النص لا يتَغَيَّا «إسماع كُلِّ ضجَّاتِ الأَرض»، بتعبير جَانْ إِيفْ تادْيي، وإنما يتَوسَّل لغةً متكتمةً، سريةً، تحتاج – لكي تُفْهَمَ – إلى إحساسٍ مختَلِفٍ بها وترجيعها عبر الذات القارئة. إن محمود درويش، الشاعر الماكر الذي يعرف معنى وضعه الاعتباري في الساحة الفلسطينية والعربية، ساحة القراءة النمطية عمومًا، وساحة الصراع والاحتراب والواجب والوظيفة، ينْأَى بنَفْسه قليلًا ليكتب نَصَّهُ الشخصي – «سَطْرَهُ الخاص» كما يقول هو نفسه في الكتاب، ص.٩٩ – وليقوله بكثير من الصمت، وبتقاطع واضح مع ظلال القول. لذلك، نخطئُ إِنْ قَرَأْنا «في حضرة الغياب» على ضوءِ ما نَعْرِفُه عن الإِحالات السياسية والاجتماعية والثقافية العامة لوضع الشاعر في مجتمعه وسياقه العمومي، بل ينبغي أن نَقْرأَه على ضوء ما يقوله النص ذَاتُه. وهو بهذا المعنى، ليس إِلا أَثَرًا لخطوات الشاعر وليس تقريرًا تفصيليًا عن الخطوات التي خطاها. وهو صورة عن الطريق التي تسلكه

القصيدة الدرويشية كي تخرج من بين ثنايا الروح وجروح الجسد ومتاعبه، وليس الطريق الفعلي الذي مَشَاهُ الشاعر. والنص، إنْ شِئْنا، هو رَحمٌ لنصٍّ تفصيلي لمْ يَنْكَتِبْ بعد بالكامل، وإن كانت تجلياتٌ منه قد ظهرت في العديد من نصوص الشاعر الموازية (كتب نثر سابقة، قصائد، شهادات وكلمات، حوارات، رسائل منشورة، افتتاحيات بعض المجلات الثقافية والفكرية، خاصة «الكرمل»، أَفلام وتسجيلات صوتية... إلخ).

لقد اختار درويش الشكل الأَفضل لاستيعاب تجربته الشخصية القاسية، تلك التي مَرَّ خلالها بأَقصى وأقسى سَفَرٍ يمكن أن يسافره المرءُ في حياته، سفره إلى المستحيل الإنساني، أَثناء خضوعه لعملية جراحية على القَلْب الواهن، وفي اللحظة التي كان لا واعيًا، وكان «لا وَعْيُه يقاوم الموت». وهي لحظة عسيرة قَارَبَها شعريًا في قصيدته المدهشة (جِدَارية)، ويعود في هذا النص ليقاربها «نثريا» من داخل تجربة المحكي الشِّعْري. وشخصيًا، لم أقرأ هذه اللحظة فقط باعتبارها لحظة محنة جَسَدية لشاعر صديق، وإنما كلحظة كانت لها أَرجاعها وتأثيرها على القصيدة، وعلى المشروع الشعري ككل لمحمود درويش. وهو نفسه لم يَكْتُبْها من باب توثيق الأَلم، وإنما لإضاءَةِ نصٍّ شعري كَتَبَه.. ونصّ شعري آخر لم يَكْتُبْه !

ولم ينحرفْ وعْيُ الشاعر بالموت إلى الفكرة الخاطئة عن الموت. كما أَنه لم يُفَلْسِفْ «مَوْتَهُ»، وإنما عَامَلَه باحترام كشاعر له حصانة اللغة والصورة والإيقاع، وكانسان هش.. تَهمُّه الراحة ولا يتَمنَّاها راحة أَبديةً.

جميلٌ أَنْ ننظُرَ إلى مَوْتِنا. هكذا، العينُ في العين. نُصَافِحُه ونعيدُ معه الجدولة (مثل بنْكٍ نعيد معه جدولة الديون !). وحين نُسْأَلُ عنه، عند عودتنا الطارئة إلى الحياة بعد سفرنا الطارئ إلى الموت، نقول كما قال الشاعر في نَصِّه : «أَن ترى كما لم تَرَ مِنْ قَبْل. أَن ترى الضوء أبيض والغيمَ أَبيض والهواء أَبيض. أَنْ تخرج من جسدك. ولا تتذكر متى خرجت من جسدك لأنك لا تتذكر أنك كنْتَ في جسد. أن تعود إلى أَوَّلك فيما أنتَ ذاهبٌ إلى آخِرِك. أن تنامَ ولا تعلم أنك نائم. أَن تخرج من الزمان ومن الشكل» (ص. ١١٢). ولذلك، يقال للشاعر - وقد عاد ناجيًا من حادثة الموت إلى حادثة الحياة - «أصرخ، ياصاحبي، لأعرف أَنكَ حيٌّ». وكأننا بصدد صرخة الميلاد، تلك التي يصرخها الوليد وهو يلتحق لأول مرة بضجيج الأَرض : «... وعَلِمْتَ فيما بعد أن صرخةَ الأَلم كانت دليل عودتك إلى الحياة التي تبدأ وتنتهي بصرخة. وسألتَ : أين كنتُ إذًا ؟ فقيل لك إن الموت قد اختطفك لمدة دقيقة ونصف الدقيقة، وأن صدمة كهربائية قد أَعادتك إلى الحياة» (ص.١١٣).

هكذا نفهم أَن «في حضرة الغياب» هو محكيٌّ شعري عن لحظةٍ مُضَاعَفَةٍ كان الشاعر خلالها في الحياة... وفي غَيْبَتِهِ في الآن نَفْسِهِ. إنها القصيدة هُنَا هي التي تَكْتُبُ سيرتَهَا كأن «الموديل» يَنُوبُ هُنَا عن الرسام فَيَرسُم نَفْسَهُ في اللوحة !

كتابةُ درويش في هذا العمل تُحقِّقُ مستوًى نموذجيًا لمحكيٍّ شعري في النَّثْر (كما سَبَقَ له أَنْ حَقَّقَه المحكي الشعري النموذجي في الشّعْر). وهو في هذا «الموديل» النَّثْري، مثلما في كل محكي شعري نثري ناجح، يحققُ «شَكْلًا من أشكال المحكي يستعير من القصيدة وسائلها في الفعل ويُحْدِثُ آثارها»، كما يؤكد جان

إيف تاديي (لكي أستأنس مرة أخرى بِمُنَظِّر مختص). ومحمود في هذا النص، يَنْأَى عن تَوسُّلِ «التخييل» لأن الواقع الذي عَاشَهُ وَفَّرَ له (وكتابته) أَقصى إمكانيات التخيُّل التي لا تحتاج إلى معرفة بلاغية لتحقيقها، بل يكفي أن «يموت» الشاعر قليلًا (لمدة دقيقة ونصف دقيقة) ليَعْثُر على تَخَيُّلاتٍ تَتَخلَّقُ في جَسَدِهِ وفي هاوية أَلَمِهِ. ومنْ ثَمَّ لم يُكُن الشَّاعر بحاجةٍ إلى استثمار عنْصُر التخيل الذي تنهض عليه الكتابة الروائية، وإنما اكتفى بطرائق السرد التي توفرها القصيدة، وتحديدًا قصيدة النثر، وتمكن من أَن يَعْثُر على الإيقاع الملائم لكي يجنّب كتابته تلك المواجهة المفترضة في كل محكيٍّ شِعْري، بين الوظيفة المرجعية (الإحالية) بما قد توفّره من إمكانيات الاستعادة والتشخيص، والوظيفة الشعرية بإمكانياتها الذاتية على مستوى اللغة والصورة والإيقاع... وما إلى ذلك. بل يمضي درويش بعيدًا في تَمسُّكه بما توفره شعرية القصيدة لشعرية النثر، عبر الاشتغال بنظام كامل من التعارضات والتناظرات والاسترجاعات والتصاديات، بل واستثمار بعض التوازيات الدلالية والتقابُلات بين وحدات المَعْنَى (أَمكنة وعواصم وروائح وأَحداث ووجُوه وأَفكار...). وأكثر من ذلك، وَصَلَ بِمحكِّيهِ الشعْري إلى حَدِّهِ الأَقْصَى في مقاطع تفعيلية خَتَم بها بعض فصول الكتاب. ناهيك عما يمكننا العثور عليه من وَفْرة في الصور الشِّعْرية والجُمَل الموسيقية والمُصَوِّتَات، في سرْدِهِ النثري، مع أنها عناصر من مُقَوِّمات القصيدة كما نَعْلَم.

.٤

وإلى جانب الأَهمية التي يكتسيها شَكْلُ البناء في هذا النص القائم على تركيب الشّعري والنثري، واعتماد المحكي الشّعْري على مستوى التجنيس، فإن لثيمة الغياب هيمنة دلالية وجمالية تخترق النص في كليته، في سيرورته الحكائية، وكذا على مستوى سَرْديتِهِ التي حكَمَتْها تقنيةُ الصوت المُضَاعَف من البداية إلى النهاية.

والغياب في هذا النص هو اختبارٌ للفقدان الشخصي أَساسًا، بالرغم من أنه غياب يستحضر كل أنواع الغياب الأخرى للشاعر. فهناك غياب المكان الأَثير، غياب اللحظة المُثْلَى، غياب الآخر المنشود، ولكن أَقصى (أَقسى) غياب في النص هو غياب الذات : أَن تكون هذه الذات هُنَا فيما هي ليست هُنَا. أَنْ تكون في الحياة فيما هي في الموت أَيضًا، وأَن تكون في الموت (لمدة دقيقة ونصف دقيقة) فيما كانت لَاتزال ذاتًا محسوبة على الحياة وتنتسب إليها.

ومن هذه الفكرة، فكرة الشاعر الأَصلية التي لم يَعْثُر عليها في مرجع قَرأَه أو لدى شَخْصٍ آخر حَدَّثَه ؛ من هذه البذْرة الملتهبة التي استخرجها الشاعر من حَمْأَةِ اللحظة الجسدية العنيفة التي عَبَرها، انبثقت آليةُ التضعيف الصوتي التي قُلْنَا إنها حكمت كليةَ هذا النص الاستثنائي الفاتن. يفتتح محمود درويش مَحْكِيَّهُ، بالكشف عن أَوْراقِهِ منذ انْطِلاقِ النَّص : «سَطْرًا سَطْرًا أَنْثُرُكَ أَمامي بكفاءةٍ لم أُوتَها إلَّا في المطالع/ وكما أَوصَيْتَني، أَقِفُ الآن باسْمِكَ كي أَشْكُرَ مُشَيِّعِيكَ إلى هذا السَّفَرِ الأخير، وأَدْعُوَّهُمْ إلى اختصار الوداع، والانصرافِ إلى عشاءٍ احتفالي يليق بِذِكْراكَ / فَلتَأْذَنْ لي بأَنْ أراكَ، وقد خرجتَ مني وخرجتُ مِنْكَ سالِمًا

كالنَّثْرِ المُصَفَّى على حَجَرٍ يَخْضَرُّ أو يَصْفَرُّ في غيابكَ» (ص.٩)

هكذا يقتسمُ الشاعر مع ذاته (مع صوته الآخر) الحصص والمسافة والأَشياء (صوته الآخر إلى حياةٍ أخرى وعَدَتْه بها اللغة ؛ وهو إلى موتٍ كان قد وعَدَهُ بكأسِ نبيذٍ في إحدى قصائده). وهو يحضر حضورًا مضاعفًا (حُضُورَيْن اثنين)، يَحضُر في الحياة ويحضر في غيابها. والغياب، أَنْ تخلص للغياب أَيضًا، أَلَّا تَغْدُرَ بِهِ (فلا شيء يُهينُ الموتَ كالغَدْر – ص.). الغيابُ هو الموت، هُنَا في هذا الكتاب، حيث يكون الشاعر حيًّا ويكون أيضًا مسَجًّى في الكلام.

إنه غيابٌ لا يشبه أَيَّ غيابٍ آخر، وبالخصوص لا يشبه كل أَنواع الغياب التي اعتدناها تملأ القصائد وتَضُجُّ بها الأَغاني وأَناشيدُ الحُب، وحتى أَناشيدُ الموت (المراثي والتعازي). فلا هو غياب شخص قد يعود، ولا هو موتُ شخصٍ جديدٍ بالرثاء، وإنما هو خطابٌ عن شَخْصٍ فَقَدَ نَفْسَه، أو بِالأَحْرى هو تأملُ رَجُلٍ حيٍّ في جَسَدِهِ المسَجَّى أَمامه !

في هذا الغياب القاسي، الغياب التراجيدي، لا أَحد يغادر ليبقى آخر في انتظاره (كما في قصص وقصائد الحُب !). إنها قصةٌ أو قصيدةُ ذاتٍ تخرج من ذاتها، فلا تبقى ولا ترحَل. وإنما هي هُنَا وليستْ هنا في آنٍ. ولذلك، يراوغ الشاعر غيابَه مُحوِّلًا التفاوُت القائم بين «ذهابه» من الذاتِ و»إيابه» إليها، فينتج إيقاعًا آخر «فاتحًا مَشْهدَ اللغةِ» ليسْتَولِدَ اللغَة من الغياب (بارتْ، شذرات من خطاب عاشق). وبالتالي، يصبح الغياب منتجًا للمعنى، بؤرة نشيطة يتمركز حولها الانشغال الأساس للنص. ذلك الانشغال الذي يشغل عن أَي شيء آخر، أي أن هناك، بالمعنى البَارْتِي، إبداعًا لخيال متعدّد الوظائف يستدعي كل الارتيابات والرغبات والاكتئابات في شكل إخراج لغوي mise en scène langagière عادة ما يُبعِدُ الموت عن الآخر (الغائب) في أَنواع الغياب الأُخرى السائدة، لكنه في هذا النص تحديدًا يبعد الموت عن الذات. ومن ثَمَّ فمراوغَةُ الغياب (استعماله) هي أَن تمنح امتدادًا للحظة الغياب التي لم تستغرق أكثر من دقيقة ونصف دقيقة في الواقع، لتجعلها أكثر رحابة كي تستوعب حياةً كاملةً ومكثَّفَة.

والغياب في «في حضرة الغياب» يتجلى لنا بوصفه غيابًا «لامرجع له». فهو غيابٌ يتحقق بدون أَن يتَغَيَّب أَحدٌ عن أَحَدٍ لكي يكون هناك أَيضًا مرجعٌ للخطاب حول الغياب. ولذلك، فهو غيابٌ في ذاته، كما يمكن أَن يكونَ الشّعْر في ذاته، أي أَن وظيفة الغياب هي بامتياز وظيفة شعرية.

في هذا الكتاب الجميل، نحن في حضرة غيابٍ لا يقول إِلَّا ذاته. ومعناه، أَننا بصدد شعريةٍ أَعمق وأكبر من بؤسِ بعضِ القراءات النَّمَطية (الجاهزة). شعرية ليست بحاجةٍ إلى مَنْ يُحاسبُها أو يحاكمها بمعايير النَّثْر أو الشِّعْر أو الوزن العَرُوضي أو الوطن أو المقاومة أو البُنْدُقية (وكُلُّ ذلك، لا يحتاجُ فيه محمود درويش لا إلى دُروسٍ ولا إلى شَهَادَةٍ منْ أَحَدٍ)، وإنما هي شعريةٌ جَسُورٌ تحتاج فقط إلى شعريةِ قراءةٍ عاشقةٍ، شَغُوفٍ بالجَمَال، منتصرة للإنسان وللحياة.

النكبة في السرد الروائي الفلسطيني.. نماذج من حضورٍ يتواصل

بديعة زيدان

بالبناء والمراكمة على مقابلات شخصية أجرتها في العام ٢٠١٨، مع صبحي (٨٨ عاماً) في عمّان، وشمس (٨٥ عاماً) في يافا، خرجت الكاتبة الفلسطينية سعاد العامري، بروايتها الجديدة «بدلة إنكليزية وبقرة يهودية»، والصادرة بالعربية عن منشورات المتوسط في إيطاليا، بترجمة لصاحبة الرواية والشاعرة هلا الشروف.

ورغم أن روايات عدّة تناولت «النكبة» كحدث مفصلي في التاريخ الفلسطيني، إلا أن أسلوب العامري، وتركيبها للشخصيات والأحداث، وإن كانت مستمدة من الواقع، يجعل ممّا تكتب حدثاً سردياً مُغايراً، فمآلات شخوص الرواية المحورية تعكس الحال الذي وصل إليه الفلسطيني، ليس في تبعثر جغرافياته المكانية على أرضه الداخلية، وليس في تبعثر حيواته في جغرافيات العالم كله فحسب، بل في تشتت جغرافيا الروح داخله، واندثارها ما بين يافا، وغزة، وعمّان، ومخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين في لبنان، وغيرها.

ولا يمكن تخصيص وصف رواية «بدلة إنكليزية وبقرة يهودية» باعتبارها رواية مكان، أو رواية زمان، أو رواية شخوص، أو رواية حدث، فهي خليط من كل هذه التصنيفات، بحيث كان لها نكهتها الخاصة، ليس بعيداً عن حكايات اللجوء والشتات وما قبلها وما بعدها، منذ الإهداء «إلى أبي، وإلى اللاجئين جميعهم الذين قضوا في الشتات، مُنتظرين العودة إلى الوطن».

وتدشّن العامري روايتها بحكاية «صبحي» الذي تصفه بـ«أشطر ميكاكيني في يافا»، لتعود بنا عبر آلة الزمن السرديّة هنا إلى تموز من العام ١٩٤٧، فابن الخامسة عشرة هذا يعمل أجيراً في كراج العم مصطفى، مع أن والده يملك بيّارة برتقال «الذهب الأصفر»، كما كان يصفه، في حين كانت «شمس» هي

مؤشر دقّات قلبه، بل «شمسه».

يعجز «الخواجا ميخائيل» في إيجاد من يُصلح له مضخة الماء الخاصة بمزرعته، ويَعدُ صبحي لو نجح في المهمة التي عجز عنها الآخرون بشراء «بدلة» له محاكة من صوف إنكليزي شهير، وهو ما كان له بالفعل.

وفي خضم سرد حكاية «صبحي» و«الخواجا ميخائيل»، تتناول العامري حكايات من ثورة العام ١٩٣٦ الشهيرة، وما رافقها من إضراب اقتصادي، والمخاوف من إضراب مشابه في صيف ١٩٤٧ يعود بالبلاد إلى الكساد، دون أن يدري «صبحي» أن البلاد لن تعود بعدها، ولو إلى حين، كما تتحدث عن «سوق اليهود» تسميةً وموقعاً، دون إغفال «التوترات المتصاعدة، والمناوشات والقتال بين العرب واليهود في الأشهر الأخيرة، فمنذ أعلن الإنكليز عن نيّتهم إنهاء الانتداب على فلسطين، وسحب قواتهم منها خلال العام، صعّدت العصابات اليهودية المسلحة، مثل الهاغاناه وإيتسل وليحي، هجماتها على الأماكن التي يتجمع فيها الفلسطينيون، كالمقاهي ودور السينما، والأحياء العربية المحاذية للمستوطنات اليهودية، مثل سكّنة أبو كبير في الشّمال، وسكّنة درويش وتل الريش في الجنوب، وأيضاً في الأجزاء الجنوبية من حيّ المنشيّة، حيث تعيش أسرة صبحي».

في تلك الفترة ينضم «صبحي» وشقيقه «جمال» لكتيبة «حزب النجادة»، بحيث باشرا تدريباً متقطعاً على الأسلحة، بسبب ندرة الذخيرة، حيث كان من الصعب حصول الفلسطينيين على سلاح وذخيرة، في مقابل تدفق هجرة السلاح إلى العصابات الصهيونية، بمساعدة الإنكليز بطبيعة الحال، والذين لم يغضوا الطرف عن تهريب أحدث الأسلحة لليهود، بل ساهموا في السماح لهذه العصابات بالانضمام إلى قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

وما بين تجوالها مع «صبحي» وحكاياته، تحكي العامري عن الواقع الفلسطيني المليء بالتناقضات ما قبل النكبة، حيث الانقسام ما بين أنصار النشاشيبية والحسينية، نسبة لعائلتي النشاشيبي والحسيني، ومواقف قياداتهما المتناقضة، وعن وجود الكثير من العمّال المصريّين في يافا، وخاصة في الأحياء الفقيرة منها، وهو ما كان منذ احتلال إبراهيم باشا المصري لفلسطين في العام ١٨٣١، والذي استمر لتسعة أعوام بحيث فرّ وجيشه مهزوماً عائداً إلى مصر في العام ١٨٤٠، إلا أن العديد من العساكر وعائلاتهم آثروا البقاء في فلسطين.

ولم تغفل الروائية الحديث عن الجانب الحضاري في يافا، عبر استذكار مهرجان موسم النبي روبين، حيث كان عشرات الآلاف من الفلسطينيين والعرب يُحمّلون جِمالهم بكل ما قد يحتاجونه من طعام وشراب يكفيهم لأسابيع عدّة، قبل أن ينصبوا خيامهم في محيط المقام الذي يحمل اسم «روبين النبيّ»، في زخم ثقافي وروحاني يتواصل على مدار قرابة الثلاثين يوماً، وفي كل ليلة، فعلاوة على الاحتفالات الكشفية، تنتظم عروض سينمائية لأفلام مصرية في الهواء الطلق، وعروض لمسرحيات من لبنان وسورية، وأخرى

لفرق موسيقية حلبيّة، علاوة على حفلات زفاف تتراوح ما بين حقيقة ومحاكاة، وحلقات للصوفيّين والدراويش يردّدون فيها الأذكار، ويقدمون رقصاتهم الدينيّة.

وتحت عنوان «استعراض الرعب في القدس»، وفي ٨ نيسان ١٩٤٨، بدأت سرديّة احتلال فلسطين ونكبة أهلها، ففي ذلك اليوم «استيقظت فلسطين ومعها العالم العربي على الخبر المفجع: عبد القادر الحسيني، قائد الجهاد المقدس، الذراع العسكري للحزب العربي الفلسطيني، استشهد في معركة القسطل قرب القدس.. بعد سنوات من ذلك اليوم، سيكشف التاريخ أن القائد المحبوب عبد القادر الحسيني، ابن محافظ القدس، كان قد أصيب في المعركة، وعندما استجدى من عدوّه شُربة ماء، تلقى رصاصة في رأسه عوضاً عنها».

"وفي صبيحة التاسع من نيسان، وغير بعيد عن قرية القسطل، هاجمت قوات أرغون وليحي والهاغاناه قرية دير ياسين، وبدم بارد، قنصت ٢٥٠ مدنياً فلسطينياً، بينما هم يفرّون للنجاة بحيواتهم، أما الذين نجوا من بشاعة المجزرة، فقد حُمّلوا في شاحنات، وعُرضوا في موكب جاب شوارع الأحياء العربية في القدس، متسبباً في موجات من الفزع عبر فلسطين بأكملها».

تفرّقت عائلة «صبحي»، فأُمه وأخواته لجأن إلى نابلس، حيث يقطن أحد أخواله، أما شقيقه «جمال» فاستشهد وهو يدافع عن الحيّ، فيما أصيب عمّه «حبيب» إصابة بالغة، أما والده فاختبأ في بيّارته ونجا.. «صبحي»، الذي اتهم بسرقة «البدلة»، تم احتجازه، ومن ثم أفرج عنه، وأعيدت له «البدلة» دون بنطالها، في وقت كانت بدأت فيه العصابات الصهيونية بالاستيلاء على بيوت يافا، بعد هدم جزء منها، كي لا يعود أصحابها إليها.. سرقوا الممتلكات، والمكتبات، وحولوا يافا إلى «غيتو»، في حين ظهر بنطال بدلة «صبحي» يرتديه «فواز» عميل الهاغاناه، ليهوي الأول على رأس الثاني بصندوق برتقال كان يجلس عليه، قبل صراع بالأيدي على البنطال انتهى به مُمزقاً.

أما عائلة «شمس»، ابنة قرية «سلمة»، فتم تهجيرها من بيتها كغيرها من العائلات، لتلجأ إلى مزرعة خضار شرق اللد، وهناك عثروا على بقرة عرفوا من آخرين أنها ملك لمن يُكنّى بـ«أبو محمد اليازوري»، وأنه تركها وهجر البلاد إلى شرق الأردن، فما كان منهم إلا ذبح البقرة لسد جوع جموع المهاجرين، وخاصة الأطفال، قبل أن تدهم المنطقة ميليشيات يهودية، إثر ادعاء أحد المستوطنين أن العرب سرقوا بقرته، فيعتقل والدها «خليل»، ويختفي أثر والدتها وشقيقها إثر الحدث الجلل، فتبقى وحيدة رفقة شقيقتيها، لتتبنّاهم عائلة من اللد، لأب مسلم مصري الأصل وأم عربية يهودية، وهو ما لم يكن حدثاً عابراً.

ويتأرجح السرد، كما تتأرجح مصائر الفلسطينيين في تلك الفترة، فيعود الحديث عن «صبحي» ووالده «إسماعيل» الذي يحمي بيّارته بالبقاء فيها، قبل أن يستقبل «خليل» والد «شمس»، وكان يعمل في

البيّارة سابقاً، بعد الإفراج عنه إثر اعتقاله بتهمة «سرقة البقرة اليهودية»، فيبدأ رحلة البحث عن عائلته، ليكتشف أن بناته حصلن على الهويات الحُمر دونه، بعد تبنّيهن من الشيوعيَّيْن «عبد» و«رفقة»، وأن عليه أن يغادر البلاد، التي دخلها «تهريباً»، كي لا يُعتقل ثانية، فيغادر رفقة ابنتيه دون «شمس» التي تتزوج شقيق «صبحي»، فيما يهجر «الميكانيكي الفلتة» البلاد هو أيضاً.

"بدلة إنكليزية وبقرة يهودية»، وقد تكون الرواية الفلسطينية الأحدث صدوراً حول «النكبة»، هي أكبر من مجرد قصّة حب بين طفلين، بل هي عبارة عن حاضنة سردية لتوثيق شيء من السرقة الكبرى للبلاد، فيما تبقى «البدلة الإنكليزية» دون بنطال، ممزقة كما «صبحي» وأحلامه من ارتباط كان يعدّ له نفسه وبدلته كاملة، وكأنما «البدلة» هي فلسطين التي ستبقى العودة إليها حلماً، ولو تمزق جزء لا تستقيم دونه، بل هو الجزء الذي يستر عورتها.

رباعيّة يحيى يخلف

وعند الحديث عن حضور «النكبة» كحدث مفصلي في التاريخ الفلسطيني، تتواصل تداعياته منذ خمسة وسبعين عاماً، لا يمكن بأي شكل من الأشكال المرور عن رباعيّة الروائي الكبير يحيى يخلف، والتي أطلق عليها «رباعيّة البحيرة»، وتتكون من روايات شكلت بمجموعها سردية مرجعية صيغت ببراعة المحترف حول حدث تاريخي، يمكن وصفها ليس فقط بالمرجعية، بل بمجموعة ماسيّة تربط الخاص بالعام، برع في نسجها ابن سمخ القريبة من طبريا البحيرة والجغرافيا، وهي: «بحيرة وراء الريح» (١٩٩٣)، و"نهر يستحم في البحيرة" (١٩٩٧)، و"ماء السماء" (٢٠٠٨)، و"جنة ونار" (٢٠١١).

في الرباعية ثمة لغة لا تأسرها البلاغة الفارغة، ولا تقع في فخ الشعاراتية، بقدر ما تنحو نحو واقعية سحرية فلسطينية، اتكأ من أولاها إلى الرابعة، على استحضار النكبة، من خلال حكايات من كبروه سناً حولها، وحول بلدته سمخ، مسقط رأسه التي هُجّر منها رفقة عائلته حين كان في الرابعة من عمره، وبحيرة طبريا القريبة التي تسرّب ماؤها عذباً إلى القارئ من بين دفّات روايات «رباعيّة البحيرة».

والرباعية، حسب يخلف، «رواية من أربعة أجزاء، نشرت متفرقة في دور نشر مختلفة، وقرئت كروايات مستقلة، وكتب النقاد عن كل رواية على حدة، وقلة قليلة من المتابعين لأعمالي الروائية كانوا يدركون أن هذه الروايات هي عمل روائي واحد.. روايات هذه الرباعية هي جزء أساسي من مشروعي الروائي، وهي واسطة العقد فيما سبقتها وما تلتها من روايات».

"البحيرة هي بحيرة طبريا، والبحيرة ومحيطها تمثل جماليات المكان ومخزون الذاكرة لوقائع وأحداث وشخصيات وحكايات تتوالد، وترصد دقّات قلب شعب واجه مكر التاريخ، وامتلك قوّة الروح والتضحية

والفداء في معركة صراع البقاء، واسترداد الحقوق".

ولفت يخلف إلى أن «روايات هذه الرباعية تغطّي مراحل زمنية مختلفة، من النكبة إلى الشتات، ومن الشتات إلى الثورة المسلحة، ومن الثورة المسلحة إلى العمل السياسي والمفاوضات، ومن المفاوضات العبثية إلى المقاومة الشعبية الباسلة.. غمست ريشتي في هذه الروايات بمداد ملحمة كفاح الشعب الفلسطيني، وحرصتُ على أن أقدمها بمعمار فني تتوفر فيه عناصر فنيّة عالية، لتكون جديرة بأن ترقى إلى مستويات تضحيات شعبنا العربي الفلسطيني العظيم»، مؤكداً أن جمع هذه الروايات معاً، وكان ذلك في العام ٢٠١٨، هو الطبعة الأولى الجمعية لها، وكما أشرت، تحت عنوان «رباعيّة البحيرة».

وفي حوار لي معه، كان من بين حوارات كتابي الموسوم بـ»لاعب السرد» (٢٠٢١)، سرد يخلف: أنا من جيل خرج من جرح النكبة وتراجيديا المأساة .. بالمراحل الأولى للنكبة كانت الأوضاع صعبة للغاية وقاسية .. والدي كان من كبار المزارعين، وكان لجوء معظم الجليل الشمالي يمر عبر طبريا و»سمخ»، وكان أغلب هؤلاء يستقلون قطار سكة الحديد الحجازية من حيفا مروراً بالعفولة ثم سمخ، ومنها إلى درعا، ودمشق، وحمص، حتى المحطة الأخيرة في مخيم النيرب.

كان حين يتجمع «الختيارية» على «لعبة شدة أو منقلة»، يخاطب المهزوم غالبه بالقول غضباً «يلعن الترين اللي جابك»، ولاحقاً عرفت أن اللاجئين كانوا يستقلون عربات القطار (الترين)، وكل عربة أو اثنتين أو ثلاثة تستقر في مكان، أضاف يخلف.

"أشقائي الكبار، ما بعيد النكبة، عملوا في إربد، حيث انتقلنا للعيش، وكطفل كنت مدللاً كوني الأصغر في العائلة، وقدموا لي عناية خاصة لم تلغ أثر تراجيديا المأساة داخلي.. درست الإبتدائية والإعدادية والثانوية في إربد، وتشكل وعيي في مرحلة المدّ الناصري، حيث كنا على قناعة بأن عبد الناصر هو من سيحرر فلسطين، لذلك، وفي شبابي المبكر، لم أكن عضواً في أي تنظيم سياسي، بل كنت ناصرياً بالمفهوم الشعبي كغالبية الفلسطينيين في ذلك الوقت.. مخزون ذاكرة الطفولة وظفته في معظم رواياتي التي كتبتها عن النكبة والتهجير".

في روايته الأولى «بحيرة وراء الريح» يرصد يخلف بشكل أو بآخر لقاءه بعد طول غياب، أو عودته المؤقتة إلى سمخ، التي لم تعد تحمل الاسم ذاته، فقد أنشئت مستعمرتا «ماسادا» و»شاعر هغولا» جنوب شرقي القرية، واتسعتا لتبلغا أراضيها، وفي العام ١٩٤٩، بنيت مستعمرة «معغان» على أنقاض المنزل الذي ولد فيه يخلف، وبقية منازل وأراضي، وقبلها حيوات وذاكرات أصحابها الفلسطينيين، وهو حال بحيرة طبريا التي تكاد تتكلم العبرية، إن لم تكن باتت تتقنها جيّداً رغم إدراكها التام بأصولها الفلسطينية، فيما يمكن وصفه بـ»رواية الصدمة»، حيث حطّم واقع الاحتلال ومشروعه الاستيطاني الاستعماري تلك الصورة التي لربما كان قد رسمها في ذهنه مما ورثه عنها من حكايات.

ووثقت فصلية «نزوى» الثقافية العُمانية، في عدد تشرين الأول من العام ٢٠١٠، ما رواه يخلف نفسه عن أساس فكرة هذه الرواية، بقوله: وفي أول مرة زرت البلاد كانت بصحبة الصديق محمد علي طه ومعه صديقي جهاد قرشولي أبو منهل يرحمه الله. زرنا الناصرة، عكا، سمخ، طمرة وكابل، وكانت رحلة مهمة.. بلغنا طبريا، وأصر أبو منهل على أن يرى «بيرتا»، وهي فتاة يهودية كانت تعمل راقصة في ملهى "الليدو" في طبريا قبل النكبة، وكان أفندية يافا وخواجات تل أبيب يخطبون ودها، ولكن لم يعجبها سوى قدورة القهوجي، وهو شاب عربي عمل ميكانيكياً في طبريا، فأحبته ونمت قصة عشق ملتهب بينهما.. الغريب أن أهالي المدينة عرباً ويهوداً اعترفوا بهذا الحب.. في النكبة غادر أهالي طبريا العرب في نيسان من العام ١٩٤٨ إلى المنافي، وغادر قدورة القهوجي وعائلته إلى مخيم اليرموك في دمشق، وأصرت "بيرتا" الحبيبة على مرافقته في رحلة اللجوء.. عاشت معه شهرين حتى اكتشفت المخابرات السورية وجود يهودية في المخيم فاعتقلوها، ولم يفرج عنها إلا بعد التثبت من كونها قصة حب لا قضية تجسس، فسلموها للصليب الأحمر وعادت بيرتا لطبريا.. وقال إنهما تراسلا مدة وما لبثت علاقتهما أن انتهت، لكن أبو منهل أصرّ على البحث عنها عقوداً بعد زيارة البلاد عقب اتفاقيات "أوسلو"، وبعد جهود متكررة نجح بالعثور عليها بمساعدة معارفها في طبريا، فدخل على صالون بيتها، حتى جاءت سيدة مسنة تلبس نظارة سميكة وفي أذنها جهاز سماعة والتجاعيد تملأ وجهها.. كانت لا تتكلم، ولا تسمع، ولا ترى، وكأنه جاء يبحث عن التعايش والسلام في شخص "بيرتا"، فوجد هذا السلام لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم.. هذا الحدث كان خلف كتابتي رواية "نهر يستحم في البحيرة".

وتحضر سمخ في «نهر يستحم في البحيرة» أيضاً، ولكن هذه المرّة عبر ما يُعرف اصطلاحاً عند المُحتلّين بـ»المتسلّلين»، وعند أصحاب الأرض، بـ»العائدين إلى ديارهم»، أو من آثروا العودة إلى أراضيهم، عاش من عاش، وقتل منهم من قتل برصاص الصهاينة، بعد أيام أو أسابيع على التهجير القسري، عبر حكاية الخال عبد الكريم الحمد، الذي حاول العودة إلى مسقط رأسه الذي هو ذاته مسقط رأس يخلف، فاستشهد على مقربة من قريته برصاص عناصر من العصابات الصهيونية التي شكلت ما بعد إعلان دولة إسرائيل على أنقاض الأرض الفلسطينية، جيش الاحتلال الإسرائيلي الذي يسمونه «جيش الدفاع».

وفي «ماء السماء»، أعاد يخلف الحياة إلى شخصيّات روايته الأولى، ولكن في الحيّز الضيق داخل المخيّم، في سردية محكمة ومدهشة، تنقل القارئ إلى عوالم المخيم، ليواصل مع تلك الشخوص حكاياتهم، وحيواتهم الجديدة كلاجئين لا أصحاب أرض، مع استحداث شخوص لها رمزياتها ودلالاتها العميقة كالطفلة «ماء السماء» التي يعثر عليها «أبو حامد» قرب «سمخ»، ويقرر وزوجته تبنيّها، فتبات ابنتهم الوحيدة، حيث لم يُكتب لهم إنجاب أبناء من صلبهم، بل كان قدرهم أن تكون «ماء السماء» ابنتهم من صلب الأرض الفلسطينية التي هجروها، وأخذوا معهم كوشاناً من لحم ودم.

وتتجمع شخوص من روايات يخلف في «جنّة ونار»، وبينهم «ماء السماء» التي كبرت في مخيم للاجئين الفلسطينيين بلبنان، وبدأت تتبع قطب المطرزات كبوصلة نحو العودة المنشودة إلى سمخ التي هي اسم من أسماء فلسطين الكثيرة عند يخلف، مسقط رأسه، ورأس الكثير من شخوصه، وهي رحلة سردية تسير فيها صاحبة اسم الرواية السابقة بحثاً عن أمها، أو عائلتها، بعد أن تجاوزت العشرين عاماً من عمرها بقليل، بحيث تلتقي شخوصاً لكل واحدة أو واحد منهم حكايته التي تحيل إلى زمن تحوّل اللاجئ إلى فدائي في النصف الثاني من ستينات القرن الماضي، لتعود في نهاية المطاف «متسللة» رفقة آخرين قرروا العودة إلى فلسطينهم، بعد أن علمت مصادفة أصلها وفصلها، فهي التي عثر عليها قرب سمخ كانت من «كفر كما»، وهي بلدة تقع في منطقة الجليل الأوسط، وقد تم إعادة تأسسيها في العهد العثماني، وتحديداً في العام ١٨٦٧ من قبل المهاجرين الشركس، ثم أصبحت تحت الاحتلال الإسرائيلي منذ العام ١٩٤٨.

و»يصعب أن يصدق القارئ أن ما يرويه يخلف عن ذاكرة قريته سمخ، التي تقع على الشاطئ الجنوبي لبحيرة «طبريا»، ليس شهادة معايشة واقعية لهذا الفضاء، بل مجرد تخيّل استرجاعي للمكان الذي وقع تحت نير الاحتلال الإسرائيلي في نكبة ١٩٤٨»، كتب المغربي نزار الغراوي في مقال بموقع «الجزيرة» الإلكتروني، في شباط من العام ٢٠١٢، مضيفاً: يذكر يحيى يخلف مع ذلك أن يوم الرحيل على العربات كان ممطرا بغزارة، وأن الطفل الذي كانه لم يميز بين ماء المطر على وجه أمه ودموعها المنهمرة من وقع الفقدان.. منذئذ تسكن وعيه السياسي وحساسيته الأدبية ونسغ نشاطه السردي، تراجيديا الأرض المسلوبة ومأساة اللجوء.

ويمكن اعتبار رواية «تفاح المجانين» (١٩٨٢)، «نوفيلا»، مدخلاً روائياً ساحراً لرباعية، نحو عالم سردي أكثر رحابة يكمل حكايات النكبة واللجوء والمخيّمات والحلم المتواصل بالعودة، وهي العوالم التي لم تغادر، ولو تأويلاً روايات يخلف حتى الحديثة منها، فثمة إسقاطات مهمة لا يمكن إغفالها في "راكب الريح" (٢٠١٧)، أو حكايات فلسطين العتيقة المجددة، على واقعها المعاصر، بل وواقع المنطقة، فاحتلال «الفرنساوي» ليافا، وتدمير مبانيها، وقتل سكانها، يجعلنا نتخيل جيش الاحتلال في محاولاته المستمرة لإفراغ فلسطين من أهلها، وما ارتكبته العصابات الصهيونية من مجازر وفظائع في العام ١٩٤٨.

الملهاة الفلسطينية

ولدت فكرة مشروع «الملهاة الفلسطينية» بعد حرب بيروت مباشرة.. هذا ما أكده الروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله في حوار نشرته جريدة "الأيام" الفلسطينية، في حزيران من العام ٢٠٠٩، حيث كانت هناك حالة من التمزق وشتات البندقية الفلسطينية في أكثر من مكان، وأكثر من صحراء في الوطن العربي،

وكانت لحظة قاسية بالنسبة لنا جميعاً باعتقادي.. في تلك الفترة، والحديث لنصر الله، قرأت عبارة لبنغوريون قال فيها: «ستمحى فلسطين برحيل كبار السن ونسيان الصغار».. على المستوى الإنساني كنت أرى أن العديد من كبار السن، الذين عاشوا الحكاية الفلسطينية منذ بداياتها، يرحلون.. هم الذاكرة والبشر ورائحة الأرض الحقيقية لنا، وهم من علمونا حب فلسطين، وحينما كانوا يتحدثون كنا نشعر وكأننا نشاهد هذا الوطن بأعيننا، لفرط قوة تلك الذاكرة الأشبه بشريط سينمائي، وكأنهم حينما هجّروا حملوا كل تفاصيل قراهم ومدنهم.

في البداية فكرتُ بكتابة رواية واحدة توثق للفترة ما بين دخول الإنكليز وحتى النكبة، ولكن تم تغيير هذا التخطيط مع الوقت، خاصة أنني بدأت أسجل وأوثق لعدد من حكايات وروايات كبار السن رجالاً ونساء، وكانت الحصيلة كبيرة جداً .. كلما كنت أتوغل في هذا المشروع أكثر كنت أشعر أنه أكثر اتساعاً من رواية واحدة مهما كانت مكثفة وكبيرة، خاصة أن الظروف التي وضعنا فيها كشعب فلسطيني، جعلتنا وكأننا شعوب فلسطينية، فظروف من يعيش في الضفة تختلف عن ظروف من يعيش في لبنان، أو الأردن، أو سورية، أو غزة، أو الأراضي المحتلة في العام ١٩٤٨، لذا كان لابد من أكثر من رواية لأحقق ما أريده للملهاة الفلسطينية كمشروع حياة بالنسبة لي، فكانت كل رواية وحدة مستقلة عن غيرها من الروايات، وأعتقد أن الاتجاه نحو تعدد الروايات ساعدت القارئ لانتقاء ما يريد دون الالتزام بقراءة رواية واحدة مطولة، ولقناعتي أننا لم نعد في زمن الثلاثيات والرباعيات والخماسيات في الرواية، خاصة أن القارئ ينزح نحو العوامل البصرية يوماً بعد يوم .. الاتجاه نحو أكثر من رواية أكثر وفاء وصدقاً للحكاية الفلسطينية، بعيداً عن ليّ أعناق الأحداث كي توصل إلى بعضها البعض، بطريقة قد توقع الروائي، ومهما كان حاذقاً، في افتعال ما أو حالة من عدم الصدق.

الملفت، ولا يزال الحديث لنصر الله، أن الرواية الأخيرة (وقتذاك) في سلسلة الملهاة الفلسطينية، وهي «زمن الخيول البيضاء»، كان يجب أن تكون الأولى وفق التسلسل الزمني، لكني انحزت في البداية إلى كتابة ما عشته وأعرفه بـ «طيور الحذر»، التي أتحدث فيها عن ذاكرتي في مخيم الوحدات، "تسلسلت الروايات حتى «زمن الخيول البيضاء»، العمود الفقري لمشروع الملهاة الفلسطينية.

"إذا وصلنا إلى ذلك الحد الذي نعتبر الحالة التي نعيشها مأساة نكون وصلنا إلى لحظة سوداء، ومبالغاً في سوادها، فنحن طوال الوقت أثبتنا أن لدينا قوة حياة استثنائية، وأننا قادرون على الحياة، ففي الوقت الذي تنتهي فيه المآسي دائماً بموت الأبطال وتلاشيهم، وضياع قضاياهم، فإن ما يحدث الآن هو أننا نعيش يوما بعد يوم هذه القضية ونتمسك بها .. شغلني كثيراً موضوع كلمة «الملهاة»، وخشيت إطلاق الاسم على هذا المشروع، فهذه الكلمة وضمن المفهوم الرائج في اللغة العربية تعني الكوميديا، لكن حينما بحثت عن جذور هذه الكلمة وجدتها أكثر اتساعاً من أية كلمة أخرى قد تطلق على الحالة التي نعيش،

فاللاهي إلى الشيء هو الذي لا يفارقه، واللاهي عن الشيء هو المتشاغل عنه بشيء آخر، ولهى بالشيء أولع به، والألهية هي الهدية الكبرى.. فبالتالي كلمة «ملهاة» هنا بدت لي كلمة جديدة في اللغة العربية، وكان من بين أهداف المشروع انتزاع هذه الكلمة من معناها الجامد والمجمد المتمثل بالكوميديا.. وهي بالتأكيد تعبر عن حلم وأمل بمستقبل أفضل، مع قناعاتي بأن الروايات لا تسوق أملاً مجانياً .. لست من المربّتين على الجراح، وإلا لكنت أضلل نفسي، وأضلل شعبي، فحياة الشعب الفلسطيني تحمل كل المعاني: هناك الجمال، وهناك الحب، وهناك الكراهية، وهناك الخيانات، وهناك البطولات الاستثنائية، والتعلق بالأرض والتسرب من حبها .. أعتقد أن رواية لا ترى البشر بصفاتهم كلها، تخون البشر وتخون موضوع الكتابة والحياة نفسه".

ويمكن اعتبار رواية «الأمواج البرية» (١٩٨٨) نقطة انطلاق مشروع «الملهاة الفلسطينية» لإبراهيم نصر الله، تلتها «مجرد ٢ فقط» (١٩٩٢)، ومن ثم «طيور الحذر» (١٩٩٦)، ف«طفل الممحاة» (٢٠٠٠)، و«زيتون الشوارع» (٢٠٠٢)، و«أعراس آمنة» (٢٠٠٤)، و«تحت شمس الضحى» في العام نفسه.

ولم تكن «زمن الخيول البيضاء» (٢٠٠٧) الأخيرة في سلسلة «الملهاة الفلسطينية»، فكانت رائعة «قناديل ملك الجليل» (٢٠١٢)، و«أرواح كليمنجارو» (٢٠١٥)، و«ثلاثية الأجراس» (٢٠١٩)، وضمّت: «دبابة تحت شجرة عيد الميلاد»، و«سيرة عين»، و«ظلال المفاتيح»، ف«طفولتي حتى الآن» (٢٠٢٢)، وقال عنها في حفل إطلاقها بالعاصمة الأردنية عمّان، وكنت بين الحاضرين في مقر دار الأهلية للنشر والتوزيع: "طفولتي حتى الآن" الصادرة عن الدار العربية للعلوم ناشرون: هي واحدة من الروايات القريبة جداً إليّ، وهي جزء أو تتمة لأعمال "الملهاة الفلسطينية"، لكنّها تتمة من زاوية أخرى، وأعني الزاوية الشخصية، وتتقاطع مع الواقع العام على مدار ستيّن عاماً.. بقدر ما هي رواية تتحدث عن الصعوبات الأولى والكثيرة في المخيّمات، بقدر ما هي عمليّاً رواية عن الحياة، ورواية عن الجمال، ورواية عن الحب.. أظنّ أنها رواية حبّ فعلاً، مضيفاً: قلت منذ فترة أنني أتمنى الخروج برواية حب عابرة للحروب، وكنت أحسد أولئك الذين كتبوا واللواتي كتبن روايات كهذه.. الحقيقة أنني لم أنتبه إلى أنني أنجزت روايتي هذه، وهي رواية حب، إلا بعد أن فرغت منها.. قد نكون محظوظين جداً إذا تبيّن لنا في يوم من الأيام أن أجمل رواية قرأناها هي حياتنا التي عشناها.

أما الأحدث في إطار سلسلة «الملهاة الفلسطينية»، فتلك الصادرة حديثاً جداً، وتحديداً صيف العام ٢٠٢٣، وأعني رواية «شمس اليوم الثامن»، وهي رواية قصيرة تدور أحداثها في العام ١٩٠٠، ويتضح فيها دور والدة نصر الله التي تعرف إليها القارئ في «طفولتي حتى الآن»، وهي رواية تصلح لكل الأعمار، وربّما كتبت بنفس روايات اليافعين، بحيث تصدرت غلافها عبارة «يسمح للكبار بقراءتها».

في حوار أجريته معه في العام ٢٠١٦، ونشر في جريدة «الأيام» الفلسطينية، وضمّنته كتاب «لاعب

السرد»، أجاب إبراهيم نصر الله، رداً على سؤال حول إبداعه في كتابة فلسطين والكتابة عنها، مع أنه لم يعش على جغرافيّتها: أولا من يستطيع القول إنني لم أُقِمْ فيها ذات يوم؟ أقول هذا لأنني أفاجأ بقراء يسألونني كيف عرفت الطريق بكل تفاصيله، بين قريتنا والناصرة، أو بين طبريا وحطين، وبعض من يسكنون في داخلنا الفلسطيني البحري زاروا عكا بعد قراءتهم قناديل ملك الجليل، فنظروا في وجوه بعضهم بعضا وقالوا: إبراهيم يعرف عكا أكثر منا. هذه مسألة تدعو لدهشتهم ولدهشتي أيضا. أظن أن الأمر مثل قصيدة الحب التي يقولها عاشق ما، فتصبح القصيدة الخاصة لعشاق بلا عدد.. لا أظن أن المسألة قائمة في القدرة على التخييل، إنها أعقد من ذلك بكثير، ولا هي قائمة حتى في تفاوت قدراتنا ككتاب في الكتابة، ثم إن الأمر له علاقة بسؤال أكبر، حول معايشة المكان ومعايشة الأشخاص، فبعضنا يعيش في المكان طوال عمره ولا يعرفه، ويعيش مع أشخاص ولا يعرفهم، وبعضنا يعرف المكان بمجرد المرور فيه، وبعضهم يعرفه وهو لم يره، كما يعرف البشر بمجرد أن يصافحهم. لا أتحدث عن شيء غيبي، بل عن إحساس عميق يمكن أن يتوافر لنا في لحظات ما، فنرى ونعرف، ونعيش كل ما اعتقدنا أننا لم نعرفه ولم نعشه.

وأضاف: في قناديل ملك الجليل، بنى ظاهر العمر دولة على الأرض، وعاش عمرا أطول من عمري، وكان علي أن أبني دولة على الورق ويراها القارئ وهي ترتفع حجرا حجرا، وكان علي أن أعيش خمسا وثمانين سنة، وأعيش أعمار وأحداث عشرات الشخصيات في فلسطين ودمشق والقاهرة ولبنان وإسطنبول. هي مسألة غريبة، ولكن الكتابة وحدها هي من تجعلنا نصدّقها، ونبكي خلال ذلك ونفرح وننتشي بنصر وننكسر في هزيمة، ونقع في الحب. هل هو الخيال وحده، بالتأكيد لا، مع أنه نعمة النعم التي حظيَ بها البشر.

كان المشروع في البداية رواية عن الفترة من العام ١٩١٧، دخول الإنجليز، إلى عام النكبة، وكنت بحاجة إليها كقارئ، فتشت عنها لأقرأها فلم أجدها، ولذا قررت أن أكتبها. لكن تلك الرواية كانت بمثابة الباب الذي ما إن فتحته حتى رحت أرى فلسطين قرية قرية ومدينة مدينة. فأدركت أن فلسطين أكبر من أن تحيط بها رواية، مهما كان حجمها.

من خلال العمل الطويل، الذي يمكن أن أسميه مشروع عمْر، ولدت فكرة الملهاة، وكلما اكتشفت شيئا جديدا كنت أحس بأنني كنت بحاجة لهذه الروايات إنسانيا، أكثر وأكثر. هي أشبه بالحب الذي كلما ارتوينا منه زدْنا عطشا. وفي النهاية اكتشفت، بعد صدور كل رواية، أنني لست وحدي الذي يحب أن يقرأها، لحسن الحظ، ولذا أحس بسعادة كبيرة وأنا أرى الشابات والشباب، في فلسطين والعالم العربي، يعيشون فلسطين بكل هذا الحب كما عشتها، فأجمل ما حدث لي كإنسان وكاتب أنني رأيت بعيني مدى تعلق الناس بهذه الأعمال، في حياتي، ذلك شيء أغبط نفسي عليه. وأغبط نفسي لأنني عشت، حقا، ٢٥٠

سنة من تاريخ فلسطين الحديث، من القرن الثامن عشر حتى اليوم، وبعض الفترات عشتها في روايات موازية داخل الملهاة، أكثر من مرة.

بالنسبة لضم «مجرد ٢ فقط» للمشروع، فلأنها في صُلب الحكاية الفلسطينية، وبغيرها تكون «الملهاة» ناقصة، لأنها تعبّر عن حكايات المذابح التي ارتكبت ضد شعبنا، ولأنني لن أستطيع العودة للكتابة عن الموضوع ثانية، أما «أرواح كليمنجارو»، فهي من المشروع أصلا، ولكنها حين صدرت عن دار نشر ثانية، غير التي نشرت بقية روايات «الملهاة»، حدث خلاف حول إمكانية صدورها تحت عنوان تملكه دار نشر أخرى. في الطبعة الثانية حسمنا الأمر باتفاقنا أن يوضع اسم «الملهاة الفلسطينية» على صفحتها الثالثة، مع عنوانها الداخلي.

وختم حينها حول «الملهاة» بالتأكيد مجدداً: رأيت البشر أولا، ويمكن أن أضيف رأيت البشر قبل أن أرى الحقل والحجر، وكنت أدرك أن فلسطين إنسان، وكنت أدرك أنني كقارئ، حين أقرأ رواية، أحب شخوصا وأكره شخوصا، أنني أقرأ قصصهم ومشاعرهم، ومعاناتهم، وإذا تم ذلك، أحبّ وطنهم. وهذا ما فعلته، أن أجعل القارئ يعرف الفلسطيني ويعيش حكايته، ويفرح لأفراحه ويحزن لأحزانه، كي يحب فلسطين تلقائيا، وحتى قبل أن يفكر في ذلك.

"نكبات" عاطف أبو سيف

تشكل النكبة وحياة المخيم وخاصة في قطاع غزة المحاصر، واستعادة يافا التي هجّرت عائلته منها إلى مخيم جباليا، المحور الارتكازي في روايات عاطف أبو سيف.

ففي رواية «حياة معلقة»، المكان مخيم في قطاع غزة، والزمان آخر ربع قرن، وما تخللها من تحولات، حيث الانتفاضة الاولى ثم فترة دخول السلطة الى غزة حتى انتخابات العام ٢٠٠٦، وما تلاها من تغيير في السلطة وما ترتب عليه هذا التغير اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، فيما لم يغفل أبو سيف فيها، التطرق الى جميع نواحي الحياة تقريباً في غزة، وتحولاتها على مدار أكثر من عقدين.

ويعرج أبو سيف على مآسي النكبة دون ندب أو عويل، وبعيداً عن الشعاراتية والخطابية، ففي العام ١٩٤٨ ولدت شخصية الرواية المحورية «نعيم»، والذي أجبرت أسرته ككثير من الفلسطينيين على الهجرة خشية القتل على يد العصابات الصهيونية، لتتشتت العائلة ما بين مخيمات الاردن والضفة ولبنان، فيما استقر ووالدته في أحد مخيمات غزة.

كبر نعيم وترعرع في المخيم، وبعد زواجه انجب ولدين وابنتين قبل وفاة زوجته بسنوات قليلة، الا ان العائلة تفرقت بسبب ظروف الحياة الصعبة في غزة، فالابن البكر «سالم» سجن في زنازين الاحتلال وهو

في العشرين من العمر، والبنت الكبرى «سهى» تزوجت وسافرت برفقة زوجها الى السعودية، أما الابن الاصغر «سليم»، والذي درس في جامعة بيرزيت قرب رام الله، كما هو الراوي أبو سيف، قرر اكمال دراسته في ايطاليا، ليبقى الوالد «نعيم» مع ابنته الصغرى يحلم بـ»لمّة العائلة على طبلية واحدة».

بدأت الرواية بجنازة «نعيم» صاحب المطبعة الوحيدة في المخيم، والذي باغته جنود الاحتلال برصاصة اثناء فتحه لمطبعته في احد الصباحات، وانتهت بجنازة الشيخ خليل، الذي جاء من مكان مجهول الى المخيم وبنى بيتاعلى تلة محاذية له، كان يتشاءم منها سكان المنطقة، فقد قصف الاحتلال خيم ساكنيها من اللاجئين خلال حرب العام ١٩٤٨، قبل أن يغادرها الجميع عقب قنص ضابط في جيش الاحتلال فيها، إلا أن الشيخ خليل بنى بيتا له عليها، قبل أن يتبعه بعد ذلك بعض سكان المخيم، والذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة.

"نعيم» الذي ولد في الحرب ومات في الحرب، لم يعش كما ينبغي لإنسان عادي أن يعيش، فقد فرقته واخوته حرب، ثم فرقته الظروف عن أولاده، أما الرواية فرصدت تحولات الحياة في غزة باقتدار المتمرس، دون إغفال مفاصل تاريخية أساسية في حياة الشعب الفلسطيني، من ثورة العام ١٩٣٦، والنكبة، والحروب المتعددة، ومن بينها حرب حزيران التي انتهت باحتلال ما تبقى من أرض فلسطينية، وبينها قطاع غزة، حتى قيام السلطة الفلسطينية عقب اتفاقيات أوسلو، وحقبة ما بعد الانقسام، بأسلوب سردي شيق، يكشف للقارئ العربي، وحتى للكثير من الفلسطينيين، العديد من تفاصيل الحياة المجهولة في غزة، كما عرج الكاتب الى جغرافيا وتاريخ تسعى إسرائيل إلى محوه منذ احتلال العام ١٩٤٨، عبر استرجاعات زمنية، ومفارقات سردية، وحكايات متداخلة ترسم بصورة مفصلة عالماً مدهشاً تتفاعل شخوصه وتتجادل وتصارع في إعادة تركيب لمفهوم الهوية، والبطولة، والحياة، بين دفتي رواية تبدأ بجنازة وتنتهي بجنازة، رغم ما بينهما من حيوات غنية.

وبمشهد فنتازي لشبح يظهر على شاطئ غزة يمدّ يده ظاهراً للناس عملاقاً سرعان ما تتجمهر الحشود حوله في المكان، قبل أن يبدأ «الطراد» الإسرائيلي بإطلاق النار عليهم وعليه، استهل أبو سيف روايته «الحاجة كريستينا».

قد يبدو للوهلة الأولى أن لا علاقة للشبح هذا بتكوينات الرواية وشخوصها، ولكن مع طي الصفحة تلو الأخرى، وعلى مقربة من الصفحات الأخيرة للرواية، يكتشف القارئ أن الشبح الذي هو رمز اختفاء أو ظهور معنوي أو حتى حقيقي، حسب التأويل الفردي للقارئ في تعاطيه مع مفهوم الشبح، إنما يرمز بصورة ما لاختفاء «فضة بنت عوني السعيد»، والتي هي ذاتها «الحاجة كريستينا»، عند عودتها على «أسطول الحرية» الشهير إلى غزة قادمة من لندن، دون أن يبرز مصيرها، وكأنه أراد القول بأن «كريستينا» حققت عودتها إلى حيث حكاياتها وحيواتها في القطاع، ولو «شبحاً» أصرّ الإسرائيلي ويصرّ

على مطاردته في كل حين.

كانت فضة في يافا وهي في الحادية عشرة من عمرها، وعادت كريستينا من لندن بعد أحد عشر عاماً أُخرى .. هي حكاية فلسطينية عايشت الاحتلال البريطاني لبلدها، والذي يفضل البعض تسميته بالانتداب، كما عاشت تداعيات نكبتها الخاصة، وإن كانت لم تعش النكبة، فطلقات العربات العسكرية للعصابات الصهيونية التي احتلت ذاكرتها، وشردت أهلها، لم تكن سريعة لتنال منها، هي التي هرولت قبل تلك التراجيديا بعام إلى لندن برفقة البريطاني جورج الذي أقنع والدها باصطحابها في رحلة علاجية إلى عاصمة الضباب.

وعندما كانت كريستينا جورج الفلسطينية في لندن، تحولت في أعوامها التي جاوزت العشرة أعوام بعام إضافية إلى بريطانية، بعد أن منحها صديق والدها اسمه، وأوهم كل من حولهما بأنه أنجبها من أم فلسطينية .. تغيرت اللكنة فاللغة، كما تغيرت الثياب وتسريحة الشعر، والكثير منها، فما بين يافا ولندن اختفت فضة، التي بدأت رحلة بحث عن فلسطينيتها فيها، بعد رحيل الأب البريطاني المفترض، وعدم تقبل أسرته لها .. كانت أشبه برحلة تيه إلى مخيم في غزة خالت أنها قد تعثر على عائلتها فيه، وبالتالي على ما تبقى من بحر يافا في شراينها هناك.

حطت ابنة الثانية والعشرين الرحال في المخيم، الذي احتضنها وكل من فيه بدفء تلك المرحلة من خمسينات القرن الماضي، بعد أن حسمت مسألة الشك بكونها ابنة عوني وأسرته الذين استشهدوا في قصف خلال رحلة اللجوء من يافا لصالحها.. تلك المرحلة التي رغم قربها الزماني من النكبة، وآثارها البارزة في تحولات على أكثر من صعيد شهدته غزة، كانت أكثر انفتاحاً وتقبلاً للأغيار، وإن لم تكن هوية كريستينا الملتبسة تضعها في خانة الأغيار تماماً، فهي ابنة الشهيد، ابنة يافا، هي الفلسطينية إذاً رغم جواز سفرها البريطاني، واسمها الجديد .. وكأن أبو سيف هنا يحيل القارئ إلى مقارنة ما كانت تعيشه غزة وجل فلسطين، إن لم يكن كلها، من حالة انفتاح في مختلف المجالات لم تعد تعيشها اليوم، وخاصة في القطاع المبتلى بابتلاءات كثيرة ومعقدة.

في وقت قصير عادت كريستينا لترتدي ثياب فضة، خاصة بعد اختلاطها المتواصل مع صديقات طفولتها ممن نجون من الحرب، بل إنها عاشت كغيرها حالة حب مع يوسف الفدائي من حملة سلاح المقاومة وقتها، حتى قيل في المخيم «سرقت الإنجليزية قلب الرجل»، هي التي أنجبت بعد تعثر دام أربع سنوات وحيدها ياسر، من زوجها الذي أحبت، وكانت خاتمته شهيداً في العام ١٩٦٧، الذي شهد أيضاً احتلال قطاع غزة وباقي الأرض الفلسطينية، فيما اصطلح عليه بعض المؤرخين اسم «النكسة»، تاركاً معشوقه الصغير في الثالثة، الذي يتحول في العشرينيات من عمره إلى فدائي في بيروت، سرعان ما تختفي آثاره، وتتعثر هي بين أنباء متضاربة حول مصيره كشهيد في العام ١٩٨٢، أو ناج حط الرحال في أوروبا.

وليس من الصعب، الربط ما بين حكاية فضة أو كريستينا التي تتواصل حتى الصفحة ٣١٢، وما بين المأساة الفلسطينية، بل يمكنني التأويل بأنها هي ذاتها فلسطين، حيث شطبت عائلة عوني من سجلات الأحياء على يد العصابات الصهيونية العام ١٩٤٨، إلا منها هي الناجية الفلسطينية باسم وجنسية بريطانيتين، كما خسرت زوجها في النكبة الثانية العام ١٩٦٧، لتتوالى النكبات وتفقد أثر ابنها في بيروت عقب الاجتياح الإسرائيلي العام ١٩٨٢، مع التباس مصيره الذي يأتي ليراكم التباس هويتها الشكلي، كحال الملايين ممن هجّروا إلى كل أصقاع العالم .. وهنا كثف أبو سيف من سرد تفاصيل تاريخية عاشتها فلسطين، عبر حكايات كريستينا، في مرحلة الاحتلال البريطاني، فالإسرائيلي، حد التكرار، الذي لربما هدف منه التأكيد على قتامة تلك المرحلة السوداوية المتواصلة، وإن كنت أرى أنه كان بإمكانه التخلص من بعض هذا التكرار هنا أو هناك.

ومن الجدير بالذكر أن كاتب «الحاجة كريستينا» أنهى روايته بمفاجأة لا أعتقد أنها قد تخطر على بال أي قارئ، فاتحة الباب موارباً على فصول لم تكتب بعد، ولا أدري إن كانت ستكتب في رواية «كريستينا»، ورواية فلسطين التي لا تزال على قيد الحياة، رغم موت الكثير الكثير من أبنائها في نكباتها المتلاحقة، ففلسطين كما كريستينا «نجحت في أن تظل واقفة على رجليها».

وتبدو المقادير مغايرة هذه المرة .. شيء من البوليسية بقالب كوميدي قد يكون أسودَ كحال الأوضاع في قطاع غزة، أو رمادياً كالدخان المنبعث من المنازل بعد كل عملية قصف، أو من الحرائق المرافقة لـ»مسيرات العودة»، مع شيء من الفنتازيا، وكثير من الإسقاطات والاستعادات التاريخية للجغرافيات والأحداث والشخوص، التي غابت أسماء المحوريّين منهم، وحضرت أوصاف من يدورون في فلكهم، فيما حافظ «المخيم» على اسمه دون ملحقات، كما جرت العادة عند الروائي الفلسطيني عاطف أبو سيف، لتكون النتيجة بعد أن يضرب الكلمات في خلاطه، ويجعلها تنضج على نار هادئة، قبل أن يضمن استواءها في فرن السرد السلس، رواية تحمل اسم «مشاة لا يعبرون الطريق».

حادث غامض يبدو كدهس شاحنة لثمانيني، لا يعرفه أحد، وليس له أقارب على ما يبدو، كما لم يحسم أي من الشهود حقيقة ما حدث معه بالفعل، لا «صاحب محل الفاكهة»، ولا «سائق التاكسي»، ولا «الفتاة العائدة من الجامعة» أو «طالبة الجامعة»، ولا «الشاب الذي كان يجلس على شرفته»، ولا حتى «الشرطي» غريب الأطوار، ولا «الصحافي»، ولا غيرهم في «عالم الحاضرين» .. وسط حالة من الشك المتبادل بين كل المتواجدين حول السرير، وحالة من التنافس للحصول على معلومة لتقديمها كسبق صحافي، أو تضمينها في تقرير أمني.

وفي إطار الحكاية المتخيلة للرجل العجوز، وتتواصل منذ ما قبل النكبة إلى وقت الحادث المفترض، يرفض هذا المسن الزواج، ويقرر مواصلة البحث عن حبيبته أو خطيبته سلوى في غزة، فيعمل ساعياً للبريد،

مع أنه كان بإمكانه أن يعمل في وظيفة أفضل بعد أن أنهى «المترك» (شهادة كان يحصل عليها الطالب الفلسطيني بعد تجاوزه للصف التاسع)، وأكمل دراسته في القدس .. وفي خلال عملية البحث هذه، وفي خضم المبنى المتخيل للحكاية، يلتقي هذا المسن مجهول الهوية، في أحد مقاهي «المخيم» بالشاعر معين بسيسو ورفيقيه محمد حسيب القاضي وسعيد فلفل وآخرين، فكانت جلسة مشتركة بينهم، حيث «الغضب والشعر والحلم» كانت «تتقافز من الأفواه، فتحمل معها المزيد من الحنين، والمزيد من لهب الشوق، كما الحسرة»، حتى أن معين سأل المسن عن سلوى وما إذا وصلته رسائلها أو أي أخبار عنها أو منها.

وفي الرحلة المتخيلة للصحافي حول المسن الذي يرقد في السرير، ويحيط به أبطال «عالم الحاضرين»، تظهر الدراجة الهوائية كرفيقة درب له منذ أن كان ساعياً للبريد ويلتقي بأبطال «عالم الغائبين»، وهم كثر، وفي جغرافيات وأزمنة متعددة، فيما كان للمحفظة بنيّة اللون حكاية لها علاقة بذلك اللقاء الافتراضي ما بين المسن الذي لم يكن مسناً تماماً، ووالده، بعد أن فرقتهما النكبة، فكانت تلك المحفظة هديّة الأب إلى ابنه.

وما بين «عالم الغائبين» و«عالم الحاضرين» تنقلت الرواية بنا مع صفحاتها إلى ماض تمحور حول النكبة وتداعياتها، وحاضر في غزة حيث تجار الأنفاق، والمتلونين من أصحاب اللحى الجديدة، وما طرأ على الغزيين الجدد والقادمين إليها منذ عقود، من تحولات، حتى على مستوى الأحلام، فحلم العودة، وإن لم يسقط، نراه يستبدل بحلم السفر والهجرة من واقع بائس، أو بالحصول على تحويلة طبية إلى الضفة الغربية، أو اللحاق بعريس في تونس، فيما لم يغب الانقسام وتداعياته في الرواية أو عنها، هي التي تحدثت عن صراعات الفريقين الأبرز على الساحة الفلسطينية، وإن لم يسمهما صراحة، وبذلك يكون عاطف أبو سيف، وإن خرج على المألوف في جهة التقنية وأسلوب السرد والتناول، إلا أنه واصل سرد حكايات الماضي في بلاد ما قبل النكبة، والحاضر الصعب في غزة المنكوبة على أكثر من صعيد، كما في روايتيه السابقتين «حياة معلقة»، و«الحاجة كريستينا».

أما "كابوتشي»، فهو الناجي الوحيد من الغياب في «الجنّة المقفلة»، رواية عاطف أبو سيف الأحدث، ويواصل فيها مشروعه السردي حول يافا، والمخيّم، والعودة، متسلحاً بحكايات ورثها، كما شخصيات روايته هذه، وما سبقها، عن الوالدين، أحدهما أو كلاهما، أو أفراد العائلة ممّن هم أكبر سناً، ومنتصراً، كعادته، لحيوات العاديّين غير العاديّين حين يصنعهم من لحم ودم، بحيث تعيش معهم، وتعايش يومياتهم، وتبكي حين يبكون أو يحبسون دموعهم بقرار مسبق أو آني، وتضحك حين يقوم أحدهم بما يدفع للقهقهة، فهو، وبسلاسة العارف، يزج بنا إلى عوالم صنعها وعاشها وأرادنا أن نعيشها معه، ومع شخوصه، وهو ما كان.

لا يمكن اختصار الرواية بأنها حكاية «كابوتشي»، وإن كانت هي المتكأ الأساسي، لهذا «الذي جاء رغماً

عن أمه، وكانت تريد له ان يأتي في مدينة أحلامها»، بل هي جزء من حكاية شعب بأكمله لا يزال يعيش تداعيات ما تعرض له من تهجير وإحلال يتجاوز «النكبة» بكثير، عبر عائلة كان الغياب قرارها القسري أو الاختياري، ولم يبق منها إلا «عبد العزيز» الذي حمل اسم عمّه الشهيد في يافا، وكان رفيق نوح إبراهيم إبّان الانتداب البريطاني، قبل أن يُعرف باسمه الحركي كغالبية الفدائيّين، أي «كابوتشي»، وكان أن كُنّي به في العام ١٩٧٤ حين اعتقلت سلطات الاحتلال الإسرائيلي المطران الفدائي صاحب الاسم الفعلي.

و»العودة» هنا هي الثيمة المحورية للرواية، كما كانت في روايات سابقة لعاطف أبو سيف، لا سيما «الحاجة كريستينا»، وإلى درجة كبيرة في «حياة معلقة» و»حصرم الجنّة".

ويستحضر أبو سيف «كريستينا» في روايته الجديدة في ظهور عابر، واستعادة ذكية، تربط «الجنّة المقفلة» بغيرها من مكونات مشروعه الروائي منذ البداية.. «كريستينا» التي لم يعد ابنها إلى غزة، «بعد أن خرج للتعليم في الخارج. التحق بالثورة، واختفت آثاره بعد حصار بيروت".

وتتعدد صور وأشكال «العودة» في الرواية ما بين متخيلة ومشتهاة، وما بين ممكنة ومستحيلة، كما تتأرجح ما بين رغبة وتمنع أو حالة ملتبسة بينهما.

"الجنة المقفلة» رحلة روائية بانورامية مكثفة، أشبه بقصص قصيرة شكلت مجتمعة رواية متكاملة، بحيث منحت القارئ استراحات مهمة، بعيداً عن الفذلكة والاستطالات غير المبررة.

يمكن التعاطي معها كرواية منفصلة، أو كجزء آخر من سلسلة روايات عاطف أبو سيف، التي ترمي بك إلى البحر اليافيّ حين كان يتكلم العربية بطلاقة، وإلى حيث دور السينما، وبيارة العائلة، والمنزل في حي النزهة، وأغنيات عبد الوهاب وليلى مراد التي بات يسكنها كلها الغرباء.. رحلة تطارد أحلام الأم التي ورثها «كابوتشي» المناضل الذي بات موظفاً «عادياً» ما «بعد أوسلو»، ذلك الاتفاق الذي قالت الأم عن تبعاته ذات مرّة: «عرفات راح يرجع، بس ما في سلام».

في جنة الأم المقفلة، «ثمة حكايات عن رحيل وفقد وانتظار تتدافع وتتزاحم، فتسرقها من الوقت وتسرق الوقت منها»، غير متناسية ذلك «الكابوس حين حملتها أقدامها من يافا إلى غزة على طول الطريق الساحلي»، بحيث «لم يخطر ببالها أسوأ من تلك الرحلة الجماعية مع أطفالها في أرض غريبة (...) لكن أن تعصف الرياح بشراع المركب فترمي كل فرد منهم في جهة، فهذا ما لم يخطر على بالها، حتى وهي تغلق باب البيت في يافا فيما القذائف القادمة من تل أبيب تهدم البيوت على رؤوس ساكنيها»، أما جنة «كابوتشي» فهي مشرعة على الحلم بالعودة، ولو كان متخيلاً، فبالرغم من تجاوزه الستين، إلا أنه ظل «وحده من يحافظ على طقوس الانتظار، ويمسك بآخر فتيلة لإشعال السراج»، مع أن الأبناء والبنات خرجوا «فرداً فرداً، شخصاً بعد آخر، كل له حكايته، وكل له سببه للخروج وحجته للغياب».

من أدب المنفى

وتحضر النكبة بشكل مباشر أو غير مباشر في روايات الجيل الثالث من الفلسطينيين بالمنافي، سواء لاجئين كانوا أم نازحين، مُهجّرين أم مهاجرين، ففي رواية "الباريسي» ترصد الفلسطينية البريطانية إيزابيلا حمّاد الأولى، حكاية مستوحاة من حياة جدها الأكبر في نهاية الإمبراطورية العثمانية وصعود القومية الفلسطينية.

وكما جاء على غلافها الخلفي في الترجمة العربية لها، الصادرة عن دار التنوير للطباعة والنشر في بيروت العام الماضي، فإن رواية «الباريسي» تلقي الضوء على حقبة كبيرة الأهمية من التاريخ الفلسطيني، من خلال رحلة شاب فلسطيني وحبّه، ابتداء بدراسته في فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى حتى رجوعه إلى فلسطين، عشية نضالها من أجل استقلالها.. على خلفية مشهد التغيرات السياسية التي لا تزال ترسم معالم الشرق الأوسط، تستطلع رواية «الباريسي» أسئلة الهوية والسلطة، والحب الباقي، وما للماضي من قدرة عجيبة على إيقاه الاضطراب في الحاضر.

في حوار ترجمه موقع «القنطرة» الإلكتروني، ونشر في أيار من العام ٢٠٢١، قالت حمّاد: تجري أحداث قصتي قبل قيام إسرائيل، وبالتالي فهي لا تعالج مواضيع الاحتلال والاستعمار المستمر إلى اليوم، ولكن بطريقة ما، فهذا في حدِّ ذاته استفزازي، بما أنّ جزءاً من سرديتهم القومية يقوم على أنّ الأرض كانت خالية حين وصلوا إليها.. ومع ذلك فقد كان هدفي الأساسي أن أكتب قصة عن الفلسطينيين. تاريخياً، لطالما أسكِتت أصوات الفلسطينيين في الغرب، ولا يزال هناك قدر كبير من الحذر، لا سيما في أميركا، حول موضوع حياة الفلسطينيين ونضالهم وآرائهم.. إنه أمر ملموس بالتأكيد، لذلك فأنا محظوظة جداً لوجود ناشرين داعمين لي.

وأضافت: الكتابة حول «ما كان يمكن أن يكون» قد تبدو مستحيلة، إذ تطغى عليها المعرفة التي نملكها جميعنا حول ما حدث. أي شيء تكتبه عن الماضي التاريخي يتأثر بالحاضر الذي تكتب منه، ومع ذلك، في روايتي، شكّل ذلك مفارقة درامية. فالرواية لا تدورُ حول النكبة، بيد أنّ النكبة في الوقت ذاته هي محور الرواية، لأن القارئ يعرف أنها ستحدث.

أما روايتها الصادرة حديثاً بالإنكليزية تحت عنوان «ادخل أيها الشبح»، وأطلقتها في رام الله ضمن فعاليات احتفالية فلسطين للأدب ٢٠٢٣، وتحديداً في أيّار، فلا تخرج عن محاكاة أجواء النكبة بشكل أو بآخر، عبر حكاية سونيا، وهي ممثلة عادت إلى موطنها الأصلي فلسطين، وتحديداً حيفا، لزيارة شقيقتها الكبرى حنين، وذلك بعد أن مرّت بعلاقة غرامية كارثية مع أحد المخرجين المسرحيين.

الشقيقتان، وُلدتا في لندن لأب فلسطيني وأم هولندية، وكانت عائلتهما تقضي كل صيف في حيفا، وفي منزل أجدادهم بالتحديد.

وبينما اختارت حنين التدريس في الجامعة بتل أبيب، بقيت سونيا في لندن للتركيز على حياتها المهنية في التمثيل، وعند عودتها، اكتشفت أن علاقتها بفلسطين هشة وعميقة وجديدة في الوقت نفسه.

تشعر سونيا بالمنفى منذ طفولتها، ومن البلد نفسه، وهي غير متأكدة من شرعية انتمائها وتستاء مما لم تخبرها به أسرتها.

في حيفا، تعرّفتْ سونيا على صديقة لشقيقتها تدعى مريم، تعمل في المسرح.. مريم، طلبت من سونيا تأدية دور مهم في النسخة العربية لمسرحية شكسبير «هاملت» من أجل عرضها على مسرح بالضفة الغربية، وهي خطوة شكّلت تحدياً غير مسبوق من نوعه بالنسبة للممثلة، يتمثل في العمل تحت صوت رصاص جيش الاحتلال الإسرائيلي، الذي يعدّ المعضلة الكبرى التي يواجهها الممثلون والفنانون والمبدعون الفلسطينيون، علاوة على مشاكل التمويل.

وتبدو الأمور أكثر وضوحاً في تجربة الروائية الفلسطينية الأميركية سوزان أبو الهوى، ففي روايتها الاولى «بينما ينام العالم» وثقت رحلة أربعة أجيال من عائلة فلسطينية وكيف تحولت حياتهم المسالمة الى مأساة في الشتات بعد ترحيلهم قسراً عن قريتهم في العام ١٩٤٨.

وتضيف أن فكرة الرواية تعود إلى رواية قصيرة للروائي غسان كنفاني عن طفل فلسطيني عثرت عليه أسرة يهودية في منزل استولت عليه العام ١٩٤٨ وتولت تربيته، وتعني «عائد إلى حيفا». وتبدأ أحداث الرواية العام ١٩٤١ قبل النكبة.. في هذا العام توثقت صداقة بين الفتى الفلسطيني حسن والفتى الالماني اري بيرلشتاين وهو ابن أستاذ ألماني فرّ من طغيان الحزب النازي في بلاده واستقر في القدس حيث استأجر بيتاً صغيراً يملكه وجيه فلسطيني.

ولكن اري بيرلشتاين سيغادر قبيل النكبة وإعلان دولة إسرائيل لدراسة الطب، ويقول: الوضع سيء جداً يا حسن. لدى الصهاينة كميات كبيرة من الأسلحة.. لقد جندوا جيشاً هائلاً من اليهود الذين يصلون على متن السفن كل يوم.. لديهم عربات مدرعة بل طائرات.. سوف يستولون على أراض.. لقد شنوا في جميع أنحاء العالم حملة تدعي أن فلسطين. أرض بلا شعب، وسوف يجعلونها وطنا قوميا لليهود. وتعتمد المؤلفة، كما قالت في الخاتمة وسجلت في قائمة المراجع في نهاية الرواية، على أحداث وإشارات ووقائع تاريخية منها «ثورة العام ١٩٣٦"، ومحاولات اقناع الرئيس الأميركي الاسبق هاري ترومان الذي تولى الحكم بين العامين ١٩٤٥ و١٩٥٣ الاعتراف بدولة يهودية في فلسطين ودعمها، وكيف تغير اسم البلاد بعد خروج قوات الاحتلال البريطاني في أيار ١٩٤٨ «من فلسطين إلى إسرائيل»، وما تلا ذلك من أحداث

منها أن «قرى سويت بالأرض» على يد قوات من العصابات الصهيونية التي شكلت فيما بعد الجيش الإسرائيلي.

تعلق الرواية أن العام ١٩٤٨ «سقط في فلسطين من الرزنامة الى المنفى، ليصبح بدلاً من ذلك ضباباً لا نهاية له، كما تسجل اغتيال السويدي الكونت فولك برنادوت، وهو الوسيط الدولي الذي عينته الامم المتحدة لاقتراح حل للصراع، واغتيل «على أيدي إرهابيين يهود» في أيلول من العام ١٩٤٨، بعد أن اقترح وضع حد للهجرة اليهودية.. وقال :ستكون جريمة ضد مبادئ العدالة الاساسية إن حرم هؤلاء الضحايا الابرياء للصراع حق العودة الى ديارهم في حين أن اليهود المهاجرين يتدفقون الى فلسطين بالفعل.. هم على الأقل يشكلون تهديداً بخطر إحلالهم الدائم مكان اللاجئين العرب الذين كانوا يضربون بجذورهم في الارض منذ قرون. والرواية التي تستعرض تاريخ الصراع وصولاً الى العام ٢٠٠٣، تستعين بالوثائق وصفحات من كتب منها «صعود فلسطين وسقوطها» للأميركي نورمان فنكلشتاين، إضافة الى شعر عربي منذ امرئ القيس حتى توفيق زياد ومحمود درويش.

وابو الهوى، التي منعتها سلطات الاحتلال من دخول فلسطين أكثر من مرّة، رغم أنها تحمل الجنسية الأميركية، تواصل سرد النكبة بأشكال مختلفة، ففي روايتها الأحدث "ضد عالم بلا حب» والمقسمة إلى سبعة أقسام، كل منها يبدأ بمشهد من مكعب «الأعجوبة التكنولوجية»، حيث تم سجن نهر في ختام محاكمتها، وهو أي المكعب، زنزانة انفرادية آلية بالكامل، ما جعلها «مشهورة في «الدوائر الأمنية» وشركات السجون الخاصة وشركات تكنولوجيا المراقبة.

والدة نهر، كانت لاجئة من حيفا، وكانت حاملاً عندما جعلتها إسرائيل مرة أخرى لاجئة العام ١٩٦٧، إذ كانت تهرب مع زوجها عبر نهر الأردن عند جسر اللنبي الذي انهار.

"أخبرتني أمي: دعوت الله عندما عبرت أنا ووالدك النهر، وعقدت صفقة مع النهر.. قلت إنني سأسميك على اسمه إذا لم يبتلع أيا منا. لكن أن تسميني الأردن سيكون غريبا جدا، هكذا حصلت على اسم نهر".

نشأت نهر، كما سوزان أبو الهوى في الكويت، وربطتها علاقة مع امرأة كويتية مسنة تُدعى أم براق، تدير عملا للدعارة.. تقترب منها أم براق بعد رؤيتها ترقص في حفل زفاف، ومع الوقت تنضم نهر، دون تفكير، إلى المجموعة لتبتزها أم البراق للبقاء، ثم تقرر استخدام دخلها من هذه الأنشطة ووظائفها الأخرى لإلحاق شقيقها بالجامعة.

وفي ٢ آب ١٩٩٠، أرسلت أم براق نهر للرقص في حفلة لضباط الجيش السعودي، حيث تم إنقاذها في النهاية من اغتصاب جماعي عندما غزا العراق الكويت، ورحلت الأسرة إلى الأردن لاجئة مرة أخرى.

تلاحظ نهر أن «الانتقال من مكان إلى آخر هو مجرد شيء يتعين على المنفيين فعله.. مهما كان السبب،

فإن الأرض ليست ثابتة تحت أقدامنا".

في حالتها، بالطبع السبب هو إسرائيل، التي، بالإضافة إلى اغتصابها ماديا للأرض من تحت أقدام الفلسطينيين، سعت أيضا إلى القضاء على مفهوم الذات الفلسطينية، وهو جهد ليس للقضاء المبرم على المساحة التي يعيش فيها الفلسطينيون فحسب، بل أيضاً للقضاء على حقهم في البقاء في المقام الأول، ولسوء حظ إسرائيل، لا يتنازل البشر عن هذا الحق بسهولة بالغة.

في عمّان، ووفق تقرير نشره موقع قناة «الجزيرة» الإلكتروني في آب من العام ٢٠٢٠، تصنع والدة نهر لنفسها اسما بتطريز أثواب الزفاف، ما دفع الابنة إلى التفكير: «كان عليّ أن أصبح شخصاً آخر، شخصاً خالياً من الخزي والاغتصاب والنفي، لأقدّر تماما أن والدتي، وهي أرملة بسيطة حاصلة على تعليم ابتدائي، كانت فنانة غير عادية.. كانت والدتي صانعة للجمال، وحافظة للثقافة والتاريخ».

يأتي زفاف نهر الثاني من بلال بعد اتفاقيات أوسلو العام ١٩٩٣، والتي تسمح لنهر باستعادة وثيقة هويتها الفلسطينية والسفر إلى فلسطين لتأمين طلاقها من زوجها السابق.

وتبدأ عودتها إلى الوطن بالتحقيق العقابي الإجباري والانتظار لست ساعات على الحدود الأردنية الفلسطينية، وبعد ذلك تحتضن فلسطين بشكل أو بآخر.

"ذكريات رحلات الطفولة والقصص من أفراد الأسرة والجيران، حتى تلك التي اعتقدت أنها قد غادرت ذاكرتي.. كانت جميعها هناك لتحييني، وتغمرني بعد خروجنا الجماعي من هذا المكان حيث القصص تذهب وتعود».

وتتابع أن عملية العودة هي استعادة للأرض والتاريخ والهوية، وتأكيد على أن إسرائيل حاولت جاهدة القضاء عليها.. «هنا حيث بدأنا. حيث وُلدت أغانينا، ودفن أجدادنا.. أصوات الأذان: غمرني الأذان وأوقف شعر ذراعي، أغمضت عيني واستنشقت الدعوة للصلاة».

تندمج نهر تدريجياً في أنشطة المقاومة، ويبدو للحظة أن فلسطين ستكون المكان الذي تثبت فيه الأرض أخيراً تحت قدميها، لكن عائلتها بقيت في الأردن.. «بينما كانت فلسطين المكان الذي أنتمي إليه، لا يزال الكثير منّي مشتتاً في أماكن أخرى».. وتقول إن هذا هو ما يعنيه النفي: «عبور الحدود المغلقة، وعدم الوجود في أي مكان.. البقاء في مكان يعني تمزيق طرف من مكان آخر».

الحديث عن حضور النكبة في السرد الفلسطيني طويل ومتشعب، ولا يمكن لمقال مهما اتسع أن يلم بكافة تفاصيله، فما ورد أعلاه، ليس إلا استعراضاً لنماذج شكلت جزءاً من قراءاتي ومتابعاتي وحواراتي وتحليلي الشخصي، على مدار أكثر من خمسة عشراً عاماً، مسلطة الضوء على سردية اللجوء والهجرة وتداعياتها في جزء من السردية الفلسطينية، التي هي أوسع في تناولها للنكبة مما استعرضته هنا بكثير.

حكاية الفيلم الأول..
عن الإنتاج السينمائي الفلسطيني قبل النكبة

يوسف الشايب

تعدَّدَتْ الروايات حول ماهية الفيلم الفلسطيني الأول، وإن كانت أغلبية المراجع الفلسطينية والعربية والأجنبية، تحدَّثَتْ، وبتَشَكُّكٍ أحياناً، أنه فيلم إبراهيم سرحان ويوثِّق فيه لزيارة الملك سعود إلى فلسطين في العام ١٩٣٥، ونتحدث لاحقاً، في هذا الفصل، عن المرويّات بخصوص سرحان وفيلمه هذا ومسيرته بشيءٍ من التفصيل، فيما ذهب آخرون، على قلَّتِهم، لأن فيلم «الهارب» للأخوين لاما، وصُوِّرَ في بيت لحم، في ذات العام أو العام الذي يليه، قد يكون هو أول فيلم فلسطيني، على اختلاف تعريفات جنسية الفيلم، لِكَون الشركة الخاصة بالأخوين لاما هي في الأصل مصريّة ومقرّها في مدينة الإسكندرية، دون تقديم تفاصيل تُذْكَر عن هذا الفيلم، وهو ما سيعمد المؤلف في هذا الفصل إلى التوسُّع في الحديث عنه بحيث يقدِّم صورةً بانوراميةً، ما أمكن، حوله، فيما ينحو آخرون باتجاه أفلام فلسطينية أخرى، سنمرّ عليها جميعها.

ولكن، ما كُتِبَ حول السينما الفلسطينية ما قبل النكبة، على قِلَّتِهِ، والنبرة المتشكِّكَة حولَهُ، ونَسْخ الباحثين عن بعضهم البعض، وعن مصدرٍ واحدٍ أو اثنين، يدفعنا إلى ضرورة البدء في إعادة صياغة هذا التاريخ، ما من شأنه أن يُوقِفَ عجلة النسخ والاستنساخ غير المدروس، وغير الموثَّق بدرجةٍ كبيرةٍ، وما من شأنه أيضاً أن يُعَدِّل المسار بما يُنْصِف تجارب أُهْمِلَت، لا عن قصد، بل عن قلة مصادر، وقلةٍ في البحث والتنقيب، خاصةً لدى الباحثين الفلسطينيين، على قلَّتِهم أيضاً، والعرب، وبعض الأجانب، وحتى الإسرائيليين.

وعليه فإنني، وقبل أن أستعرض ما أشير إليه في المراجع المتعددة، والروايات التي اكتشفتُها في هذا السياق، حول ادّعاء هذا أو ذاك، أنه صاحب الريادة في كونِهِ صاحب الفيلم الفلسطيني الأول، وقبل

الإبحار في النظريات المتعددة فيما يتعلق بجنسية الفيلم، فإنني أُقَدِّمُ مقاربةً جديدةً، بخصوص الفيلم الفلسطيني الأول، الذي كان، كما اكْتُشِفَ من الأرشيفات التي اقتَنَيتُها ولا أزال، منذ ما يزيد عن العشرة أعوام، طيّ النسيان، لغياب جزءٍ كبيرٍ من هذه الأرشيفات، والعديد منها خاصٌّ تم اقتناؤه بشكلٍ شخصيٍّ من عدة دول عربية وأجنبية، أو ربما لاعتباراتٍ تتعلق بتعريفات الفيلم النظرية، مع أن العمل الذي انطوى عليه الفيلم، أو كان الفيلم جزءاً منه لم يسبق التطرُّق إليه في أي مرجعٍ عربيٍّ أو غربيٍّ، وفق ما أعلم.

«جريمة الآباء»

الحديث هنا عن فيلم سينمائي وعرض مسرحي، في آن، حَمَلَ عنوان «جريمة الآباء»، مُذَيَّلاً بعنوان «رواية»، وهو الوصف الذي كان يُطْلَق في إعلانات الصحف الفلسطينية، والمقالات العربية حتى النصف الثاني من القرن الماضي أو يزيد، على كلٍّ من الفيلم والعرض المسرحي، ما يزيد من أعباء الباحث في البحث عن ماهية المُعْلَن عنه، خاصةً إذا لم يكن تصنيف جهة الإعلان معروفاً.

في الأيام الأخيرة من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣، وتحديداً يوم التاسع والعشرين منه، ظهر الإعلان الأول في جريدة «فلسطين»، وكانت تصدُر في يافا، عن «الرواية»، بعنوان كبير «خطوة مباركة»، أسفَلَهُ عنوانٌ أصغر «لأول مرة في فلسطين رواية جريمة الآباء السينمائية المرسحية.. انتظروا التفاصيل قريباً»، موقَّعَةً باسم الجهة المنتجة «معهد السينما والتمثيل في القدس».

ومن تحليل الإعلان أعلاهُ، يتَّضِح أن وصف «الرواية» بالسينمائية جاء سبّاقاً على كونها مسرحية أو «مرسحية»، ولا ندري إن كان في الإعلان خطأٌ مطبعيٌّ، أم أن القائمين على العرض تأثَّروا باللفظ الدَّارِج لأبي الفنون في عديد الدول المجاورة، أي «مرسح»، والحديث هنا عن «معهد السينما والتمثيل في القدس»، ما يعني أن في القدس، ومنذ مطلع ثلاثينات القرن الماضي، على أقل تقدير، معهداً متخصصاً في السينما.

وتحت عنوان «جريمة الآباء في القدس»، يخرج إعلانٌ آخر في الجريدة نفسها، ولكن هذه المرّة في الخامس من آذار (مارس) ١٩٣٣، يُشير إلى أن عرض «الرواية» سيكون في التاسع من الشهر نفسه.. ويقول نصّ الإعلان: «أكبر روايةٍ تمثيليةٍ سينمائية تُمَثّل على المسرح وعلى الشاشة البيضاء معاً، لأول مرّة في مدينة القدس، من قِبَل نخبةٍ من الشبيبة الراقية الفلسطينية، بالاشتراك مع بعض الفتيات الهاويات، وذلك على مسرح تياترو أديسون، في مساء الخميس الواقع في ٩ آذار (مارس) سنة ١٩٣٣، وستشترك بهذه الحفلة الفريدة الراقصة الذائعة الصيت فيردل بروار، التي لاقت أعظم نجاح في

فلسطين، فأسرِعوا لحجز تذاكركم من محل سلطان اسطفان، تحت إدارة البوسطة في القدس»، وهو ذاته الإعلان الذي تكرَّر في يوم العرض.

أما جريدة «مرآة الشرق»، وكانت تصدُر من القدس، وفي عدد الثامن من آذار (مارس) ١٩٣٣، فنشرت خبراً مفادُهُ «يقوم معهد الرياضة والسينما في القدس، مساء يوم الخميس القادم، بتمثيل الرواية السينمائية المسرحية جريمة الآباء على مسرح تياترو أديسون، وهي رواية عصرية تبحث في الحالة الاجتماعية الحاضرة، وستشارك بالرقص الفني في الرواية الراقصة الشهيرة فريدل بروار، فنحثُّ الأهالي على حضورها».

ومن الإعلان السابق نلاحظ أن ثمة توافقاً على تقديم كون «الرواية» سينمائية على كونها مسرحية، مع اختلاف تسمية جهة الإنتاج، بحيث ذكرت الجريدة المقدسية «معهد الرياضة والسينما في القدس»، بينما كانت الجريدة اليافيّة ذكرت «معهد السينما والتمثيل في القدس»، في حين تراوَحَ الاسم الأول لـلراقصة «الشهيرة»، ما بين «فيردل» و«فريدل»، ويبدو أن الأمر هنا لا يتعدى كونه صِيغَ بناءً على طريقة اللفظ.

وفي ١٢ آذار (مارس) من العام نفسه، قُدِّمَ عرضٌ آخر من «جريمة الآباء»، وفْقَ إعلانٍ في جريدة فلسطين، جاء فيه «رواية جريمة الآباء الخالدة في القدس، تُمَثّل لآخر مرّة باستعداد فني عظيم اليوم (الأحد) الساعة ٣ بعد الظهر، على مسرح تياترو أديسون.. هذه الرواية التمثيل والسينما معاً، يقوم بتمثيلها شابات وشبان القدس لآخر مرة.. يجدر بالأهالي مشاهدتها تشجيعاً لهذا الفن»، وورد في نهاية الإعلان عبارة «محلات خاصّة للسيدات».

وحظِيَت رواية «جريمة الآباء» السينمائية المسرحية، باهتمامٍ على عدّة مستوياتٍ تتعلّق بالاستعراض والنقد والتحليل، ففي الرابع عشر من ذات شهر وسنة عرضِها، وتحت توقيع «ي» من القدس، نشرت جريدة «فلسطين» مقالاً بعنوان «رواية جريمة الآباء خطوة مباركة للشبيبة الفلسطينية».

وكتب صاحب المقال: لا أكون مغالياً إذا قلت إنني عندما شاهدت تمثيل رواية «جريمة الآباء» على المسرح والشاشة البيضاء، شعرتُ أن أمامي إحدى الأجواق التمثيلية الكبرى. فأنا أهنّئ هؤلاء النشيطين الذين اجتهدوا كل الاجتهاد في أن يخطوا إلى الأمام في فن التمثيل والسينما، وجعلونا نستبشر خيراً بنهضةٍ فنيةٍ في البلاد الفلسطينية.

وأضاف: «مُثِّلَت هذه الرواية على مسرح سينما أديسون، مساء الخميس الماضي، وقد كانت بمثابة حفلة كبرى، سمعت فيها وشاهدت: موسيقى، وغناءً، ورقصاً، وتمثيلاً، وسينما، والرواية نفسها ذات مغزىً حسن، فهي بمثابة درس في الأخلاق والفضيلة، وكيف تقع الجرائم في البيوت الطاهرة جرّاء

الطَّيش واتِّباع الرذيلة، وكيف تؤدي هذه الأعمال إلى هدم البيوت وقتل النفوس البريئة».

وحلَّلَ كاتب المقال: لقد أجاد المؤلف في وصف الحالة الاجتماعية الدنيئة ونتائجها، أما الرواية من الوجهة الفنية فلا بأس بها، لو لم تكن هناك بعض خطيئاتٍ لا تخلو روايةٌ ما منها، خصوصاً متى قام بتمثيل هذه الرواية شبّان ليسوا من محترفي مهنة التمثيل، ولكن كلٌّ من الممثلين اجتهد في أن يبذل ما في وُسْعِهِ ليُرضي الجمهور، وفي بعض المواقف أظهر الممثلون، وأهمهم الأب «المجنون»، براعةً في التمثيل، وقد لفت النظر ظهور آنِسَتَين مثَّلَتا دور الأم وابنتها، فأظهرتا شجاعةً تامةً على المسرح، وتوفَّقتا في دوريهما، أما لغة الرواية فعادية، ولكن اللفظ كان ركيكاً من بعض الممثلين.

وختم المُوَقِّع على المقال: «هذا ما رأينا ملاحظته على الرواية، وإنها لخطوةٌ من نادي النهضة الفنية حَرِيّةٌ بالتشجيع مهما يكن من مآخذه».

وفي محض تعليقنا، على ما ورد في تعقيب كاتب المقال «ي» من القدس، على «جريمة الآباء»، يُلاحظ أنه لم يتطرَّق للحديث عن السينما في العمل، ولم يذكر المؤلف والمخرج والممثلين إناثاً وذكوراً بالأسماء، لكنه تحدث عن «نادي النهضة الفنية»، ما يُشَكِّل إحالةً إلى الجهة القائمة على العمل، والتي ربما كانت تضم «معهد السينما والتمثيل في القدس» أو «معهد الرياضة والسينما في القدس»، على اختلاف ما ورد في الصحف الفلسطينية المُعلِنَة عن العمل، وهو ما لم نجد أيّ دليلٍ عليه، أو ما يشير بتفصيلٍ إلى هذه الجهات القائمة على العمل، وإن كان يتضح من مقالاتٍ تفصيليةٍ لاحقاً، أسماء عددٍ من القائمين على العمل ومُنَفّذيه.

وفي التاسع عشر من آذار (مارس) ١٩٣٣، نشر «أبو الخطّاب»، وكان اسمه رائجاً في المقالات التحليلية الفنيّة للأعمال الإبداعية، في جريدة «فلسطين»، وفي زاوية «في عالم الفن والتمثيل»، مقالاً بعنوان «حديث إلى الشباب حول رواية جريمة الآباء»، بدأه بالقول: «منذ أيامٍ وأنا أحاول أن أتفرَّغَ لدراسة الفن والثقافة في هذه الربوع فأجعل من هذه الدراسة مجرد بحثٍ وتحليلٍ خالصٍ، ولكن تيسَّرَ لي أن أحضر تمثيل رواية جريمة الآباء، فرأيت أن أتَّخِذَها سبيلاً إلى الحديث والنقد المنزَّه عن كل غايةٍ سوى خدمة الفن والإخلاص للفكرة. وقد يكون الفن والأدب أحوج الأشياء إلى الاعتناء والدراسة، فحظُّهما من ذلك حظ اليتيم المغبون، فقد استأثرت السياسة وحديثها بجميع جهود شبابنا: فهم لا يعنون إلا بوعد بلفور، والتنافر الحزبي، وعلى ما بهذه المسائل من أهمية وخطورة، إلا أنها ليست سوى موقفٍ دفاعيٍّ لا يسير بنا إلى الأمام قيد شعرة، فالحذق السياسي لا يتيسّر للجميع، فالأجدى لنا أن نهاجم».

وقال أبو خطّاب: «أمّا هذا الجهاد الذي أدعوك إليه فلا يقوم على سيف ولا نار. فنحن أضعف من أن نجرّد سيفاً أو نقذف ناراً، إنما أدعوك أن تهاجم بالثقافة والأدب والفن، فتُثْبِت للغرب أنك

تشعر وتحسّ، وأن لك ميولاً وعواطف، وأنك جديرٌ باحترامه. وذلك لا يتم إلا عن طريق الفن والأدب إذا هاجمت بها الرأي العام الأوروبي، وجعلت منها صوتاً لك، أما صوتك السياسي فضعيف لا يصل إلى الآذان.. ولَعَمْري، إن شريطاً عربيّاً يُعرض في مسرح لندن لأجدى على القضية الوطنية من أربعين وفداً يخطبون في داوننغ ستريت. أمّا أن تقنع بفضل أجدادنا على العلم، وتتبجَّح بحقك الطبيعي، وتطالب بمركزك تحت الشمس، وأنت نصف نائم، فذلك منتهى الغباوة والكسل».

وعاد الكاتب للحديث عن «جريمة الآباء»، فكتب: «إذا انصرفتَ إلى الرواية ورفَعْتَ عنها الستار، رأيتَ أمامك حانةً تُدار فيها الخمور حتى تَعْبَث بعقول الحاضرين ويتخاصمون على مغنيّة هناك. ويعود أحدهم إلى بيته فلا يتميّز زوجته، ويظنها إحدى اللواتي تمتَّعَ بهِنَّ في الحانة، فيُداعبها دعاباً هو أَمَرُّ أنواع الشقاء.. ويكون للزوج صديقٌ محامٍ يطمع في ابنته، فتأبى وتأبى أمها ويمانع أخوها، فالفتاة تحبّ شاباً هو ابن المحامي غير الشرعي».

وأضاف: «ويدور حول هذا الزواج حوارٌ عنيفٌ، ويسافر هذا الشاب إلى بيروت في طلب علم الطِّب. وتمرض الفتاة، وتظهر عليها أعراض الزهري ويداهمها السُّل، فتعلن الأم لزوجها أنه هو الأصل في إيداع هذا الداء في جسم ابنته، ويدخل الابن ويؤنِّبُه تأنيباً عنيفاً، ويثور ثورةً جامحةً شديدةً، فينتبه ضمير أبيه ويؤلِمُهُ شعوره ألماً مبرحاً ويُفْقِدُهُ عقْلَهُ، وتمرض الأم، وبذلك يتم شقاء الابن».

وواصل أبو خطّاب سرد الحكاية: «يعود العشيق حاملاً شهادة الطب، فيستقبله الابن ويُخْبِرُهُ أن أخته تحتضر، ويدخل أبوها ويُعْلِن له أنه ابنُ زِنا، فيصرخ متألماً، ويدخل على المريضة يُناجيها فيعرف داءها. وإذ كانت تلفظ نفسها الأخير خُيِّلَ لأبيها أن الموت شخص، فيحمل ابنته من السرير، ليفرَّ بها منه».

وهذا القسم من الرواية يُمَثَّل أمامك تمثيلاً ناطقاً، أما القسم السينمائي فذلك عندما «تجلس المريضة مرةً تستعرض صور الماضي بما استودعته من أحلامٍ وآمال، فتشاهدها طفلةً تلعب مع حبيبها الطفل، وتراها تُرافِقُهُ إلى المدرسة، وإذا كبُراَ تحوَّلَ حب الطفولة إلى عشق الصبا. وتتمثل حبيبها عائداً إليها من بيروت، فترفع يديها وتضُمَّهُ فلا تضمّ إلا الهواء، فتخرّ مغشيّاً عليها»

وأشار أبو خطّاب في مقاله هذا إلى أن «الرواية» هي «باكورة أعمال واضِعِها، نصري أفندي الجوزي، فأبْشِر بها من باكورةٍ صالحةٍ، والممثلون نخبةٌ من شبّان تعشَّقوا الفن لأجل الفن. وأنا أذكر لك هذه العبارات لتُنْصِفَني من أناسٍ ينسبون النقد الصريح إلى التحامل، ولتنصف الرواية وممثّليها مني، ولعلك تخرج بصورةٍ عنها فيها صدقٌ وفيها وضوح».

وتابع: «أمّا الوجهة الفنية من الرواية فقد توَفَّق فيها المؤلف توفيقاً يُحْسَد عليه، إلا أن هناك

مواقفَ ضعفٍ لا بُدَّ من إظهارها، منها أن العشيقة بدأت عشقها في عُمْرٍ مبكرٍ جداً، وعلِمَ به أخوها وعَلِمَت أمها، فشجّعاها عليه، ومهّدا لها سبيله، مما لا يستقيم وما عُرِفَت به عقليّتُنا. وانظر إلى الضعف في الكيفية التي يتقبّل فيها العشيق خبرَ وضيعِ أصْلِهِ، ثم انظر إليه كيف يكتشف المرض في حبيبته حالما يضع أذنه على صدرها، مع أنه مُتَضَعْضِعُ الفِكْر والخاطر، ولا يفطن إلى مرض السُّل، وكان جديراً بتنفُّسِها أن يُظْهِرَهُ له».

أبو خطّاب، قال أيضاً: يَعِزُّ عليّ أن أُسَجِّل على المؤلف أن لغة الرواية كان يعوزها شيءٌ من السلاسة والرونق. ولكن رغماً عن ذلك كله، لا أكون مداجياً إذا كاشفتُ المؤلِّف بإعجابي بروايته، وأغبطه كذلك على أنه توفَّقَ إلى ممثّلين كان نجاح روايته وظهورها بهذا المظهر معقوداً عليهم، وليسمح لي أن أطلب منه أن يفكِّر بعد اليوم في روايةٍ تبحث غير هذه الناحية، فقد مللنا الظلام والبكاء، وبِتْنا نتشوَّق إلى الوجهة المشرقة.

وقد أجاد الممثلون إجادةً حسنةً، حسب كاتب المقال، وخَصَّ «والد الفتاة (سمعان أفندي فاشة)، فقد قام بدور السكران والمعتوه خيرَ قيام، فكانت نظراتُهُ كسيرةً شاردةً وصوتُهُ متقطعٌ بطيءٌ أو غاضبٌ شَرودٌ. ولكن كلّ إعجابي به لا يمنعني أن أنْصَحَهُ بأن لا يُكْثِر من تحريك رِجْلَيه ويديه إذا ما انطرَحَ على الأرض، فإن السكران متى وَقَعَ يَقَع قطعةً واحدةً متهدِّمَةً، ويعوز يديه قليلٌ من اللين والسهولة»، مضيفاً: «لن أستطيع أن أفي السيد (أسد طجّو) حقَّهُ، فقد أجاد في دور شقيق الفتاة، وقد أجاد من حيث لحظات العيون وشحوب اللون وامتقاعِهِ، وللموقف الحَرِج الذي وقَفَهُ من مرض أخته وأمه وجنون أبيه، إلا أنه كان يعتمد على المُلَقِّن كثيراً، ويقف حيث لا محلّ للوقوف في الكلام، أما العاشق (سليمان أفندي فرّاج)، فإنني أتمنى له أن يكون ظهوره هذه المرة الأولى درساً مفيداً، فقد كان كثير الحركة مُنْكَر الصوت، أما قُبْلَة الوداع قبل رحيله إلى بيروت فقد خطفها من جبين حبيبته خطفاً، وحقّها أن تخْرُجَ من أعماق قلبِهِ طويلةً ممتدةً. وكان موقفه على جانبٍ من الضعف عندما تلقّى خبر وَضِيعِ أصْلِهِ واحتضار حبيبته، إنما يُشاركه في هذا الضعف المؤلِّف لأنه أحرج موقِفَهُ إحراجاً لا محلّ له، ولم يُنْقِذْهُ منه.. أما دور المحامي فقد قام به (استاوري أفندي السكاكيني)، فأجاد وكذلك باقي الممثلين».

وأشاد «أبو خطّاب» بدور العشيقة، الذي لم يُذْكَر اسم الممثلة التي جسَّدَتْهُ، فكتب: «إعجابي بدور العشيقة يكاد يُنسيني جميع ما في الرواية من نقاط ضعف، ولولا تلك الرطانة في لفْظِها لقُلْتُ إنها أبرعُهُم جميعاً، فعسى أن تتلافى هذا الأمر في مرّةٍ ثانيةٍ، فنشاهد ممثلةً قديرةً.. أيها الشباب الناهض ها نخبةٌ من الشبّان تتقدم أمامكم في ميدانٍ لم يتقدَّم فيه سواهم، وها هم يفتحون لكم في

عالم الفن فتحاً مبيناً، فهل تقتفون أثرهم، وتسيرون معهم؟.. وإنني أدعوكم إلى تشجيعهم بكل ما أوتيتم من عزم، فهم لَعَمْري أهلٌ لكل ذلك، وهم كذلك يُعيضونكم عن تشجيعكم لهم بما يُعادِلُه».

ومن المُلاحَظ في مقال «أبو خطاب» المُطَوّل عن «جريمة الآباء»، أنه لم يتطرَّق، كما أشَرْتُ، إلى اسم الممثلة، التي قامت بدور الفتاة العاشقة، والتي كما يبدو من سياق سَرْدِهِ للأحداث هي البطلة المنفردة للعمل السينمائي، أو الرواية السينمائية الأولى التي شَكَّلَتْ جزءاً من الرواية السينمائية المسرحية ككل، في حين لم يذكر إن كان المؤلف هو ذاته مخرج الرواية كاملةً، وما إذا كان هو أيضاً المسؤول عن إخراج الفيلم السينمائي، تاركاً اسم مخرج أول فيلمٍ فلسطينيٍّ في مَهَبّ التخمين، فقد يكون الجوزي نفسه وقد لا يكون، في حين أن اسم بطلته بقيَ مجهولاً، كما أنه لم يتحدَّث عن مدّة العمل ككل، ومدة الفيلم الأول، أو الرواية السينمائية الفلسطينية الأولى.

ويبدو أن نجاح العمل دَفَعَ جهاتٍ أخرى لتَمْثِيلِهِ، دون توضيحٍ ما إذا تم التنسيق مع صاحب العمل، وهل هو المؤلف أم لا، أم أن الأمر لا يعدو كونَهُ تقاطُعاً في الأسماء، أو استثماراً للاسم ليس إلا، أو ربما نسخة محدَّثَة عن العمل الأصيل، ففي خبرٍ نَشَرَتْهُ جريدة فلسطين في ٤ نيسان (أبريل) من العام ١٩٣٥، أي بعد أكثر من عامين على عرض الفرقة المقدسية، يجري الحديث عن «اعتزام نادي التمثيل الحيفاوي على تمثيل رواية جريمة الآباء على مسرح السالزيان، وذلك يوم السبت الواقع في ٦ الجاري، الساعة ٨ مساءً.. ونظراً لما عُرِفَ عن هذا النادي من الجراءة في التمثيل، ولشوق الجمهور بعد غيبَتِه الطويلة عن التمثيل، سيجعل الإقبال كبيراً على حضور هذه الرواية».

فيلم «الهارب»

وبخصوص فيلم «الهارب» للأخوين بدر وإبراهيم لاما، فقد كان الإعلان عنه بادئ الأمر، دون ذِكْرِ اسمه، ففي ٢٧ آذار (مارس) ١٩٣٥، نشرت جريدة «الدفاع» وكانت تصدُر في يافا، خبراً جاء فيه: «علِمْنا أن الشركة السينمائية لأفلام إبراهيم لاما وبدر لاما (كوندور فيلم) تستعد لإخراج شريطٍ سينمائيٍّ تدور حوادثه في فلسطين، ومصر، وسوريا، وشرق الأردن، وسيقوم بإخراج هذا الشريط السينمائي المعروف الأستاذ إبراهيم لاما، كما سيَظْهَر فيه فريقٌ من أبرع الممثلين، وعلى رأسهم الكوكب السينمائي الأستاذ بدر لاما.. وسيحضر الممثلون والمصوِّرون والأستاذ مخرج الفيلم قريباً إلى فلسطين لأخذ المناظر التي تدور وقائعها في البلاد الفلسطينية.. نأمل النجاح الكبير والتقدم المطَّرِد لشركة كوندور فيلم».

وتحت عنوان «رواية سينمائية عن البلاد العربية»، نشرت «الدفاع» خبراً في السابع من نيسان

(أبريل) ١٩٣٥، مفادُهُ: «يصل إلى فلسطين منتصف هذا الشهر السّيدان إبراهيم وبدر لاما، والسيد بدر - قصصي وروائي، والسيد إبراهيم - مخرج كبير، أيضاً. والغاية من قدومهم، لأجل أخذ مناظر لروايةٍ وَضَعها الأستاذ بدر، حصلت وقائعها في فلسطين وشرق الأردن وسوريا، وبعد أن يُتَمِّما عملهما في القدس يغادرانها إلى شرق الأردن ومنها إلى سوريا، ويرافقهما جوق كبير من الممثلين والممثلات، يقومون بأدوارهم كلٌّ في محل اختصاصه، أما الرواية فتاريخيةٌ غراميةٌ لم يشاءا أن يُعْلِنا عن اسمها قبل إنجازها».

وفي السادس عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٥، كشف الفنان عبد السلام النابلسي لجريدة «اللواء» وكانت تصدُر في القدس، أنه قدِمَ إلى فلسطين وفرقةٌ من الممثلين رفقةَ الأخوين لاما، وأن الشركة التي تعمل الفرقة لحسابها هي «شركة الأستاذين إبراهيم وبدر لاما، كوندور فيلم»، بحيث «تُقيم الفرقة في فلسطين ما لا يقل عن شهرٍ كاملٍ، لأخذ مناظر روايتها الجديدة (الهارب)، بإدارة المخرج الأستاذ إبراهيم لاما»، كاشفاً عن أن «أبطال الرواية المشروع في أخذ مناظر لها، خمسةٌ: رجلان وثلاث سيدات، أما ممثّلو الفرقة فمن دواعي السرور أنهم جميعاً من العرب، كما أن الفيلم عربيٌّ على طول الخط، وستتجلّى فيه العادات العريقة للعروبة»، كما كشف أنه «فضلاً عن أن بعض مناظره أُخِذَت في فلسطين سيؤخذ في شرق الأردن أيضاً، وهو مِن وَضْعِ الأستاذ بدر لاما، وقد مضى على تأليفه حوالي السنتين، وهو فيلمٌ ملائمٌ لكل الأذواق، ولا يضيق به أيُّ صدرٍ، لا من الوجهة الدينية ولا من الوجهة الأخلاقية».

وأضافت «اللواء»: من أهم الممثلين في الفيلم الأستاذان بدر لاما وعبد السلام النابلسي، وبقية ممثّليه يُعَدّون من طليعة من نجحوا من العرب في عالم التمثيل السينمائي، مقدّرين أهمية الدعاية العربية التي سَتُبَثّ لبلادنا المحبوبة فوق الشاشة البيضاء، وفي عالم السينما، لا سيّما ونحن لا نجهل أنواع الدعاية الخبيثة التي يَبُثُّها اليهود بواسطة السينما في الدرجة الأولى، ليُثبتوا للعالم أن فلسطين أصبحت يهوديةً (من حق وحقيق)!.

وأشار فيلم «الأخوين لاما» للمخرج الفلسطيني رائد دزدار، من إنتاج تلفزيون فلسطين في العام ٢٠١٣، إلى أن الأخوين لاما قدِمَا إلى بيت لحم، وأنتَجا فيلم «الهارب» في العام ١٩٣٦، الذي دارت أحداثُهُ حول مرحلة ما سُمّيَ بالفرار من التجنيد الإجباري في الجيش العثماني، كاشفاً عن مشاركة عديد الشُّبان من بيت لحم في الفيلم، وهو ما أكَّدَهُ الروائي الفلسطيني أسامة العيسة في روايته «مجانين بيت لحم»، التي أشار فيها إلى أن بدر لاما (الأعمى)، الذي أدخل صناعة السينما مع شقيقه إبراهيم إلى مصر، في فيلمه «الهارب»، الذي يتحدث عن هروب فلسطينيٍّ من التجنيد الإجباري العثماني في سرايا بيت لحم، كان أنهَى الفيلم في «الدهيشة».

وحسب الناقد المصري سمير فريد، فإن المشاهد الخارجية للفيلم في فلسطين، وتحديداً في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٥ وكانون الثاني (يناير) ١٩٣٦، اشترك في تمثيلها بدر لاما، وعبد السلام النابلسي، ولم تشترك فاطمة رشدي في تلك المشاهد، بل تم تصوير دورها كاملاً في استوديوهات لاما في القاهرة، فيما عُرِضَ الفيلم لأول مرة في سينما النهضة بالقاهرة في ١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٦، وفق مقالٍ له نَشَرَهُ في جريدة «المصري اليوم» بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٦.

وفي الخامس والعشرين من حزيران (يونيو) العام ١٩٣٧، أعلنت سينما «الشرق» في القدس، عن عرض فيلم «الهارب» على مسرحها، بدءاً من مساء ذلك اليوم.. وجاء في الإعلان: «الهارب، قصة عربية محضة تقع حوادثها بين المعسكرات العربية والفيافي والجبال في ربوع فلسطين بلادنا الجميلة، ومناظرها المبهجة، وتتخللها الأغاني العربية والأغاريد العذبة التي اشتهر بها العرب، وهي علاوة على ذلك قصة غرامية حوادثها مفعمة بالفروسية، والمغامرات، والحب، والمفاجآت، والضحك والفكاهة.. يقوم بالأدوار الرئيسية: السيدة فاطمة رشدي والأستاذ بدر لاما، ليختتم بملاحظةٍ مفادُها «ممنوع دخول الذين دون سن الثامنة عشرة لمشاهدة هذه الرواية».

وفي التاسع من تمّوز (يوليو) من العام نفسه، انتقل العرض إلى سينما «النهضة» في حيفا، بذات صيغة الإعلان السابق، وبواقع عرضين يومياً كعروض سينما «الشرق» في «الكولونية الألمانية بالقدس»، وكلا الإعلانين نُشِرَ في جريدة «فلسطين»، مع إضافة اسمي الفنانين عبد السلام النابلسي، وامتثال فوزي، إلى بدر لاما، وفاطمة رشدي، في الإعلان الثاني.

وأشار المؤرخ الفلسطيني د. عدنان مسلم، في فيلم «الأخوين لاما» لدزدار إلى أن فيلم «الهارب»، يتحدث «عن مرحلة صعبة بالنسبة لنا نحن الفلسطينيين، وهي (الفرارات)، أي هروب أو فرار الشُّبّان من التجنيد الإجباري في الجيش العثماني، الذي يقوم بإلقاء القبض عليهم».

وقدَّم إبراهيم الأعمى، أحد أفراد العائلة في بيت لحم، شهادةً في الفيلم ذاته حول «الهارب»، قال فيها: «كان يقضي كلٌّ من إبراهيم وبدر جُلَّ وقتهما في منزل والدي، ومنزل عمّي جودة، وكان يحضر عبد السلام النابلسي، وكانت معهم الممثلة فاطمة رشدي، كما جمعا الكثير من شُبَّان بيت لحم وبيت ساحور، ومثَّلَت معهم شقيقتي ماري، وكان تصوير مشاهدها في بيت ساحور.. شاهدتُ الفيلم عندما كنتُ صغيراً، ففي العام ١٩٣٦ كنتُ في السادسة من عمري».

أما أبو جمال الأعمى، فقال في شهادةٍ له: كان التصوير في مركز الشرطة الذي بُنِيَ في زمن الأتراك، ليتناسب وأحداث الفيلم، والذي هو الآن مركز السلام في ساحة المهد بمدينة بيت لحم.. أتذكر أن ابن عمي سليم جليل الأعمى شارَكَ في التمثيل.

ووفق موقع «السينما.كوم» فإن فيلم «الهارب»، ومدَّتُهُ ١٠٥ دقائق، من إخراج إبراهيم لاما، عن قصة وسيناريو وحوار كلٍّ من بدر لاما والسيد حسن جمعة، وبطولة: بدر لاما، وفاطمة رشدي، وامتثال فوزي، ومارجريت صدقي، وعزيزة رشدي، وروحية فوزي، كما أن الفيلم يروي حكاية «اثنين يهربان من الخدمة العسكرية، ويختفيان زمناً في المغارات والجبال الوعرة، يموت أحدهما، ويجد الآخر بعضاً من السعادة المواتية بجوار محبوبته التي يتزوَّجُها إلى أن يتِمَّ القبض عليه، فيما تُعْلِن حبيبتُهُ أنها سوف تنتظر خروجه»، دون أن يُشير الموقع إلى أن التصوير تمَّ في فلسطين، وإلى أن الفيلم مستوحىً من حكاياتٍ فلسطينيةٍ.

وأشارت الفنانة فاطمة رشدي نفسها في مذكّراتها التي صدرت عن دار المعارف بالقاهرة في العام ١٩٧٠ بقولها: «عَرَضَ عليَّ إبراهيم لاما أن أمثِّل دور البطلة في فيلم متكلِّم اسمُهُ «الهارب» من إخراجِهِ فوافقت، وكان دوري فتاة فلسطينية مكافحة، وكان بدر لاما يقوم بدور فدائي مناهض للسلطة البريطانية المنتدبة على فلسطين في ذلك الحين. وقد غنَّيْتُ في هذا الفيلم إلى جانب التمثيل، وعندما عُرِضَ نجح نجاحاً باهراً».

خالد غازي، وفي كتابه «فاطمة رشدي: حياة ورجال وأسرار»، الصادر عن وكالة الصحافة العربية في العام ٢٠١٧، لفت إلى أنه: «إذا أغفلنا (تحت ضوء الشمس) من قائمة أفلامها، لأنه لم يُعْرَض على الجمهور، فإن الفيلم الثالث يكون فيلم (الهارب) الذي عُرِضَ في أول أكتوبر ١٩٣٦، وهو فيلم من إخراج إبراهيم لاما، قامت ببطولته أمام بدر لاما، والراقصة امتثال فوزي وعبد السلام النابلسي، وكان دورها فيه دور فتاة فلسطينية، بينما قام بدر لاما بدور فدائي فلسطيني مناهض للسلطات البريطانية في فلسطين». وهو بهذه الرواية يُعارض ما ذهب إليه دزدار بأن «الهارب» يتحدث عن ظاهرة «الفراري» في الحقبة العثمانية.

يُشار إلى أن خالد البسّام في كتابِهِ «يا زمان الخليج» الصادر عن دار الساقي في بيروت العام ٢٠٠٢، أكَّدَ أن الفيلم من الأفلام المفقودة. وأن قصَّتَه تدور حول هاربَين من الجنديّة عاشا في الجبال حيناً من الزمن، ثم كُتِبَ لأحدهما الموت بينما يسعد الآخر بالحياة بجانب حبيبته التي يتزوجها، ناقلاً عن جريدة «البحرين» في عدد ١١ أيار (مايو) ١٩٣٩ أن فيلم «الهارب»، إخراج إبراهيم لاما (١٩٠٤-١٩٥٣) كان يُعْرَض في مسرح البحرين، وأن ديوان حاكم البحرين الشيخ حمد بن عيسى الأول (١٨٧٢-١٩٤٢) حجز القاعة وأوقف بيع التذاكر للجمهور ذات مساء، حيث شاهد الشيخُ وضيفُهُ الملك والمرافقون لهما الفيلم.. وكتب البسّام في كتابه: «كان ذلك حَدَثاً مهمّاً فعلاً للسينما، وزادت من شعبيتها في البحرين، لأنها أعطت الكثير من المشروعية، وأنْهَتْ أية معارضة متبقّية لوجودها، سواءً على الصعيد الديني أو الاجتماعي».

ويتضح مما سبق أن ثمَّة تضارباً فيما يتعلق بكون الفنانة فاطمة رشدي شاركت في تصوير الفيلم بفلسطين من عَدَمِه، كما يبرز تضاربٌ آخر يتعلق بكون الفيلم يتحدث عن «الفراري» من الجيش العثماني، أو كونه مناهضاً للانتداب البريطاني، لكن المرجَّح وفق الروايات الموثَّقَة فلسطينيّاً أنه يتناول الحقبة العثمانية وظاهرة «الفرار» من التجنيد الإلزامي، وليس حقبة الانتداب البريطاني، كما أشارت رشدي في مذكراتها، والتي على ما يبدو قدَّمَتْ دورها كفتاة فلسطينية دون إدراكٍ كاملٍ منها بالسياقات التاريخية لفيلم «الهارب»، إن كان ما نُقل على لسانها دقيقاً.

تجربة إبراهيم سرحان

في العام ١٩٣٥، عندما زار الملك سعود فلسطين، لَحِقَهُ في تجواله من اللُّد إلى يافا إلى تل أبيب، شابٌّ يافِعٌ هاوٍ للتصوير يُدْعَى إبراهيم حسن سرحان، ليُصَوِّرَهُ في اللحظات المهمّة، وفق تقدير الحاج أمين الحسينيّ، الذي كان يؤشِّر له ليوثِّقها بالفيديو، كاستضافته على وجبات الطعام، وجولاته المتعددة ولقائه مع الناس.

جاء توثيق هذه الأقوال في حوارٍ أجراهُ معه المخرج العراقي قاسم حول، المنخرط وقتها في صفوف الثورة الفلسطينية ببيروت، لصالح مجلة «البلاغ» اللبنانية، ونُشِرَ في آذار (مارس) من العام ١٩٧٤، بحيث أشار في مقدمة الحوار إلى أنه بعد عرضٍ لأفلام سينمائية في مخيم شاتيلا للاجئين الفلسطينيين بلبنان، أخبره أحد الحاضرين عن رجلٍ يُدْعَى إبراهيم حسن سرحان، كان يعمل كـ«مواسرجي»، وقتها، إلا أنه كان مصوِّراً ومُخرِجاً في «الزمانات»، فذهب إليه فوراً.

أشار سرحان في هذا الحوار، عن الفيلم، إلى أنه بعد أن أنجز هذا الشريط عُرِضَ في موسم «روبين»، وكذلك عُرِضَ في سينما «أمبير» في تل أبيب، وأن الفيلم كان صامتاً ولكنَّهُ عند عَرْضِهِ وضع اسطوانة تُعطي مؤثرات موسيقية في مكان العرض، ولم يشعر أحدٌ بأن الفيلم كان صامتاً.. وقال: مدّة الفيلم عشرين دقيقة، وقد صوَّرَهُ بكاميرا قال إنه اشتراها بـ«خمسين ديناراً من تل أبيب، وهي من الكاميرات التي تُدار باليد»، وقد صوَّرَهُ وعَمِلَ معه كمساعدٍ جمالُ الأصفر.

لكن السينمائي الفلسطيني أحمد حلمي الكيلاني وفي حوارٍ طويلٍ أجراه معه المؤرخ حسّان أبو غنيمة في عمّان، مسجَّل على أشرطة، ووثَّقَهُ أبو غنيمة في كتابه «فلسطين والعين السينمائية»، قال إن من حقَّقَ هذا الفيلم كان جمال الأصفر، وليس إبراهيم سرحان، وبكاميرا «آرغان» التي تُدار باليد، وأن سرحان كان يعمل معه كمساعدٍ، وباسم «ستوديو فلسطين».

ولم يكن الفيلم التوثيقي لزيارة الملك سعود إلى فلسطين هو الأخير، فقد وثَّق سرحان أيضاً زيارة

أحمد حلمي باشا عضو الهيئة العربية العليا، مشيراً في الحوار ذاته، إلى أنه صوّرها وعرضها بعد أقل من ثلاث ساعات أمام الموفد، ما أثار إعجابه فأعطاه مبلغ ٣٠٠ جنيه فلسطيني.

خلال المقابلة، وكما يروي العراقي «حول»، فإن سرحان لم يكتفِ بهذا، إنما أعدَّ فيلماً في ٤٥ دقيقة، بعنوان «أحلام تحقَّقَت»، وهو عن حرم القدس كدعاية للأيتام، وأن ذلك «ليُثبت للناس أنّه يمكن عملُ شيءٍ اسمُهُ سينما في ذلك الوقت، وبما يملك، لأن الناس كانوا يسخرون من السينما وقتها، حيث كان الإعلان عن فيلم تماماً كما الإعلان عن مركبة فضائية من مخيَّمِ الآن»، والحديث عن سبعينات القرن الماضي.

لكن الكيلاني، يعود ويعارض ما قاله سرحان، وفق ما نَشَرَ أبو غنيمة في كتابِهِ المُشار إليه أعلاه، والصادر عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق العام ١٩٨١، مشيراً إلى أن فيلم «أحلام تحقَّقَت» أنجَزَهُ خميس شبلاق، وهو سينمائيٌّ من يافا، وأن مدّة الفيلم كانت لا تتجاوز العشر دقائق، وأن سرحان لم يُصَوِّرْهُ، وكان ذلك في العام ١٩٤٠، وإنما صوَّرَهُ مصوِّرٌ يهوديٌّ يُدْعَى «ناتان»، ولكنهم كتبوا في عناوين الفيلم أنَّهُ من تصوير سرحان.

وهنا لا بد من معارضة ما نُسِبَ لسرحان، فالإعلان عن فيلم في أربعينيّات القرن الماضي لم يكن ليُعْتَبَر أمراً في غاية الغرابة بفلسطين، التي اعتاد سكان المدن فيها على وجه الخصوص، على مشاهدة الأفلام في الكثير من دور السينما التي انتشرت منذ حقبة الحكم العثماني، وكانت بالعشرات منذ عشرينات القرن الماضي، كما أن تصوير أفلام فلسطينية أو في فلسطين، لم يكن بالأمر الغريب، فقد سبق وأن أشرنا إلى الرواية السينمائية الفلسطينية الأولى «جريمة الآباء» في العام ١٩٣٣، وإلى تصوير فيلم «الهارب» للأخوين لاما في فلسطين وعنها في العام ١٩٣٦، والحديث هنا عن مقطعٍ سينمائيٍّ روائيٍّ تلاهُ فيلمٌ سينمائيٌّ روائيّ.

وتحدَّثَ إبراهيم سرحان في الحوار المُشار إليه، عن أن الـ«ستوديو» الذي أسَّسَهُ، وأخرج فيلماً عن إنشائه عرضه في سينما «فاروق»، وهي دار عرض سينمائية في يافا، لأسبوعين، كان «ستوديو فلسطين» الذي تأسَّسَ في العام ١٩٤٥، وكان يحوي ماكينة طبْعٍ صَنَعها بنفسه، وماكينة تحميض، و«مافيولا» صنعها بنفسه أيضاً، وقد تكلَّفَ «ستوديو فلسطين» في ذلك الوقت، وفق ما يذكُرُهُ ما بين (٢٠٠ – ٣٠٠) جنيه فلسطيني، وأنه أتى بالمبلغ بعدما نَشَرَ إعلاناً عن افتتاح الـ«ستوديو» طلب فيه وجوهاً للتمثيل في السينما، ووَرَدَهُ على ما يتَذَكَّر حوالي ١٢ ألف رسالة، ومع الرسائل قيمة الاشتراك، فتجمَّعَ لديه ما بين (١٨٠٠ – ٢٠٠٠) جنيه، وأن «ستوديو فلسطين» كان مُجازاً من حكومة الانتداب البريطاني.

وبالعودة إلى معارضات الكيلاني كما نقلها أبو غنيمة، فإنه يُشير إلى أن من صمَّمَ آلات «ستوديو

فلسطين»، ووضعها بنفسه، هو جمال الأصفر، والذي يعيش في الكويت حالياً، ويقصد مطلع ثمانينات القرن الماضي، وليس سرحان.

وأشار سرحان في حواره مع «البلاغ» إلى أنه أَسَّسَ شركة الأفلام العربية، إذ تعاون مع شخصٍ بالقدس كان بحوزته ألفا دينار، وأن الشركة سجَّلَتْ في القدس، وأنه وَضَعَ قصّة فيلم «في ليلة العيد»، من تأليفه وشريكه، وأن مدة الفيلم ساعتان، ويقوم على العديد من الحِيَل السينمائية وأحداث العصابات، كما وصفها، وأن الشخصية المحورية كانت شخصية «أبو علي الصغير»، وجسَّدَ دورَهُ حسن أبو قبع، أما البطل فكان أحمد الصلاح، ولكنَّ خلافاً حصل قبل وضْعِ نهاية الفيلم بينه وبين المُمَوِّل، لكنَّهُ عرَضَهُ في منزل شقيقه عبد الرحمن سرحان بحضور مجموعة من الأصدقاء، دون الحديث عن مصير الفيلم، الذي لَفَتَ أبو غنيمة في كتابه إلى أنه لا يزال مجهولاً.

وقال الكيلاني، وكان، حسب ما ذكره أبو غنيمة، شريكاً في هذه الشركة التي أنتجت الفيلم آنذاك، إنه هو من صوّر الفيلم، بينما أخرجه الأصفر، وأن الفيلم لم يتم.

ويعزّز خبر نشرته أسبوعيّة «الوحدة» المقدسيّة، في نهاية آذار من العام ١٩٤٦، ما ذهب إليه أبو غنيمة نقلاً عن الكيلاني بأن الفيلم لم يتم، بحيث كتب «رشاد» المحرر الفنيّ للجريدة: كانت شركة الأفلام العربية الفلسطينية قد أعلنت عن قرب عرض فيلمها الأول «ليلة العيد» (لاحظ الاختلاف الطفيف في اسم الفيلم بإسقاط حرف الجر)، وأخذ الجمهور يتابع الإعلانات التي ما لبثت أن اختفت، واختفى كل أثر.. فما السبب يا شركة الأفلام العربية؟».

ولفت الكيلاني أيضاً، تبعاً لحسّان أبو غنيمة، أن أول فيلم فلسطيني روائي كان حقَّقَهُ صلاح الدين بدرخان في العام ١٩٤٦، وعُرِضَ في القدس ويافا وعمّان وبلاد أخرى، وقد أشارت بعض المصادر إلى أن بدرخان مصري فيما أشارت أخرى إلى أنه فلسطيني، لافتاً إلى أن مصور الفيلم كان اليهودي «ناتان» أيضاً، وإلى أن الفيلم عُرِضَ في مصر العام ١٩٤٨.

وكان إعلانٌ نَشَرَتْهُ جريدة «فلسطين» في الرابع من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٥، وتحت عنوان «قريباً جداً»، أشار إلى أن «ستوديو فلسطين، يقدّم أول فيلم من إنتاجه السينمائي بفلسطين (عاصفة في بيت)، تمثيل: أحمد سرحان وحياة فوزي، وبالاشتراك مع: أحمد اليمني، خميس شبلاق، إبراهيم البسطامي، خميس مراد، شاكر علي، والكوميدي المحبوب: صلاح سرحان، ماري، وديعة لطفي، مديحة سامي. والممثل الصغير: محمود سرحان»، وأنَّهُ «للمراجعة: ص.ب ٤١٠ يافا – الرئاسة: إبراهيم سرحان»، إلا أن سرحان في حواره مع قاسم حول يُشير إلى أن التكاليف الباهظة، ورغم دخول شريكٍ آخر له في إنتاج الفيلم، حالت دون اكتماله وعرضه، رغم الإعلان عنه.

وبعد شهرٍ، وتحديداً في الرابع من شباط (فبراير) ١٩٤٥، نُشِرَ إعلانٌ آخر في ذات الجريدة، تحت عنوان «ستوديو فلسطين»، مفادُهُ «تُعْلِن إدارة الاستوديو أن التصوير سيبدأ في يوم الأحد الموافق ١٤ شباط -٤٥، في الساعة الواحدة بعد الظهر، فعلى كلّ منتسِبٍ لإدارة الاستوديو أن يحضُرَ في اليوم المذكور، في الساعة التاسعة صباحاً، إلى مكتب الاستوديو بجانب المستشفى الفرنسي بيافا».. هذا ولم يُقَدِّم الإعلان أيّ معلوماتٍ إضافيةٍ حول ماهية الفيلم الذي يتم العمل على تصويره، آنذاك، وما إذا كان هو ذاته فيلم «عاصفة في بيت»، كما أُرَجِّح، وإن لم يرَ النور في نهاية المطاف.

«انتصار الشباب»

لابد من الإشارة، في هذا الإطار إلى وثيقة مهمّة توضح دون مواربة إلى أن شركة «تلحمي إخوان» الفلسطينية، وأسسها الشقيقان إبراهيم وميشيل تلحمي في القدس، حيث أسست سينما «ركس»، وكان لها فرع في القاهرة، هي من أنتجت مطلع أربعينات القرن الماضي، فيلم «انتصار الشباب» من بطولة أسمهان وفريد الأطرش.

وجاء على غلاف مجلة «الراديو المصري» في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠، وكانت تصدر في القاهرة، صورة للشقيقين أسمهان وفريد الأطرش، رفقة تهنئة بعيد الفطر السعيد، مفادها «انتصار الشباب: وسم فنّي جميل للمطربين المحبوبين أسمهان وفريد الأطرش بطلي فيلم (انتصار الشباب)، الذي تنتجه شركة تلحمي إخوان، وبهذه المناسبة تتقدم الشركة بتهانيها الغامرة لحلول عيد الفطر السعيد».

وبالرغم من أن العديد من إعلانات الفيلم في القاهرة وفلسطين تشير إلى شركة أفلام النيل كجهة منتجة، إلا أن هناك أنباء في الصحف تتحدث عن دور شركة «تلحمي إخوان» في الإنتاج، ما يجعلنا نبني سيناريو مفاده أن الشركة الفلسطينية أنتجت الفيلم عبر مركزها الرئيس في القدس أو فرعها في القاهرة بالشراكة مع الشركة المصرية، التي قد تكون تولّت مهمة التوزيع أيضاً، خاصة أن من يُشاهد الفيلم يجد في مطلعه «شركة أفلام النيل تقدّم».

جريدة «الدفاع» المقدسية، وفي عددها الصادر بتاريخ ٣٠ أيّار (مايو) ١٩٤١، نشرت أن «الإقبال كان عظيماً جداً على مشاهد فيلم (انتصار الشباب)، وقد هتف الجمهور طويلاً للسيدة أسمهان، الكوكب اللامع في هذا الفيلم عند زيارتها لسينما ركس، وقد علمنا أنّ معارف السيدة أسمهان اعتزموا إقامة حفلة تكريمية لحضرتها تقديراً لموهبتها الفنيّة.. وقد زارت اليوم المطربة أسمهان الحرم الشريف، وكان يرافقها الأستاذ ميشيل تلحمي، وستزور يوم الأحد كنيسة المهد في بيت لحم،

وأينما حلّت السيدة أسمهان لا تجد سوى ما يليق بحضرتها من التجلّة والاحترام».

وكان خبر في الصحيفة ذاتها، نشرته في الثاني من أيّار (مايو) ١٩٤١ تحدث عن وصول الفيلم إلى فلسطين، وقرب بدء عرضه في سينما «ركس» بالقدس، وغيرها من دور السينما الكبيرة في فلسطين، متحدثة عن خصوصية الفيلم لكونه الأول لأسمهان، ويجمع ما بينها وشقيقها فريد الأطرش، مع وصفها بـ»البطليْن المطربيْن المحبوبيْن»، وفي ١٤ من الشهر نفسه، وفي «الدفاع» أيضاً، تحدث خبر آخر عن مخرج الفيلم «المصري أحمد بدرخان»، وعن أغنيات الفيلم «التي وضعها كبار شعراء العرب، وتفنن الأستاذ فريد الأطرش في تلحينها»، وعن المشاهد «الاستعراضية الكبيرة البديعة التي اشترك فيها أبرع الراقصات والراقصين».

وفي ٢٠ أيّار (مايو) ١٩٤١، تحدثت «الدفاع» عن «عرض تمهيدي لفيلم انتصار الشباب»، دعت إليه «إدارة سينما ركس مراسلي الصحف العربية»، مختتماً التقرير بعبارات تؤكد دور الشركة الفلسطينية في إنتاج الفيلم، بالقول: «نهنئ السادة تلحمي إخوان الذين أنفقوا على هذا الفيلم مبالغ كبيرة بقصد إرضاء الجمهور وسروره، وهو الفيلم الأول الذي تخرجه الشركات الوطنية الفلسطينية، ويُعتقد أنه سيلاقي إقبالاً عظيماً من الشعب الفلسطيني الذي يتشوّق إلى رؤيته كثيراً، ويترقّب أيام عرضه بلهفة وحماسة».

وفيما سبق إشارة واضحة لا لبس فيها بأن «انتصار الشباب» هو الفيلم الأول الذي تنتجه شركة فلسطينية، وهي معلومة رغم وجوب البحث فيها أكثر، والتنقيب عنها، إلا أن تؤكد دور «تلحمي إخوان» كشركة فلسطينية هنا في إنتاج الفيلم الأول لأسمهان التي حرصت على حضور عرضه الافتتاحي في سينما «ركس» لذات ملّاك الشركة بالقدس.

وبدأ عرض الفيلم في فلسطين، وتحديداً في سينما «ركس» العربية بالقدس، يوم ٢٨ أيّار (مايو) ١٩٤١، أي بعد عرضه في مصر بقرابة الشهرين، وانتشرت إعلاناته في العديد من الصحف الفلسطينية بمساحات مختلفة، وكان عرضه الختامي الذي روّج له بشكل كبير في ذات السينما يوم ١٢ حزيران (يونيو) من العام نفسه.

وفي تقرير موّسع نشرته صحيفة «الصراط المستقيم» الفلسطينية بتاريخ ٢٩ أيّار (مايو) ١٩٤١ حول استقبال أسمهان، و»هو اسم مستعار للأميرة أمل الأطرش»، بتقديم من ميشيل تلحمي لمندوبي الصحافة الفلسطينية في مقر إقامتها بجناح فاخر في فندق الملك داود بالقدس.. وممّا جاء في متن ما كتبه مندوب الصحيفة: «لقد بذلت السيدة أسمهان جهوداً جبّارة كبطلة لفيلم (انتصار الشباب)، الذي بذل فيه السادة تلحمي إخوان كل مرتخص وغال، حتى جاء انتصاراً للفن السينمائي».

وعن ذات الزيارة نشر مندوب صحيفة «فلسطين» بتاريخ ٢٨ أيّار (مايو) ١٩٤١، تقريراً موسعاً ذكر فيه أن اللقاء كان عند الحادية عشرة صباحاً، «يرافقنا الأديب السيد ميشيل تلحمي، أحد أصحاب سينما ركس، في الصالون الخاص الذي حُجز لها في فندق الملك داود».

جدير بالذكر أن عروض فيلم «انتصار الشباب»، انتقلت ومنذ الأول من تمّوز (يوليو) ١٩٤١ من القدس إلى يافا، وتحديداً في سينما «فاروق» الصيفي، وتواصلت حتى الرابع عشر من الشهر نفسه.

الريادة والتجنيس

والريادة فيما يتعلق بأول فيلم فلسطيني، تتبَعُ تعريف جنسية الفيلم ومعايير تصنيف هذا الفيلم باعتباره فلسطينياً أم لا، وهو ما بقيَ نقطةً خلافيةً بين عديد النقاد والأكاديميين والمؤرخين ومُنَظِّري السينما الأجانب والعرب ومؤسساتها ومهرجاناتها.

وتُثار مسألة تجنيس أيّ منتَجٍ إبداعيٍّ، بما فيها الأفلام السينمائية بتنويعاتها، باعتبارها تعبيراً عن مُكَوِّنٍ ثقافيٍّ أساسيٍّ لشعبٍ ما، وانعكاس لهويَّتِهِ الحضارية، هو سؤالٌ بدأ ينفتح على مصراعيه في العقود الماضية، حيث ارتفعت وتيرة الإنتاجات السينمائية المشتركة في العالم، وفي الحالة الفلسطينية خاصةً، لكن الأمور لم تكن بهذا التعقيد عند تصنيف أفلام أُنْتِجَت في فلسطين ما قبل النكبة، أي فلسطين الانتدابية.

كما يُساعِد تحديد جنسية الفيلم أو أي عملٍ سمعيٍّ بصريٍّ في تحديد نجاح ومصير العمل السمعي البصري حتى قبل بدء الإنتاج، وخاصةً في أيامنا هذه، بحيث يمكن لجنسية المشروع الإنتاجي أن تفتح الأبواب أمام مصادر تمويل مختلفة، أو إغلاقها. ويمكن للإنتاج النهائي، المُعَرَّف بأصلٍ ما، تبعاً لجنسيته، المطالبة بحقِّهِ وفق اتفاقاتٍ معيَّنَةٍ في الدولة وخارجها، كما أن جنسية الفيلم هي المفتاح لأهلية التمويل من خلال صناديق الأفلام والاستثمار، لذا فلا عجب أن يكون تأثير التعريف الصحيح لجنسية المصنَّف البصري مهِمّاً، مع أن عدم تجانُس المعايير، حتى الآن، قد يجعل الأمر معقَّداً في بعض الأحيان.

وتُعتبَر جنسية المنتج، وبشكلٍ أدقّ البلد الذي تم تسجيل شركة الإنتاج فيه، هو المعيار الرئيس لتحديد جنسية الفيلم في جميع البلدان، وفق غالبية المؤسسات السينمائية، وإدارات المهرجانات، والنقاد، والأكاديميين، ومؤرّخي ومنظّري السينما، ومع ذلك فإن هناك متطلباتٍ إضافيةً في بعض الدول يمكن اعتبارها جزءاً من التعريف.

ووفق هذا التعريف فإن المشاهد التي أنتجها «الأخوين لوميير» في فلسطين العام ١٨٩٦، وتحديداً

عبر مُوفَدِهما المخرج إليكسندر بروميو، هو أول فيلم فلسطيني، باعتبار أنه أوَّل ما صُوِّرَ بكاميرات سينما على أرض فلسطين، لكن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن فلسطين كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، فيمكن اعتبارُهُ أول فيلم عثماني حينها، في حين أن هذا التعريف من شأنه أن يخلق إشكاليات معقدةً تتعلَّق بالاحتلالات المتتالية على فلسطين، والادّعاءات الصهيونية الكاذبة فيما يتعلّق بـ»أرض الميعاد»، فبعض «الأكاديميين» صنَّفوا المشاهد هذه باعتبارها أول فيلم إسرائيلي، في حين أشارت الجامعة العبرية في القدس، إلى أن فيلم «مشاهد من الأرض المقدسة»، ونشرته عبر قناتها الرسمية في «يوتيوب»، وتحديداً في ٢٣ آذار (مارس) العام ٢٠٠٣، هو «أول فيلم في فلسطين»، بحيث عمَّمَتْهُ نقلاً عن أرشيف شركة «سبيلبيرغ» الصهيونيّة للأفلام، الجهة المنتجة للفيلم الصامت في العام ١٩١١، في عشرين دقيقة، من تصوير وإخراج موري روزينبيرغ.

إلا أن للسينما الفلسطينية تعريفاً مغايراً لدى سمير فريد، ففي مقالٍ له بعنوان «قضية فلسطين على الشاشة العربية»، نشَرَهُ في مجلة «البيان» في الأول من آذار (مارس) ١٩٧٤، عرَّفَ السينما الفلسطينية بأنها «السينما التي تتناول القضية الفلسطينية مباشرةً»، سواءً أكانت روائية أو وثائقية تسجيلية، وذلك انطلاقاً من اعتباره أنه «ما دام الشعب الفلسطيني لا يحارب من أرضه، كما كان الحال من الجزائر أو فيتنام مثلاً، وما دامت حركة تحرير فلسطين هي العصب الجوهري لحركات التحرر العربية، لذا فإن الفنان الفلسطيني هو كل من يؤمن بالثورة الفلسطينية أيّاً كانت جنسيته، وحتى يتم تحرير فلسطين من الاستعمار الإسرائيلي».

ووفق هذا التعريف للسينما الفلسطينية، فإن فريد يُنَحّي جانباً أيّ إنتاجٍ ما قبل العام ١٩٤٨، حيث لم يكن مصطلح «القضية الفلسطينية» متداولاً لكونِهِ ارتبط باحتلال العصابات الصهيونية للأراضي الفلسطينية، ومن ثم إعلان قيام دولة إسرائيل، وفق قرار التقسيم (١٨١)، الذي نصَّ على قيام دولتين: فلسطينية ويهودية.

من جانبه أشار المخرج والناقد الأردني عدنان مدانات، في أكثر من مصدر، بينها فيلم «الأخوين لاما» لرائد دزدار، أن بداية أيّ سينما تتعلق بـ»الإنتاج المحلي، بمعنى أن تكون الجهة المنتجة كما فريق العمل من مخرج وكاتب سيناريو وفنانين وغيرهم من ذات البلد».

وإذا ما اعتمدنا تعريف مدانات، والتعريفات الدولية السابقة، فإن المشاهد الأولية، أو ما سُمّيَ بالأفلام للأخوين لوميير وأديسون وغيرهم، يخرج من إطار المنافسة على «الريادة» أو على الظفر بلقب «أول فيلم فلسطيني»، بل هو أول ما تم تصويرُهُ سينمائياً في فلسطين، وهناك فرقٌ كبيرٌ ما بين «السينما الفلسطينية» و»السينما في فلسطين»، كما يُسْتَبْعَد فيلم «الهارب» للأخوين لاما، فبالرغم من كونهما فلسطينيين كما عبد السلام النابلسي أحد نجوم الفيلم، فإن شركة الإنتاج

«كوزمو فيلم» مصرية، ومقرّها في الإسكندرية، وعديد نجوم العمل من المصريين ومن جنسيات أخرى، وأبرزهم الفنانة فاطمة رشدي، لذا فهو أول فيلم روائي عربي يتم تصويره في فلسطين، في حين يكون فيلم «انتصار الشباب»، وفق عديد الوثائق، أول فيلم من إنتاج شركة فلسطينية (تلحمي إخوان)، سواء منفردة أو بالشراكة مع «أفلام النيل» المصرية.

أما المشاهد التي صوَّرَها إبراهيم سرحان، فلا يُعْرَف إن كانت على نفقته، أو على نفقة المفتي أمين الحسيني، أو بدعم وتمويل من الملك عبد العزيز آل سعود، علاوة على أنه ليس فيلماً روائيّاً، وبالتالي قد يكون أول فيلم فلسطيني وثائقي صامت، أو تُرافِقُهُ خلفيّة موسيقية، كما سبق الإشارة.

وعليه، فإن فيلم أو الرواية السينمائية «جريمة الآباء»، سيكون لها سبق الريادة باعتبار ما تم تصويره في هذا العمل السينمائي المسرحي هو الأول في فلسطين من إخراج نصري الجوزي أحد روّاد المسرح في فلسطين، بحيث سبق ما صوَّرَهُ سرحان بعامين، وما صوَّرَهُ «الأخوين لاما»، بعامين أو ثلاثة، حسب تعدُّد الروايات، علاوة على كون جهة الإنتاج فلسطينية صِرفة، وكامل فريق العمل باستثناء الراقصة التي لم تظهر في الشِّقّ السينمائي من «جريمة الآباء»، هم من الفلسطينيين، وإن كانت بَطَلَتُهُ التي هي بطلة العمل، وجسَّدَتْ دور الشقيقة العاشقة، لا تزال مجهولة الهوية، أما أفلام سرحان اللاحقة، وأفلام محمد صالح الكيالي، فهي تندرج أيضاً فيما أنْتَجَهُ المبدعون الفلسطينيون سينمائيّاً قبل النكبة، وهو ما ينطبق على أفلام أحمد الكيلاني أو أفلام صلاح الدين بدرخان، وغيرهم، كما هو الحال، بشكل أو بآخر، مع فيلم «الهارب» للأخوين لاما باعتبار أن صانعيه من أصول فلسطينية تلحمية.

الأسطورة والخرافة والكرامة أجناسٌ حكائية في السيرة الذاتية الفلسطينية دراسة في بلاغة الخطاب

أحمد عزيز

الأسطورة والخرافة والكرامة أجناسٌ حِكائية تُعبر عن رؤى وأفكار تُحاول الإجابة عن أسئلة وجودية تُشكل هاجساً لتفسير الحياة والتَّغلب على صعوباتها، وكشف أسرارها والدخول في عوالمها، واستيعاب ظواهرها وتكويناتها، وهي ترتبط بأحداث وشخوص وأزمنة وأمكنة تشكل مكونات أساسية في بنائها العام، وفي نسيجها الخطابي، وتتأصلُ بوصفها مصادر أوَّلية للتاريخ والمعرفة الإنسانية، ومرجعيات ثقافية وفكرية ترتبط بالمعتقدات، وتتصل بالديانات، وتُقدم تصوراً للصراع على القيم ومبادئ الخير والشر، ومع الارتباط الشديد للأساطير بالطبيعة، وصور الكون الأولى وتشكلاتها، وخروج الأساطير من فضاءات الماضي والتاريخ القديم، إلا أنَّ ثمة انزياحات كبيرة في المفهوم والمعنى، من خلال توليد الأساطير وتخليقها وصناعتها، وارتباطها بأشخاص شكَّلوا أساطير بأفعالهم البطولية أو العجائبية، ومن خلال السمات الشخصية التي تفردوا بها، وميزتهم بممارسات وقدرات تفوق التَّوقع والتَّحمل والتَّخيل والمُعتاد والمألوف والمُستوعب.

"وبالرغم من أنَّ الكتابة قد أمَّنت الحياة لهذه الأجناس الحكائية، وأنقذتها من تهديد الانقراض، إلا أنَّ التدوين قد أفقدها ملامحها الشفوية اللصيقة بالمقام كما أفقدها ملامحها الطقوسية {...} إنَّ هناك طقوساً كاملة مرافقة في الزمان والمكان والحاكي والمتلقي للانخراط في لعبة الحكي. يبدو أنَّ هذه العناصر المقامية قد تعرضت لضرب من التعرية الثقافية والنفسية".

إنّ مغامرات الإنسان الأولى لاكتشاف ماهية الوجود، وتفسير الظواهر الكونية من حوله شكَّلت لديه تصوراته وتنبهاته التي صاغها عبر العصور والأجيال، وعبَّر من خلالها عن انشغالاته واهتماماته، وتفاعل معها كمحفزات وجودية، وتعامل بها كواقع معيش؛ فصنع رموزه وآلهته، والقوى المتحكمة فيه، وارتهن إليها في توجيه فكره، وترشيده وتَسيير حياته؛ فوجد فيها ضالته وغايته.

ونجدُ تداخلاً وخلطاً واضحاً بين الأسطورة والخرافة والكرامة كمادة للحكي والسرد، عندما يتداخل المقدس مع التَّجنح في الخيال، والتَّحليق بعيداً في المادة المحكية، والذهاب إلى تفسيرات أيديولوجية تبدو عميقة في كثير من القصص والحكايات؛ فيقع الالتباس في هذه الثلاثية الحكائية، في جِنسها وحدودها النَّصية، ومظاهرها وطبيعتها الوظيفية والدلالية، وفي كيفيات تقبلها وتنقلها بين المتلقين والمفسرين، وفي هذا المبحث سنحاول تحليل خطاباتها السائحة في السيرة الذاتية الفلسطينية، ورد هذا التَّعالق في أشكال الخطاب وتداخله إلى تفسيرات بلاغية، وبيانِ تجلياتها ووظائفها السردية، وتتبع تقنيات توظيفها في المتون السيريَّة، وآليات اشتغالها واستعاناتها وأبعادها واستثماراتها الرمزية.

الأسطورة

الأسطورة واحدة من الظواهر الإنسانية التي تحظى باهتمام كبير في ثقافات الشعوب والفكر الإنساني، ودراستها هي دراسةٌ للتاريخ وحياة المجتمعات، وتحليلها هو تفسير لشروطها ومدلولاتها ومسوغاتها وتأثيراتها الاجتماعية، وكشفٌ عن سياقاتها التي صاغتها وشكلت حضورها الميثولوجي، وهي في جوهرها "حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان"؛ فالقداسة والمعتقدات التأملية تلازم فهمها ومعطياتها المعرفية والتأويلية، ولا يمكن دراسة الأسطورة دون معطىً إيماني أو فكري، وفي ذاتها تقوم بها كائنات خارقة لأنَّها "حكاية عن كائنات تتجاوز تصورات العقل الموضوعي" لاستغراقاتها الرمزية والعجائبية، ولمفارقتها الحياة الطبيعية والأحداث الحقيقية، ولكن تحليلها ودراستها في إطار الفعل والذات الفاعلة يحتاج إلى استحضار المُركبات والقدرات الخارقة التي أنشأتها وصاغتها، وحققت أسطرتها.

والأساطير التي وصلتنا، لم تصل إلا لأنها ملكت جادة التاريخ الحي الذي يمثل الحضور الدائم للحدث التاريخي والإنساني بشكل عام، لذا كل ما يتم تداوله باستمرار والتناوب على حكايته من الأساطير؛ فهو حي تماماً، بما يضمن له بحكايته استمراراً دائماً دون انقطاع، وفي عصرنا هذا ضمنت لنا الذواكر الرقمية حياة دائمة ومستمرة للحدث، و"الإنسان عن طريق الأسطورة تعلم فناً جديداً غريباً هو فن التعبير، وهذا يعني اكتسابه القدرة على تنظيم غرائزه البعيدة الغور وآماله ومخاوفه".

وتحليل مُدونة الأسطورة في السيرة الذاتية يتطلب فهمها كنظام دينامي سردي متحد مع البناء العام للخطاب؛ فـ"الأسطورة ليست اختراقاً للمألوف فحسب، بل هي بناء أيضاً، بمعنى أنها شكل أدبي له سماته المميزة من الأنواع الأدبية الأُخرى، فالسمة التي تمنح النص الأدبي خصيصة (الأسطرة) فيه لا تتحدد بما هو حكائي مفارق للواقع، والصياغة الأسطورية للواقع لا تكتفي بتحطيم قوانين العقل فحسب، بل هي أيضاً تُعيد انتاج هذه القوانين وفق رؤية تُقوض الحدود الفاصلة بين ما هو واقعي وما هو فوق واقعي" وعليه؛

فالأسطورة لا تنفصل عن الخطاب في السيرة بل تحضر فيه وتنطلق منه.

وقد عمدت السيرة الذاتية الفلسطينية في كثير من نماذجها إلى استلهام الأسطورة وتوظيفها، والاستفادة مما تشتمل عليه من عمق وثراء، و"لغة الأسطورة حين تدخل في النص تؤدي دوراً جوهرياً هو فتح النص تماماً؛ فتحه تزامنياً؛ أي على صعيد العلاقات المتشكلة ضمن بنية النَّص بين المكون الأُسطوري والمكون التجريبي، ثم توالدياً؛ أي على صعيد العلاقات بين النص بوصفه بنية كلية وتاريخ الثقافة بأكملها من حيث تنبع الأسطورة. إن الأسطورة بهذا التصور فعل توتير حاد في النص وفتح لبؤرة إشعاعات داخلية وخارجية في النص"؛ فهي على مستويين:

تزامني/ توافقي: يتحرك مع الأحداث ويتنَّقلُ معها، ويتوافق مع الزمن ويتحد به، باعتبار النص علامة زمنية متحركة (معاصرة النص).

توالدي/ تركيبي: يتناسل مع النص في جملة من الاحتمالات التي تتمخض عنه، باعتبار النص علامة إنتاجية مستمرة (صيرورة النص).

الأساطير صورة للتفاعل الحقيقي بين الطبيعة والوجود، وحضورها في السيرة الذاتية دليل على تعلق الإنسان بعجائبيتها وهالتها وتأثيراتها على وعيه وذهنيته، ولِما لها من جاذبية حكائية، وغواية سردية، واحتوائها في الخطاب علامة على دورها في حفزه ومده بالحيوية، والإضاءة المعرفية، والمعادلة الموضوعية، بالإضافة إلى كونه نوعاً من التجريب الجمالي في الخطاب، واستحضارها في السيرة الذاتية الفلسطينية جاء على أنماط متنوعة.

الأسطورة المُرَكَّبة:

إنَّ انفلات الأسطورة من الماضي والتاريخ القديم، وخروجها عن مدونة التعريف والتَّوصيف التقليدية، وَتَخَففها من القوالب الاصطلاحية الجامدة، كل ذلك ساهم في توليدها وعصرنتها، لكن كيف تتعصرن الأسطورة؟ وكيف تتخلَّق، وما هي تقنياتها وصورها الجديدة؟ وكيف يتم صياغتها وتأليفها؟ وكيف تُصنع أسطورة خاصة؟

"للأسطورة علاقة وطيدة بسائر ما يُنتج الخيال البشري الخلَّاق ضمن نشاطه الفكري عامة، وضمن فعاليته التي لا تكتفي بمجرد ما هو واقع محض، أو عقلي محض؛ أي إنَّها لا تكتفي بما هو موجود، بل ترمي إلى تجاوز ذلك الواقع، وإلى إحلال الحلم والممكن محله"، والكثير من الأدباء والروائيين والفنانين أصبحوا على ما هم عليه، لخيالاتهم الخصبة الواسعة التي بدأت معهم منذ الطفولة المبكرة، المرحلة التي يتفتحُ فيها الوعي على تلمس الوجود ومحاولة تفسيره، والتفاعل مع تأثيراته ومرئياته وعناصره القريبة والبعيدة،

وهي مرحلة تنهض فيها المخيلة لتجميع عدد من العناصر البَصَرية وتوحيدها في صورة واحدة، أو مشهد واحد، وهي استجابات طبيعية وفطرية تكشف مديات التَّخَيل والوعي واللاوعي عند الأطفال، وترصد قدراتهم في التَّجريد، ومهارة التَّصور والتعبير عن الأشياء من حولهم، والأطفال تأخذهم استطلاعاتهم وخيالاتهم وحساسيتهم إلى تطبيقات عجيبة على الظواهر الطبيعية، وهي محاولات في إطار الفهم والادراك المفترض للوجود "كل طفل ساحر بِدائي. وله عصا كعصا موسى، من كلمات مسحورة. أول لفظة لفظها آثر كانت الـ "طائرة"، ثم "القمر" والـ "الهلال". كان يقول عن الهلال إنه "يشرب الحليب، ويمشي معي، إلى أُمه القاعدة على رأس الجبل" وبنى أسطورة من كلماته، من أسماء الأشياء كما تبدو لأَعينه المسحورة. من "طائرة"، و"حديد"، و"خوف"، وتناسلت أُسطورة" القمر يخاف من الحديد" لغة ساحرة في أسطورة أكثر سحراً".

هُنا يلتقي عالَمان: عالم الطفولة وعالم الفضاء، وبراءة الطفولة ترى في المَرْكَبة الطائرة والقمر العالي الشيء الغريبَ والعجيب، ولكي تُستوعب عقلياً هذه الصور الجاذبة بطبيعتها يتم تركيبها في مشهد لافت ومدهش، وهو تركيب مزدوج على مستوى الصورة واللغة، يصنعُ أسطورة مباشرة، ويتفقُ هذا النص مع الخيال الإبداعي عند بعض الأطفال، والذي قد يعود إلى ذكاء وراثي، وقدرات فائقة في تكوين تصورات ذهنية واسترسال في التَّخييل والتصوير، وعادةً ما يتخلَّق هذا النوع من الأساطير في عالم الطفولة عبر الإكثار من طرح الأسئلة والاستفسارات حول المشاهد اللافته والظواهر المرئية العميقة، بحثاً عن أُلفة مع الفضاء المحيط، وقد تجدُ في عالم الطفولة ما لا تجده في عالم الكهولة.

الأسطورة والذاكرة:

تظهر الأسطورة في كثير من جوانبها في صورة صراعٍ بين طرفين أو قوتين، يمثلان الحق والباطل والخير والشر، وهو صراع نشهده في كثيرٍ من الأساطير القديمة، والأساطير المعاصرة التي توالدت مع الزمن وتشكلت للتعبير عن طبيعة هذا الصراع، وفيها يلتقي الرمزي الأسطوري مع الواقع المعيش، كالذي تشهده مستويات الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وهي على مستوى الذاكرة تُمثل رواية الطرفين اللذَيْن يتنازعانِ أرضاً واحدة بأيديولوجيتين "وبدا لي بأَنني أرى "ذاكرتين" معاً: ذاكرة الأَفاعي التي تُزغرد وهي تطير، وذاكرة من رؤى وأساطير مسلَّحة تحلم بإبادة الأفاعي {...} وبين الذاكرتين الضحية وجَلَّادها"، فالذاكرة الفلسطينية متجددة بالصور والحكايات والمكان والتاريخ، وتضجُّ دائماً بالحياة، أمَّا الذاكرة اليهودية؛ فهي مستعارة مُرَكَّبة. ذاكرة غريبة ووحشية تقوم على العنف والمزاعم والأباطيل، والإحساس الدائم بالرعب القادم من المستقبل، "وتُشكل إحدى الدعاوى الأساسية لادعاء الحق على فلسطين، ولكنها عاجزة عن الاعتراف بحق الآخرين في التمتع بحاسة الذكريات"، والاستعانة بصورة الأفعى يملك عمقاً ميثولوجياً وأيكولوجياً لدى

كاتب السيرة الذي يرتبط بذكريات حميمة مع حكايات الأفعى وقصصها المثيرة، علاوةً على أنَّ العلاقة بين الإنسان والأفعى علاقة ديناميكية نشطة في الواقع والخيال، وكل ذاكرة تحاول اثبات روايتها وهويتها وحجتها، والصراع يتأدلج في كل صوره وأدواته و"هكذا تحسم الفلسفة الصهيونية المُغرِقة في الغيبية مسألة علاقتك بفلسطين. أنت غير حقيقي وقابل للإلغاء"، والذاكرة اليهودية تقوم على الأساطير التوراتية، والأساطير السياسية الزائفة التي تُصنع لخدمة المشروع الصهيوني والأحلام الصهيونية.

الشخصية الأسطورية: القائد والشاعر

الأساطير التي ترتبط بالشخصيات هي في غالبها مرويات ومحكيات لها أصل واحد، ومع تناوب الرواية عليها وسياقات الحكي المتنوعة تنشأ صورتها الأسطورية، وقد خلعت مُتَخَّيلاً من الهالة والعظمة على هذه الشخصيات، وتحولت إلى مقدس لا يجوز المساس به أو نقده أو الأخذ عليه، إذ تتحول إلى مقدس في وجدان رواة الأسطورة، وترتبط بهويتهم، لذلك أي قدح فيها هو قدح في تلك الهوية.

أفرزت الثورة والمقاومة الفلسطينية عدداً من هذه الشخصيات التي حظيت بحب الشعب الفلسطيني وتبوَّأت مكانة عالية في وجدانه الشعبي، لدورها غير العادي في حقل السياسة والأدب والمقاومة، كالقائد ياسر عرفات، والشاعر محمود درويش "وأسأل: لماذا عجزنا بعد ياسر عرفات ومحمود درويش أن نُخَلّق رمزاً جديداً؟ هل لأنَّ الرموز والأساطير تتوالد في أزمنة الجموح والمدّ والصعود، وأننا الآن في مرحلة الجَزْر والذبول والتراجع والإخفاق؟!" ذلك أنَّ الأسطورة الشخصية تنمو في ظرف موضوعي ورابطٍ تاريخي استثنائي، وهي تتنامى مرحلياً من الرمزي إلى الأسطوري، وتُجسد قيماً خالدة تتمثل في السلوك والفعل المتحقق، مما يسبغُ معنىً وجودياً خاصاً على سيرة الشخصية التي تتحول إلى قوة روحية وطاقة مؤثرة في الآخرين، وياسر عرفات من أكثر الشخصيات الثورية التي سلَّط الاعلام العالمي الضوء عليها، ومن أقواها تأثيراً وحضوراً وجماهيريةً في المقاومة الفلسطينية "كان ياسر عرفات الفصل الأطول في حياتنا، وكان اسمه أحد أسماء فلسطين الجديدة، الناهضة من رماد النكبة، إلى جمر المقاومة" ، وللأسطورة في المقاومة الفلسطينية سحرها ودورها، وخطورتها العالية؛ فالعدو الصهيوني "لا يحارب الشخص، ولا يحارب نصه الوطني فحسب، بل يحارب اشعاع الرمز في الزمن، ويحارب أثر الأسطورة في الجماعة" وعليه؛ فهي جبهة قِتالٍ أُخرى.

والشعر يعطينا القدرة على بناء الأسطورة الشخصية للشاعر؛ فقد تحققت أسطورة محمود درويش في مشروعه الشعري وحسه الفني الخارق "ودرويش هذا الحوت الجبلي، وابن الحورية التي أخرجته من ثياب البحر والسنديان، ظلَّ كائناً غير عادي، قد أدركه مَسٌّ من السماء، فصارت له هذه القدرة غير المعهودة في خلق الكلام المباغت والماتع والمثير، وربما يكون كلاماً يفوق المتوقَّع من بني الإنسان"، والشعر يُقدم

الأساطير الشخصية بما يليقُ برمزية الشعراء كمحمود درويش الذي حوَّل فلسطين الوطن إلى فلسطين العالم، و "لم يرتبط درويش بفلسطين القضية ارتباطاً عشائرياً، بقدر ما أسس لانتماء إنساني أكثر عمقاً ونفاذاً، جعل غير الفلسطيني يجد نفسه ملتصقاً بهذه القضية" .

٤,١ الحضور الأسطوري / الرَّاعي وسلطة الطبيعة

للطبيعة سحرها وتجلياتها الفاتنة، وتعلُّق الإنسان بموجوداتها ومظاهرها هو انخراطٌ غريزي بفضاءات شاعرية لها جاذبيتها وإغواؤها، ومِن الطبيعة انطلقت الأساطير لتفسير نشأة الكون وتبرير ظواهره وغرائبه، وتُعدُ شخصية الراعي وفِطْرته واحدة من ملتصقات الطبيعة وحكاياتها الماتعة التي تدور حول المغامرة والمخاطرة، وهي شخصية لها حضورها ومكانتها الإبداعية السَّردية، وتظهر بصور ملحمية وبُطولية عند كثير من ثقافات الشعوب، والرَّاعي في رحلته اليومية المُعتادة يحظى بمواجهة الطبيعة وملازمتها والتواصل المتآلف المستمر معها، وتُمثل صورته في عالم الطفولة مشهد جذبٍ لإنسان شجاع وجريء، وقوي ومبدع ومختلف؛ فهي صورة حُلُمِيَّة مُحببة ومرغوبة تُرسخ صفة البطولة في شخصية الراعي "كنتُ أحسد الرعاة على حريتهم وبراءتهم، وأحلم، وأنا طفل، بأن أكون راعي إوز، أو غزلان" وشخصية الرَّاعي مدعاة للانبهار والإعجاب "وعلي شابٌ أسمر لفحته الشَّمس، وجسمه مشدود كرجل غزال، ويعرف رائحة وطعم كل نبتة في الجبال؛ فهو وريث "سلالة الرعاة" في هذه المنطقة، منذ استئلاف الماشية في العصر الحجري "، وكما يحرص (حسين البرغوثي) على رسم أبعاد شخصية بطله الجسمية والمعرفية فإنه يُظهر حرصه أيضاً على تجلية مهارته وبراعته "علي الراعي تحت الخروبة على حافة الوادي يعزف النّاي، ولكن بفمه فقط، ولا ناي في يده، وأذهلني ذلك" وتظل صورة الراعي البطل بقعة ضوء مُشعة في ذاكرة طفل نبيه.

وهذا التَّعلق الشديد بفتوَّة الرَّاعي ومهاراته وقدراته الفذَّة في التفاعل مع الطبيعة، نقلته من الجاذبية إلى الأسطورية، وحرَّرت الأسطورة من صورها التقليدية وارتباطاتها الدينية المقدسة؛ فالرَّاعي يمكن بملامحه الجَبَلية أن يتحول إلى فضاء أسطوري مُتماهياً مع الطبيعة وصورها وجمالياتها، وفي كل مرة تحضر الطبيعة عند حسين البرغوثي مكوناً جمالياً، يستثمره في بناء خطابه وتظهير صوره الدرامية.

الأسطورة والأرض / الصراع الوجودي

نلحظُ في السيرة الذاتية الفلسطينية أنَّ التفاعل مع الأسطورة والاتكاء عليها داخل الخطاب له تعليلاته الحِجاجية وطاقاته التعبيرية في الإفصاح عن حالة وجودية مرتبطة بالزمان والمكان، ونقض دعوى الآخر التي تقوم على سَلب التاريخ وتزوير وقائعه؛ فالأسطورة تُحقق ثلاثة وظائف في الخطاب:

وظيفة حِجاجية: باعتبار الأسطورة دعوى قضائية.

وظيفة تاريخية: باعتبار الأسطورة حدث له جذرٌ في التاريخ.

وظيفة فنية: باعتبار الأسطورة صورة تعبيرية.

ويعمد كاتب السيرة إلى استجلاب وبعث الأساطير العربية القديمة وتأثيثها في الخطاب الحديث تأكيداً على ملكية المكان، وحقيقة الوجود والامتداد التاريخي والإرث الحضاري للفلسطينيين على أرضهم "هي أرضنا منذ جفَّفت حواء مشيمتها على صخرة فيها؛ فجاء جدّي العملاق الأول، الذي كان إذا جاع، يمدّ ذراعه في البحر؛ فيمسك الحوت، ثم يرفعه إلى عين الشمس؛ فيشويه، ليوزّع لحمه الطريّ الساخن على عشاء العائلة"؛ فيُحيل على أسطورة عَوج ابن عناق جد العمالقة الفلسطينيين كشاهد اثبات على الحق والوجود الفلسطيني، وتجديد الأساطير في بُعديها الوجودي والتاريخي هو إحفازٌ للوعي الوطني الجمعي وإيقاظٌ للذاكرة الجمعية، وترسيخٌ لهوية الانتماء للجذور الكنعانية الثقافية الموروثة، وهُنا ينبري دور الأسطورة في الصراع الوجودي.

الخُرافة

الخُرافة فن سردي قَصصي يقوم على التَّخييل المفارق للواقع أي "سرد خيالي شعبي وعفوي ذو معنى رمزي. وقد يتعدَّل مفهوم الخرافة حسب التفسير الذي يعمد إليه الشُرَّاح"؛ فشعبية الخرافة وذيوعها أعلى من رمزيتها، وتناقلاتها الشفوية وتأويلاتها المختلفة أخرجتها من واقعيتها ومعقوليتها وحتى من فضاءاتها الزمانية والمكانية، وثمةَ خيطٌ رفيع بين الخرافة والأسطورة، هو الحدث المؤسس ظناً للحدث، إذ تعتمد الأسطورة على حدث تمَّ تهويله وتضخيمه بوعي وفهم وغرض، بينما الخرافة هي حدث مُختلق، حتى لو كان لها سبب في الظهور والافتعال ، واللافت هو اختلاط الأسطورة بالخرافة لطول التداول والتناوب عليها وقِدَمها التاريخي أو بسبب غياب مصادر حقيقية للتحقق منها ولكنَّ "الخرافة تقدم تصوراً خاصاً للحياة " تحيل على رؤية الإنسان الساكنة لنفسه وعالمه، وهو الأمر الذي جعل أحداث الخرافة لا تُعنى بأثر الزمن في شخصياتها؛ فهي بصورة عامة، كائنات خُرافية، تتكون وتفنى بمعزل عن آثار الزمن"، ويعمل الخيال البشري على اجتراحها وصناعتها.

إنَّ انفتاح السيرة الذاتية الفلسطينية على الخُرافة جاء في سياق التَّعريف ببعض جوانب الحياة الفلسطينية، وصورها الفلكلورية والتراثية إلى جانب الحكاية والأغنية الشعبية، وبعض ما كان يسود المجتمع الفلسطيني من قصص خرافية ومعتقدات شعبية ودينية، وهي بالنسبة لكاتب السيرة ذاكرة مستعادة من تاريخ المكان وممارسة الإنسان، ويعكس بذلك رغبته في توثيق صلته بالتاريخ وتأكيد انتمائه، بالإضافة إلى ما يضفيه سرد

الخرافة من أبعاد جمالية وتخييلية على الخطاب، وهنَّا نقف عند صور منها.

خُرافة البَرق والرَّعد

البرق والرعد من أبرز الظواهر الطبيعية الكونيَّة المُتلازمة والمتعاقبة التي ترتبط بحاستي البصر والسمع؛ فالبرقُ ظاهرة بصرية، والرعد ظاهرة سمعية، وهي ظواهر شغلت الناس منذ الخَليقة، واحتلت مكانة مقدسة في الأساطير والحضارات القديمة، وحضرت في الديانات كمخلوقات مكلَّفة ومُسيَّرة، ونجدها في المعتقد والمتَّخيَّل الشعبي تُمثل مسرحاً وصراعاً بين قوتين وفضاءين وعالمين، الملائكة والشياطين، الإيمان والكفر، الحق والباطل، الخير والشر، وهو صراع يبدو في ظاهره صراعاً أسطورياً نلحظهُ في الأساطير القديمة، وهذا التفسير الشعبي يعجز عن التفسير العلمي؛ فيحيل على التفسير الافتراضي الذي يتخيل القوتين في معركة وجودية ومصيرية "قال: هذا اللمعان في الجو والذي نسميه "البرق" هل تعرف ما هو؟

ما هو؟

هذا لمعان سيف الملائكة وهي تُقاتل الشياطين. و"الرعد" هو صوت الشياطين وهي تهرب خائفة أمام الملائكة، ودائماً تُتَمْتِم أُمي لمَّا ترى البرق: الله ينصركم يا ملائكة الرحمن"، وفي هذا التَّجلي الخُرافي الذي يتشكل على صيغة حوار، انحيازٌ لقوة الخير المتمثلة بالبرق واحتماءٌ بها، ولعلَّ صوت الرعد المُخيف والمرعب الذي يعقبُ البرق قد دفع لهذا التأويل الخُرافي من أجل النجاة من قوى الطبيعة الشريرة، ونجد في سورة الرَّعد في القرآن الكريم تبيانٌ لحقيقة البرق والرعد كآيتين كونيتين مؤثرتين في الطبيعة "هو الذي يريكمُ البرقَ خوفاً وطمعاً ويُنشئُ السَّحابَ الثِّقال. ويُسبحُ الرعدُ بحمدهِ والملائكةُ من خِيفته ويُرسلُ الصواعقَ فيُصيبُ بها من يشاءُ وهم يجادلونَ في اللهِ وهو شديدُ المِحال" ويتضحُ أنَّ الوعي الشعبي لا يفارق الرهبة الدينية والمرجعية الدينية لتعليل البرق والرعد، ولعله ينطلقُ منها.

٢,٢ خُرافة العَمُورَة / ظِل المَيت

تظهر الحكايات الغامضة التي تُحيط بعالم الموتى عند الشعوب بصورٍ متعددة، وتَرُوجُ في الثقافات العالمية بسردها ووصفها الملتبس، وتمَّ استثمارها كَمَادَّة فنية للدراما والتمثيل لما تتمتع به من تخييل بعيد، وتصوير عجائبي غريب، وهي في الغالب قصص ومرويات مخيفة ومُفزِعَة، تقترن بصور الموت وترتبط بها، وكثيراً ما تغيب عن السرد المكتوب، لأنه يتم تناقلها شفاهياً كقصص فردية وليست جماعية، وهو فضاءٌ مقترن بعالم الجن والأشباح والمخلوقات الغريبة، وتُقابلها الكثير من الحكايات التي تقترب من فضائها العام كالهَامَة في الجاهلية التي تحوم فوق قبر المقتول المغدور وتنادي بالثأر لمقتله، وهناك المَحكيات العالمية التي ترصد

أشباح وأطياف الموتى وظِلالهم المرعبة.

ومن المحكيات الفلسطينية الحاضرة في السيرة الذاتية الفلسطينية والمتعلقة بعالم الموتى حكاية العَمُورة التي تظهر في شخصية أُنثوية ماردة تستعمر المكان وتلازمه ليلاً، نُصرةً للقتيل المظلوم أو المغدور "كانت الخرافة تقول: إذا صرع الإنسان على حين غرَّة قبل الأوان في حدث غير عادي فلربما ظهر شبح في موضع مصرعه، ويكون ظهوره في الليل، وما زال يطوف بالمكان دهراً لا يُحسنُ أن يُفارقه فيرعب سراة الليل إذا تراءى لبعضهم من حين إلى آخر. والخرافة تُطلق على ذلك الشَّبح اسم "العمورة" أو "الونَس" فإذا دُقَّ مسمار في موضع الحادث مع ثنيه، قيدت "العمورة" بقيد لا تنفلت منه لتطوف بالمكان" وهي شخصية شَبحية طويلة القامة، ولكنها غير جليَّة، وتلتصق بها حكايات خارقة كقدرتها على التنقل والقفز من جبل إلى جبل، وقطع المسافات البعيدة بلمح البصر، وظهور أطيافها في الظَّلام يدخلها في عالم الجن الذي ينشط مع العتمة وفضاءات الصمت والوحشة والسكون، وكثير ما نجدها في الوعي الشعبي بمظاهر وأشكال وقدرات متعددة، وبمسميات مختلفة كالقَرينة والغُولة وشبح الطريق وروح الميت أو مُنبهة الميت أو ظِلَّه، ويُقال لها حِيْلَته أو خَيَالَته.

ولعلَّ حكاية الغُولة هي الأكثر رَوياً ورَواجاً وتشويقاً وتخويفاً، وغالباً ما تُحكى على لسان الجَدَّات والأُمهات لمهارتهن في قص الحكايات في أجواء حكائية لها طقوسها ومناسباتها "كانت أمي تقول بأنَّ الغولة تقعد على مفرق طريق بثلاث شُعب، وتُضيء "سراج الغولة" (حشرة على رأسها نقطة مُضيئة من الفوسفور وتطير ليلاً؛ فتبدو سِراجاً هائماً، أو عيناً من أعين المكان) كي تغري به التائهين، وتطحن مِلحاً، وأثداؤها مردودة إلى الخلف على كتفيها. الغولة تموت إن ضربتها بالسَّيف ضربة واحدة، ولكن إن ثَنَّيت عادت إلى الحياة، ولذا، إن قالت لك "ثَنّ" قل لها: "إمي ما علمتنيش". هذه كانت وصية أُمي لأميرها الصغير الذي لم يكن يملك، بعد، إلاّ سيف خشب" وما يُميز هذه الخُرافة أنها تستند إلى قوى الطبيعة، وتلبس قِناع كائناتها الحية الصغيرة، والتي تمارس مهمة الإغواء والخداع للكائن البشري، وتختلط في هذه الخُرافة صورتان مركبتان متداخلتان (الحشرة الحيوية والإنسان المُتَشَكل) وترتبط الحشرات المضيئة الجَذَّابة ارتباطاً أُسطورياً مع فلكلور عديد من الثقافات والحضارات، وهي حشرة تتواجد في البيئة الفلسطينية، وتلفت الأنظار في عتمة الليل، وهذه الخرافة ترمز للشر؛ حيث الغُولة الوحشية ذات الشعر المنفوش والأظافر والأثداء الطويلة، وفيها تصويرٌ للصراع الوجودي وعوالمه المُرَمَّزة، ولقد "تعوَّد الخيال الشعبي أن يُجسد مخاوفه من المجهول على شكل مخلوقات عجيبة من طير السماء أو وحش الأرض أو الماء، وتعَوَّد حين يرسم هذه المخلوقات أن يجمع لها كل صفات العنف والقسوة من ناحية، وكل القدرات الخارقة التي تفوق قواه المحدودة من ناحية أُخرى، كما تعَوَّدَ أن يجمع في مخلوقاته المُتخيلة هذه، سمات من هُنا وهناك، بحيث تخرج شيئاً مزيجاً من كل ما هو مهول مخوف من أعضاء هذه المخلوقات التي يراها ويعرف قوتها وبطشها، ويعرف أيضاً مواطن

القوة والبطش فيها، فيختار هذه المواطن أو يختار منها، ويُضيف بعضها إلى بعض، ثم يُضيف من ذكرياته ما يزيد هذه المخلوقات هولاً على هول".

ومن هذه الحكايات المُرَمَّزَة والمُلَغَّزَة رجوم الحجارة، والتي هي عبارة عن مصفوفات حجرية هرمية متراكمة نجدها في البراري والجبال، وهي مصطنعة من البشر، وتعتبر علامات ومعالم أثرية لها علاقة بالكنوز والدفائن والمخابئ، ويخالطها الكثير من المجهولات والتَّداخلات الخرافية، وتعود في مظاهرها لعهود زمنية قديمة، وهي تحوي إشارات علاميَّة تتابعية ورموز ودلائل خطيَّة مختلفة، وتلفها الكثير من الخفايا والتأويلات الغريبة، وتحضر معها صورة ما يُعرفُ بالقَرِينة أو التابعة بأوصافٍ غريبة. تدور حولها القصص والخرافات والأوهام التي تصور المكان وكأنه في عهدتها وتحت حمايتها وسلطتها المُخيفة؛ فالمكان مُسيطر عليه، وتحت الرقابة الدائمة "في الطريق بين عين ماهل ودبورية رُجم حجارة اسمه "رُجم شاكر" يُقال إنَّ رجلاً بهذا الإسم مدفون تحته. من هو شاكر هذا؟ لا أحد يعرف. لماذا دُفن هناك بعيداً عن الناس؟ هل قُتل؟ أليس له أقارب؟ أسئلة كثيرة لا جواب عليها. المهم أنه اشتهر بقرينته. قال لأبو يوسف: " القرينة شبح غولِه بتطلع جنب القبور للراكب في الليل بشكل صبية جميلة عارية. بتنط وِلَّا هي وارا الراكب أو قُدَّامه. بتجرّب تغدر بالراكب. إن كان شجاع بنط على رقبة الفرس بمسك عرفها وبقطع حِزام السَّرج حتى تقع القرينة وودينك يا طرق النجاة. وِلَّا بتغدُر بيه وبتقتله. وبتسمع حكايات منها الصادق ومنها الكاذب" .

وأيضاً جاء توظيف خرافة العمورة في السيرة لاستجلاء وتقريب صورة العدو المحتل في ممارساته الوحشية وإرهابه المُدمر، وهو تجسيدٌ بالصوت والصورة والحركة، وإسقاطٌ فني على الخرافة الدَّموية القبيحة المُشبعة بأعنف الانفعالات والرؤى المُزعجة "وفجأة تخرج لي العَمُورة بشَعرها الهائل المنفوش وعينيها المليئتين بالدَّم وأظافرها المُدببة وخوارها الذي ينزع القلب، تتهارش مع الجدران، فَيَهِرُّ الجير من الحجارة شريطاً أبيض، ثم تقفز العمورة وتعترضني؛ فأقف متوجّساً مُستنفراً.

وأفتح عينيَّ فأرى الجنود يُشهرون أسلحتهم النارية، ويحيطون بي، ومواسير البنادق قد وصلت بطني وظهري ورأسي وخاصرتي، يُفتشونني، ويُقلّبون أوراقي، ويرمونني أرضاً، ويأخذونني مخفوراً على أرض الدبابة السجن"! ، وبهذا يتم إعادة تشكيل الخرافة، ورسمها وصياغتها بما يتناسب مع تصوير درجة العنف والإرهاب اليومي الممارس على الفلسطينيين من الاحتلال الإسرائيلي، ويمارس كاتب السيرة فضح العدو وتعريته وتقديم صورته الحقيقية عبر التَّوليد والاستنساخ الخُرافي.

خُرافة القتيلة / الظُلم

إنَّ الحكاية الخُرافية ذات صلة قديمة بالجن والمرويات العجائبية؛ بل هي منفتحة تماماً على عالم الجن

الباطني وتلتقي معه في التوتر والغموض والخفاء والتمظهرات المفارقة للإدراك الطبيعي، وكثيراً ما تتصل الحكايات الخرافية بعقائد ما بعد الموت وترتبط بأحداث قتلٍ وقعت ظُلماً وتعدياً على خلفية الاتهام بخرق الشرف وهتك العِرض والأخلاق. تنهض حولها القصص الغريبة التي تَحمِل المُتلقي عادة على التضامن مع المظلوم، وتحميل خَطِيَّة الظُلم للظالم، ولكنها حكايات تبدو في غالبها انتقامية وحِيكت لتنتصر للمرأة التي قُتلت تجرؤاً على ضعفها واستقواءً على أنوثتها "ينسجون حَوْلَ جِن القتيلة القصص والحكايا والخرافات، وبعض النساء تقول: إنَّ فتاةً مراهقةً قتلها شقيقها مظلومة في هذا المكان، بعد أن اتهمها بحب ابن الجيران، لكنَّ أصحاب البيوت القريبة يقولون: إنَّ السبب الحفر الامتصاصية التي أغضبت الجِن، ولم يحتمل رؤيتها ورائحتها الكريهة؛ فخرج من تحت الأرض لردمها ومنع الناس من قضاء حاجاتهم قريباً من التوتة التي يأكل منها الصغار، بعد أن تطرح ثمرها على الأرض ويقوم الأطفال بالتقاطها، وصار يظهر جنَّها الطويل القوي لينتقم، ويلاحق الناس الذين ظلموها أو صمتوا على قتلها، وتُقسِم بعضهن أنهنَّ رأينه " ويُقالُ أنَّ ما يَظهرُ للعيان من أشباحٍ وأطياف هو الحِيلة المُتبقية من آثار القتيلة، وجاء في الأثر أنَّ مراحيض البشر مرتعٌ للشياطين ومحضرٌ للجن، ولكن ما يميز هذه الخرافات، الحبكة التي تنظمها وتؤسس توترها العالي، مما يُجسد بالضرورة صورة للعنف في نصٍ تتصارع فيه عوالم الجن والإنس في صورٍ ملتبسة.

ولهذه الحكايات الخرافية طقوسها الاستثنائية، ومُناخاتها النفسية التي تُظَلل سردها ومقاربتها الأسطورية وتَحَولاتها العجيبة من المأساة إلى الأسطورة، وبهذا ترتفع الخرافة في حكيها الخُرافي إلى الحكي الأسطوري والممارسة الأسطورية، وما بين السرد وخيالات كاتب السيرة يتعمق الوصف الغرائبي فيها، ويظهر مدى تفاعله الحميمي وانسجامه مع المُناخ الجبلي الذي صاغ بداياته ونشأته الطُفولية الجامحة "الجبل بدايتي الأولى {...} وأنا أدرى ببداياتي، فهل يتعرَّف هو، هذا الجبل نفسه، هل يتعرَّف، في ملامح وجهي التي تتكون كأُسطورة غاية في الغَرابة، على أحد أقاصيه، وإحدى نهاياته" وهي حكايات تدعم رؤيته للواقع والعالم من حوله، وهو الذي يرى في موجودات الجبل أسطورة ملحمية، تتآلف مع أسطورة الحورية التي نُطالعها في الميثولوجية العالمية، ونشهد حضورها في الديانات، وكذلك صورة الينابيع التي ترمز عادةً للخلود والخصب "كان القمر ليلتها قرصاً أحمر يُطل من آخر الأودية، والبَهم هُنا وهناك، تمشي أو تنام بين الظلال. تعريتُ تماماً، ثم نزلت أسبح في البركة. وعليٌّ يعزف النَّاي بفمه. فجأة قال بأنني أسبح في الدَّمع! قديماً، قبل أن يولد هو - قال - كانت هناك امرأة جميلة جداً قتلها أهلها، وكانت مظلومة، فتحوَّلت إلى حوريَّة تسكن في الينابيع البريَّة. وسكنت هذه العين فسُميَّت "عين القتيلة". وتخيَّلتُ الشَّق الذي تنبع منه العين في الصَّخرة عين حوريَّة تبكي فيتجمع دمعها في بركة كبيرة ثم يتفرّغ في قنوات تروي البساتين من حولنا" وفي هذا التحول من صورة القتيلة إلى الحورية احتجاجٌ صارخ على الظُلم وانتصارٌ لقيم العدل وتكريمٌ للإنسانية المظلومة، وهي حكايات وسرديات قديمة مُتجددة نسمعها في كثير من الأمصار والبلدان. استمدت

موضوعاتها من جذور أسطورية وتصورات وتأملات خيالية، وصاغت ذلك في صور فنية جميلة ومُشوقة، وللسَّرد العجائبي قوة دلالية قادرة على خلق عوالم جديدة ذات تأثير كبير على المتلقي، وهي العيون المسكونة بالأرواح والمحروسة بكائنات ماورائية وعوالم غيبيَّة، ومن الجدير ذكره أنَّ فلسطين من البلدان المتميزة بكثرة ينابيعها وعيون الماء التي ترتبط بها أسماء وأخبار وحكايات، تُمثل جانباً مُهماً من جماليات الثقافة الشعبية الفلسطينية، والتي يمكن وصفها بثقافة الاحتجاج والمقاومة.

الكرامة:

الكرامة حكاية عجيبة تُصور أحداثاً وقدرات بشرية خارقة للعادة، وفيها تميز إيجابي لمن تقع على أيديهم من الأولياء وأهلُ الصَّلاح والفضل والمَعطيين والمُصْطَفين أو مَن يُعرفون بأهل الله، والمرفوع عنهم الحجاب، ومن تقعُ لهم هِبةُ الكشف والفتح الرَّباني، وهي خطابٌ مُحايث للإدراك الحسي ومفارق لمنظومة الوعي المتعارف عليها، وللكرامة ألغازها وقواها الخفية التي تلِجُ بها عوالم مُغلقة وعصية على الفهم والتأويل بسبب خروج ممارساتها عن المألوف، وهو ما يجعلها أقرب إلى صورة الخرافة، و"يلتحم في الكرامة الوجه الواقعي بالخيالي، والاتجاه العلمي بالاتجاه الوهمي، والمثالية بالمادية. لكن العنصر الماورائي، المثالي يبرز بشدة أكبر كون النشاطية الصوفية عملت على اللاواقعي" لأنها تقدم رؤية في مواجهة سطوة الواقع؛ فَتُحَلق بعيداً عنه، أو تُحاول اختراقه.

وللكرامة طقسها الخاص الذي يضعها في مقامٍ رفيع وحظوة عالية رغم استغراق خطابها في المبالغة والتخييل، لكن بأي حالٍ من الأحوال "قراءة الكرامات نافعة؛ فهي نافذة واسعة على اللاوعي الشعبي، وعلى التمثلات الاجتماعية التي لم تتحقق، والأحلام المرجوة، وهي طريق إلى معرفة التاريخ الروحي للشعوب الإسلامية {...} عبرها وبها تُعرف التأثيرات الدينية في سير الإنسان" والكرامة تُقدم حلولاً ومخارجَ لأزمات حادة بفعل ممارساتها العجائبية وطاقاتها الاستيعابية المُدهشة.

إنَّ انسياب الخطاب الكرامي في خطاب السيرة الذاتية الفلسطينية هو بعثٌ للموروث الشعبي والديني بما يحمل من دلالات ورموز، وعودةً للقديم الذي تُجدده السيرة بسردها وتقنياتها الحكائية، وتوصيل للحاضر بالماضي العميق، وقد حققت السيرة ذلك من خلال هذه النماذج للصور الكرامية.

الكرامة الأسطورية / الولي العملاق

تُعتبر شخصية الوَلي في الكرامات الإسلامية من الصور الكرامية المشهورة التي تمتاز بمقدرتها على القيام بأعمال تستحيل على شخصيات أخرى لأنها تُمثل "القطب الذي منه ينطلق الحدث فوق الطبيعي، وعليه يقع؛ أي إنها إحدى المكونات الأساسية في تحديد الفانتاستيك من خلال المميزات الأخلاقية، والمتجلية في

الأوصاف والسلوك النسبي والمادي والأفعال المتجسدة، انطلاقاً من الحركات والأقوال" وبهذا تَتَحدَّد سلطة الولي على الواقع من خلال اختراقه بقوى غيبيَّة وممارسات عجائبية، وتعتبر حكاية الولي أبو شوشة وضريحه المقام على أرض قرية الرّينة التابعة لمدينة الناصرة شمال فلسطين، من الحكي الكرامي الذي تُنسج حولها مرويات كرامية تتعدد في صورها المقدسة والأسطورية "كان أبو شوشة مثل عمود عملاق يداه تُحاوران السماء. بل وصل رأسه إلى السماء. غاب بين الغيوم. بعد يومين انحبس المطر. والسَيْل في الوادي يهدر ويعربد، وشيئاً فشيئاً تنخفض المياه. لكنَّ يديه ظلَّتا مفتوحتين للسماء. والناسُ تسبح. بعد أيام صار جسم أبو شوشة يغور في الأرض. ظلَّ يغور تدريجيّاً. حاول بعض الناس انتشاله وإنقاذه، لكنه أومأ إليهم بحزم أن لا يقتربوا. واخيراً غيَّبه الوَحل ولكن شوشته ظلَّت عائمة فوق الطمي والوحل. والناس تسبح" ويَظهر في النص صورة أسطورية للولي؛ فهي صورة لا تتجلى إلا في عالم الأساطير كأسطورة عوج بن عناق الكنعانية، وهذا التَّضخيم والتَّخييل في رسم صورة الولي العملاق يعكس حجم التَّبجيل المُقدس، والعناية بإخراج الولي على أكمل صورة، وعلى أعلى درجة من التَّمايز البشري، والتَّسبيح في الحكاية المَروِية إظهار للتعجب من المشهد، كما هو تنزيهٌ لله تعالى.

وقد جعلتْ هذه الأبعاد الاجتماعية والدينية شخصية الولي أبو شوشة محاطة بهالة من التَّكريم والإجلال، وزودتها بالقدرة والنُّفوذ، والاعتقاد بتأثيرها الممتد في حياتهم، من خلال إقامة طقوس البركة في المناسبات الدينية وغيرها كلما استدعت الحاجة لبركات هذا الولي، وتبدو هذه المقامات في التَّصور الشعبي الديني محطات لاستجلاب الراحة النفسية، وطلباً لتحقيق الأماني المرجُوَّة، وشخصية الولي هُنا كما في كثير من نماذج الأولياء وأضرحتهم، يُعتقد بأنها شخصية وسائطية مُتدخلة "أرضية سماوية" رغم موتها وغيابها الفيزيائي.

٢,٣ الكرامة العجائبية / الولي المُنق

وهذه حكاية في عُرف الزُّهاد والمُتَصَوفة ومريديهم تُعَدُّ كرامة صوفية، وهي القدرة على التغلب على المصاعب والمهارة الفائقة على التَّصرف في الأزمات. ويبدو فيها الولي قوة فاعلة ومُؤثرة، وصاحب تَمَيُّز وقدرة على تجاوز الواقع وعبور الزمن، والتَّحكم المباشر والإنقاذ الفوري للمواقف الحرجة "روى لي جدّي لأُمي، أكثر من مرة، عن حلقة ذِكر أحياها في بلدتنا الدّراويش من بلدة الشَّيخ دنُّون وحضرها عدد غفير من الناس. وحدث في أثناء الدروشة أن بدأ أخوه عبد الرازق بالسخرية منهم. لم يهتم الدَّراويش بسخرية الرجل في البداية إلا أنه تطاول وتمادى بها فتقدَّمَ أحدهم منه وطعنه بالسَّيف ببطنه فاندلقت أمعاؤه ومعدته.

وحدث هرج ومرج، وكادت تنشب فتنة، فالدَّرويش الغريب طعن أحد أبناء البلدة. وحاول بعض الرجال أن يعتدوا عليه إلا أنَّ شيخ الدَّراويش تناول شرشفاً وغطى جسد الرجل وقال اطمأنوا. لا تخافوا! وطلب من رفاقه الاستمرار بحفلة الذّكر {...} وتقدَّم من عبد الرازق وأزاح الشرشف عن جسده وأعاد المعدة

والأمعاء إلى بطنه وضغط براحتيه على الجرح حتى اقترب اللحم من بعضه ثم بلَّل أصابعه بريقه ومسح الجرح فالتأم وقال: انهض بأمر الله.

وقام عبد الرازق سليماً معافى بمشيئة الله. وكان جدي لأُمي يقسم لي أنَّ أثر الجرح بقي على بطن أخيه مثل خط أبيض رفيع طيلة حياته. ويُضيف هؤلاء من أهلِ الله يا ولدي" والكرامة هُنَا ترصد تحولاً في الوظائف والأدوار الفردية، وتُقدم صورة بطولية للولي المُخَلص القادر على إنجاز الفعل العجيب والممارسة الغريبة، وتُقدم شخصيته في فضاءين:

الفضاء الطبيعي: باعتبار فعل الولي مألوف (الحضور الشخصي)

الفضاء الخارق: باعتبار فعل الولي مفارق للمألوف (الحضور الكرامي)

وما بين الفضاءين يرتقي الولي بقدراته، ويرتفع من صورته الإنسانية المشهودة إلى الصورة الكرامية الخفيَّة التي يخرق معها الحدث والزمن، وينفتح على عالمه الخاص ويتجاوز الواقع، وعلى المستوى السردي للكرامة نجدها قد حققت الوظيفتين: الإخبارية والتخييلية.

الكرامة المَددية: الولي المقاتل

وفضائل وكرامات الأولياء لا تخلو من الحكاية البطولية الباعثة للصحابة المجاهدين في قتالهم إلى جانب المسلمين ومساندتهم، وهي صورةٌ تُحيل على تحولات القتال من عوالمه المادية إلى الثقافة الشعبية الدينية الواسعة التي تعكس الحاجة الدائمة إلى الإحساس بالأمان والقوة، والاستقواء بعوالم غيبية لتحقيق النصر والغَلبة، كما تُحيل على المرجعية الدينية للملائكة التي قاتلت المشركين في معركة بدر "وروى بعض من شاركوا في معركة الجبل، أنهم رأوا الصحابة الذين جاءوا مع الخليفة عمر، ثم عاشوا وماتوا ودُفنوا في الجبل، ينهضون من قبورهم، ثم ينقضون على الأعداء يقتلونهم بسيوفهم، فصدقهم بعض الناس، وكذبهم آخرون" ويقع هذا النمط من الكرامات في دائرة التشكيك والتردد في التَصديق لتجاوزها سلطة الزمن وخرق الواقع، بالإضافة لولوجه العاطفة الدينية الجامحة في تأويل حسم النصر في المعارك التي وقعت في فلسطين، كمعركة جبل المُكَبر في القدس التي وقعت إبَّان النكبة الفلسطينية في العام ١٩٤٨، والاختراق في هذه الكرامة النموذج على مستويات متعددة للحدث والشخوص والزمان والمكان، وأبرز مظهر في هذه المستويات الخرق الزمني الذي يقوم بطي الزمن وتجاوز حركته الطبيعية، باستحضار الشخوص من الزمن القديم، وتوسم النصر بمكانتهم الدينية العالية، والانتقال بهم من فضاء الموت إلى فضاء الحياة؛ فهي كرامة تكسر خطية الزمن كما تكسر واقعية الفعل.

إنَّ التَّدخل الكرامي والتأييد والإمداد من قوى مُتمثلة بالملائكة والأولياء هي من الحكايات العجائبية التي

تتجلى في المعارك والحروب المشهودة في العالم، وغالباً ما تعكس رغبةً في تعظيم الأيديولوجيَّة التي تحتكم لها القوى المُتصارعة.

أمَّا المَزارات والأضرِحة والمواسم الدينية؛ فإنَّها تُمثل فضاءً رحباً للحكايات الكرامية والمرويات الخارقة للعادة، ويتم الاستعانة بها والالتجاء إليها للتَّقرب إلى الله تعالى، طلباً للرحمة وقضاء الحوائج، وتحقيق الآمال من رزق وشفاء وبركة، ويرى مُريدوها أنَّ التَّعدي عليها بأي شكلٍ من الأشكال هو مساس بمقدسات جليلة وقدحٌ بمقامات عُليا؛ حسب الاعتقاد الشعبي السائد لارتباطها بأرواح الأولياء ومآثرهم الدينية واجتراحاتهم الخارقة "لكل أسطورة حكاية. جدتي تقول إنهم فشلوا في إزالة المقبرة بعد أن تكسَّرت جرافاتهم أكثر من مرَّةٍ وتعطلت، لأنَّ في المقبرة قبر الرجل الصَّالح أبي فَرَج، الذي عاند قبره أسنان الجرَّافات، وتكسَّرت أكثر من مرةٍ وتعطلت عندما اقتربت من المقبرة. يؤمن آباؤنا بأنَّ بركة أبي فَرَج حمت المقبرة" وهذه الثقافة تنظر لأضرحة الأولياء نظرة التفخيم والتمجيد لاعتقادهم بقدرة الأولياء على نفع الأحياء ببركتهم ومناقبهم، وهي ثقافة تخلع عليهم الحَصانة والقداسة والطُهر، وبهذا تكون للأولياء سُلطة قوية على الأحياء الذين يتعلقون بهم ويؤمنون بخوارقهم - سلطة الأموات على الأحياء - ويتضح من المكونات السردية لخطاب الكرامة أنه خطاب احتفالي يتضافر مع الخطاب الحجاجي ويتعزز به.

الكرامة المُمَانِعة: الولي الأَبِي

وتلتصق الكرامة بكثير من صور البُطولة والتضحية أمام عبثية الإنسان وجَوره وتسلطه، وهي الصور ذاتها التي تُخَلد الولي، وتضعه في مقام القداسة والبركة والرمزية الدينية، وكما تجتمع الكرامة للرجل تجتمع للمرأة "أما "بنات السِدْرَة" فقد تناقل الناس أنَّهُنَّ ثلاث صبايا عشن في عهد من العهود السوداء التي مرَّت بها بلادنا في الحروب والغارات الكثيرة.. تستطيع أن تتخيل هجمة جيش غاشم في تلك العهود: القتل والسَّلب والاغتصاب. هؤلاء الصَّبايا قاوَمنَ الاغتصاب بكل ما أُوتينَ من قوة واخترن الموت على الذُّل وتحطيم الذات. قُتِلْنَ ودُفِنَّ في ثلاثة قبور متجاورة تحت شجرة سدر. واعتُبرت تلك القبور مقدَّسة، شفاعتها تُرجى. لاحظ كم من النساء عاشت وماتت ولكن هؤلاء بقين في الذاكرة والوجدان، قيمة ومثلاً" ويبدو في النص أنَّ صناعة الكرامة تتطلبُ موقفاً بطولياً وحدثاً فادحاً حتى تلج الفضاء الكرامي الذي تتجسدُ فيه عناصر متعددة، تُحقق البعد الوظيفي في إضاءة الحكاية الكرامية؛ حيث البنات الضحايا والأضرحة المقدسة وشجرة السدرة، ولكل عنصر دوره في البركة الملازمة لظهور القداسة وتحول المكان إلى مزار ديني ومقصد للتَّبرك والتَّشفُع، وحضور شجرة السدرة شكَّلَ بُعداً وظيفياً آخر مُسانِداً لصناعة الكرامة، باعتبارها فضاءً كرامياً مستقلاً نشهده في الثقافات والديانات؛ فالكرامة في هذا النص مُركَّبة بعناصرها ووظائفها، وتحتل شجرة السدرة مكانة وقدسية في ذاتها، ولها قصصها الفلكلورية والشعبية ومرجعياتها الدينية،

وتدور حولها معتقدات غريبة.

الكرامة الخَيريَّة: المجنون "المبروك"

من المفارقات العجيبة أخذ الحكمة من أفواه المجانين كما جاء في القصة المأثورة ، ومنها أيضا قراءة الطالع والتنبؤ بالمستقبل بمقدرة المجانين، لارتباط عالم الجنون بالاستثنائي والمختلف؛ إذ تُعتبر شخصية المجنون شخصية إشكالية التباسيَّة بسبب أطواره الغريبة وسلوكاته المُثيرة للجدل، والباعثة على السخرية أحياناً، لكنَّ "المُشكل الذي تكشف عنه وتخبئه معرفة الجنون في الوقت ذاته هو أن يكون الجنون قادراً على الانفتاح كُلية على العقل ليسلمه كامل أسراره" وهناك من يرى أنَّ ثمة شَعرة بين الجنون والعبقرية؛ فهو عالمٌ يلفه الغموض والعمق، ويُعتقدُ في الجنون "أنه يبتدئ بالضبط عند النقطة التي تضطرب فيها علاقة الإنسان مع الحقيقة؛ فالجنون لا يمكن أن نتحدث عنه إلا من الخارج" وتصور آخر يعتقد أنَّ الله تعالى يُجري على ألسنة بعض البُسطاء من الآدميين – أصحاب البركة أو المباركين – البُشرى والتحذير، ويكشف لهم المستور لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم، ما يدخلهم إلى عالم الكرامات والطاقات الروحية، "لقد صرخ مجنونُ البلدة في الهزيع، مُحذّراً الناس من أنَّ الغرباء سيأتون على مراكبهم السوداء، بوجوههم الغُوليَّة المشوهة وقرونهم الحادَّة وأظفارهم التي هي مخالب ذئاب هرمة، يحملون السواطير والقضبان البرونزية التي تشرُّ حدَّة، وبملابسهم المعدنية المُطْفَأة.. سيهبطون على الشاطئ، في ليلٍ بهيم، ينهبون ويسلبون، وسيبيدون القصور والقلاع والمعابد، وسيدخلون البيوت من أوَّلها إلى آخرها، سيغرزون سكاكين أيديهم الآثمة القذرة في بطون الحوامل، وينزعون الأجِنَّة من الأرحام، وسيقهقهون وهم يرفعونها وهي تنبض بالدَّم الفوَّار، وسيلتهمونها، فتتبقَّع وجوههم بفقاقيع تتخثَّر، فيُصبِحون أكثر رُعباً وتوحشاً" وبعض ما يُميز شخصية المجنون أو "البهلول" شُهرته وشعبيته وحضوره الاجتماعي اللافت، و"حكمة الطبيعة هي من العمق لدرجة أنها تستعمل الجنون درباً آخر يقود إلى العقل، إنها تجعل منه الدرب القصير المؤدي إلى الحكمة، مُتخطياً أشكاله الخاصة من خلال عناية غير مكشوفة" وقد يُنظرُ للجنون بالاختلاف وليس بالاختلال، والاستعانة بدال شخصيته في الخطاب يُحقق وظيفة لها بُعد زمني في حصول المعرفة بالزمن وعبوره وادراك التفاصيل والأحداث القادمة، ويعمد كاتب السيرة إلى تجريم العدو- الغرباء - عبر صورته الوحشية وممارساته السادية التي يُقدمها كجزء من نبوءة المجنون.

تتجلى الأجناس الحكائية من أسطورة وخُرافة وكرامة، عناصر دالة في السيرة الذاتية الفلسطينية، وتُمثل مرجعاً مُهماً في خطابها ورسم فضاءاتها، وتوظيفها يُعدُّ أحد أشكال البحث عن المعنى في الخطاب، وتحقيق جماليته وتميزه على مستوى مضامينه المختارة، وتفاعل كاتب السيرة معها هو تفاعل أصيل مع الموروث الشعبي الذي هو جزء من الهوية الذاتية، والهوية الجمعية، وبعض كُتَّاب السيرة يُعِدُّ نفسه ابناً شرعياً أو وريثاً مالكاً لهذه الأجناس الحكائية، وتخييله في السيرة هو امتداد طبيعي لها، ومزجه بين نظام الواقع ونظام

العجيب والغريب هو محاولة لتخطي عوالم السيرة عبر سياقات الأسطورة والخرافة والكرامة، وقد لمسنا أنَّ الاهتمام بها على مستوى السرد والحكي يتطلب لغة شعرية وتحليقاتٍ واسعة في التَّخييل.

إنَّ الحضور الواسع لهذه الأجناس الحِكائية في السيرة الذاتية الفلسطينية يشكل ظاهرة فنية تتحاضن مع نسيجها الخطابي، وتُطَوعه لاستقبال كل أنماط الخطابات التي تَصنع السيرة، وتُجَلي فضاءاتها المتنوعة، مما يسترعي فهم السيرة الذاتية الحديثة على ضوء هذه المعطيات والتفاعلات.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

أرنست كاسيرر، الدولة والأسطورة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٧٩.

حسين البرغوثي، سأكون بين اللوز، دار راية للنشر، فلسطين - رام الله،٢٠١٥

حنَّا أبو حنَّا، ظل الغيمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة – بيروت، ١٩٨٦.

عدنان ضميري، مكان مؤقت - سيرة الجنرال المخيم والاعتقال، دار طباق، فلسطين- رام الله، ط١، ٢٠١٨.

علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٧.

فاروق خورشيد، عالم الأدب الشعبي العجيب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩١.

فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين – دمشق، ط١، ١٩٩٧.

المتوكل طه، أيام خارج الزمن، سيرة كاتب - نصف قرن من الدم والحبر، دار فضاءات، الأردن - عَمان ط١، ٢٠١٧

مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، العدد: ١٢، ٢٠١٨، بحث: محمد الولي، الحكاية الخرافية مسرحاً للقيم المتسارعة.

محمد عجيبة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي – بيروت، ط١، ١٩٩٤.

محمد علي طه، نوم الغزلان، الشروق، فلسطين - رام الله، ط١، ٢٠١٧

محمود درويش، يوميات الحزن العادي، دار العودة، بيروت،ط٥، ١٩٨٨.

محمود شقير ظل آخر للمدينة، دار القدس للنشر والتوزيع – القدس، ط١، ١٩٩٨

مُريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، المغرب- الدار البيضاء، ط٤، ٢٠١١.

مشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠١٢.

ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة بنكَراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ٢٠٠٦.

نضال الصالح، النزوع الأُسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، ط١، ٢٠٠١.

وليد سيف الشاهد المشهود - سيرة ومراجعات فكرية، الأهلية، الأردن - عمان، ط١، ٢٠١٦.

أوّل الكلام

محمد علي طه

اكتشفت بالصّدفة أنّني بلا عنوان في بطاقة هويّتي الزّرقاء التي رفضها ورماها على الأرض رئيس حكومة إسرائيل الأوّل خواجا بن غوريون بعدما شاهد الحروف العربيّة عليها في حين تمسّكنا بها نحن العرب الباقين في وطننا برهانًا على وجودنا وعلى بقائنا. وذهلت لهذا الاكتشاف ربما النيوتني الذي أثار مخاوفي بعد أن سمعت قبل أسابيع قليلة أنّ الوزير الرّغيفيّ المدعو ايتمار بن غفير يرغب بتصحيح خطأ بن غوريون الذي سمح في لحظة إنسانيّة نادرة ببقائنا في وطننا. ولا يحترم بطاقة الهويّة الزّرقاء ولعلّه يقول لحامليها ودافنيها في صدورهم: «لا تفرحوا على سخام ستّاتكم !" وستّاتكم بالعاميّة المحلّيّة معناها جدّاتكم . والسّخام على ذمّة القاموس هو سواد القدر، وسخّم الله وجه فلان أي سوّده وأظنّ وبعض الظّنّ اثم أنّ كلمة سخام هنا تعني نكاحًا . وإذا كانت بطاقة هوّيتي لا تحمل عنوانًا واضحًا لي فهذا يعني في عرف معالي وزير آخر الزّمان أنّني على الأرض سائح، وأنّ هذا الوزير الحامل للأوزار يرى أنّ ما فات مات، ولا بدّ من تصحيح الخطأ، كي ينام ويستريح بعدما منع الرّغيف العربيّ الذي يعجنه ويخبزه الأسرى الفلسطينيّون معتقدًا بعقليّة هبنّقة أنه بمنع رغيف الخبز يوقف المقاومة ومعاداة الاحتلال.

لا تفغروا أفواهكم عجبًا، ولا تسقط أحناككم إذا وجدتم أنّ عبد الله العربيّ في النّاصرة وأم الفحم ورهط منذ رمى خواجا بن غوريون بطاقة الهويّة إلى أن وصل إلى سدّة الحكم شابّ من ظهر مؤرّخ وشرعن إعدام حرف الضّاد في قانون القوميّة، وهو يعيش في وطنه ومسقط رأسه بلا عنوان. وحدث قبل موسم انتخابيّ، وبعد أن تجاوز عدد القتلى العرب في ذلك العام المائة شخص في حوادث العنف في حرب داحس والغبراء أن دعاني نائب عربيّ في الكنيست الذي هو برلمانهم في الكلام الغربيّ وهو مجلس الشّورى عند أمّة لا إله إلا الله، وبينما كنت صاعدًا الدّرج إلى القاعة وأنا أردّد في سرّي: والله صرت في الكنيست يا عبدالله، وإذا بصوت يصرخ: «محبيل محبيل» فلمّا التفتّ إلى مصدر الصّوت وجدت رجلا

ربعة يعتمر "كيباه" وفي عنقه ربطة عنق والحقد ينبثق من عينيه يشير إليّ ويردد محذّراً «محبيل محبيل» وهذا معناه بالعربيّة الفصحى «مخرّب» فقلت له: «يحبّل أختك" فهجم عليّ كما يهجم الذّئب الضّحراويّ على فريسته فقلت: يا عبد الله، إذا كان لا بدّ من الموت فمن العار أن تكون جبانًا، فالتقى الكفّ بالكفّ، والذّراع بالذّراع، والسّاق بالسّاق، فجندلني وجندلته وسقطنا على الدّرج وتدحرجنا والواحد منا قابض على تلابيب الآخر وكان يشتمني «يلعن الجمل اللي حمل أبوك!» فأشتمه «يلعن البابور اللي حمل امّك» وتبيّن لي أنّه حمار. لا يدري أنّ والدي جاء من الحجاز إلى البلاد على ظهر ناقة وألّا خبز له عندي في حرب الشّتائم. احِمّ. إحِمّ!! وذكّرني معاليه "يلايَلّي» بهبنّقة الذي كان يرعى غنم أهله فيرعى السّمان في العشب وينحّي المهازيل، فقيل له: ويحك ما تصنع؟ قال: لا أفسد ما أصلحه الله ولا أصلح ما أفسده. ومن حمقه أن جعل في عنقه قلادة من وَدَع وعظامٍ وخزف، فسئل عن ذلك فقال: لأعرف بها نفسي ولئلّا أضلّ. فهل نعيش في زمن يحكمنا فيه هبنّقة أم الوزير الرّغيفيّ؟

هذه الحالة الغريبة التي لم يعثر عليها السّندباد البحريّ في الجزر النّائية جعلتني أردّد في ساعات الضّيق: «ما كنتُ» وأصمت أو «ما كنت أوثر». وكي لا أقع تحت طائلة القانون في زمن القوننة وبخاصّة أنّ العربيّ في بلادنا متّهم بكلّ التّهم حتى تثبت براءته لذلك فعلت ما فعله الشّاعر الأديب أبو العلاء المعرّيّ عندما كان في ديوان الشّريف المرتضى في بغداد ودار حوار أدبيّ عن شاعريّة أبي الطّيّب المتنبّيّ فطعن المُضيف بشاعريّته فصمت المعرّيّ غاضبًا وكيف لا يغضب وقد شرح ديوان المتنبّيّ وأسماه معجز أحمد الا أنّه تنحنح وقال: المتنبيّ شاعر عملاق وتكفيه قصيدته «لك يا منازل في القلوب منازل». فأمر الشّريف المرتضى بطرد الأديب من المجلس شرّ طردة. ولما سأل أحد النّدماء الشّريف المرتضى عن سبب طرد الأديب الشّاعر أجاب: هذا الأعمى يقصد بيتًا في القصيدة يقول: اذا أتتك مذمّتي من ناقص فهي الشّهادة لي بأنّي كامل. وأنا اليوم أترحّم على الشّاعر الطّغرائيّ صاحب «لاميّة العجم» التي مطلعها:

أصالة الرّأي صانتني عن الخطل

والتي فيها البيت المشهور : «ما كنت أوثر أن يمتدّ بي زمني» وزيادة في التّقيّة بدّلتُ كلمة «دولة» بكلمة «سلطة» بدون استشارة الشّاعر أو المحافظة على حقوق المؤلّف ويبدو أنّي أحسنت الظّنّ بمعالي الوزير الرّغيفيّ فمن أين له أن يحفظ الشّعر وهو لم يسمع مطلقًا بالمعرّيّ والمتنبّيّ والطّغرائيّ بل من المؤكّد أنه لم يقرأ بياليك ويهودا عميحاي !!

بداية الرّواية

فرحتُ في ظهيرة هذا النّهار فيما أنا عائد إلى بلدتي وأقود سيارتي الصّغيرة على مهلي كأنّني «أمشي على بيض» كما نهرني سائق شابّ اجتازني، فالسّائقون الشّبّان والسّائقات الشّابّات – ما أحلاهن – كانوا يرخون العنان لزوامير سيّاراتهم، ومن المرجّح أنّهم كانوا يلعنون عضوًا من أعضاء جسد أم معلّم السّياقة أو جسد أخته الذي درّبني على قيادة السّيّارة أو يشتمون الممتحن الذي أجازني للسّياقة.

أقول «فرحت» بالرّغم من ندرة الفرح في هذه الأيّام العصيبة التي صار فيها الذّئب راعيًا لقطيع الحملان، وصار ابن آوى ناطورًا على قنّ الدّجاج ، وصار القطّ حارسًا لقدر الحليب، ولكن والدتي قالت لي مرّات عديدة: لقمة الفرح إذا لم تستطع أن تتناولها فاسرقها وكُلْها ! ولقمة الفرح هي وجبة العرس أو وجبة العقيقة أو وجبة الختان أو أيّة وجبة تُقدّم في مناسبة سعيدة. وأرجو أن أكون قد شوّقتكم لمعرفة سرّ هذا الفرح. وهذا الأمر ليس حزّيرة من تلك الحزازير التي كنّا نطرحها على بعضنا في سهراتنا في أيّام ولّت بعدما سيطر الجوّال على سهراتنا العائليّة وصار أفراد العائلة يسهرون بدون كلام، وصار الشّابّ يغازل الصّبيّة بدون كلام فأنامل كلّ فرد من أفراد العائلة تداعب جوّالها الذي صار سيّد القعدة وأمير السّهرة. وأمّا علّة فرحي فهي كبيرة عندي ولعلّها صغيرة عندكم. فقد صار لي عنوان في بلدتي. هذه القرية التي كانت على مرّ عقود عزلاء منسيّة، وشوارعها بلا أسماء كما قال الشّاعر.

عشتُ عقودًا وأنا بدون عنوان وكان أهل الرّأي والشّورى يسخرون مني في بعض الحالات ويستغربون في حالات قليلة أخرى حينما يسألونني عن عنواني فأذكر لهم اسم قريتي ولا أذكر اسم الشّارع أو رقم البيت كأنّنا نعيش في جزيرة نائية.

كان لقائي الأول مع البريد في العام ١٩٦٠ عندما كنت شابًّا يافعًا. وصل موزّع البريد قادمًا من قرية طمرة المجاورة يرتدي ملابس رسميّة خاصّة لموزّعي البريد ويعتمر قبّعة غريبة. وكان يسأل عنّي الرّجال والنّساء والأطفال الذين يصادفهم في طريقه حتى اهتدى اليّ وسلّمني رسالة عليها طابع بريد وطلب منّي أن اوقّع اسمي الثّلاثيّ على ورقة رسميّة فيما كانت ثلاث نساء من حارتنا ينظرن إلينا مشدوهات، وبلغت دهشتهنّ الذّروة عندما سمعوه يقول لي بأنّه تعب وهو يسأل كلّ من صادفه عنّي. وسمعت جارتنا زينب الحسن تقول: ما شاء الله. صارت الحكومة تسأل عن ابن عزيزة. مع أنّ الصّوص خرج من البيضة قبيل أيّام. وبعده ما صار مختار أو عضو لجنة !!

ولم اعلّق على كلام زينب لأنّها امرأة سليطة اللسان أي «شَلَقَة» بالتّعبير القرويّ وتتجنّبها نساء الحارة اذا تشاجر ابنها عثمان مع ولد من الأولاد وعاد اليها باكيًا .

مضت إلى غير رجعة عشرة أعوام بعد تلك الرّسالة وأنا بدون عنوان، ولا يهتدي إليّ غريب. وفي أواخر

ستّينات القرن العشرين افتتح إعلاميّ اسرائيليّ شابّ برنامجه الاذاعيّ في إذاعة إسرائيل العبريّة بأنّه رغب بالاتصال بالأديب الذي يسكن في قرية كابول في الجليل، ولا يملك عنوانًا له، فاتّصل بدائرة الهاتف في وزارة البريد كي يحصل على رقم هاتفه فاخبروه بعدم وجود خطّ هاتفيّ يربط القرية بالمدينة أو بالدّولة فقرّر أن يرسل برقيّة للأديب يخبره فيها عن زيارته له وباليوم وبالسّاعة التي سيتمّ بها اللقاء فأخبرته دائرة البرق في وزارة البريد بألّا اتصال برقيّ مع هذه البلدة النّائية لعدم وجود هاتف فيها، وأبدى الإعلاميّ استغرابه من وجود قرية في هذه الدّولة العصريّة بلا خطّ هاتف ومنقطعة عن العالم الخارجيّ، فلا عنوان للكاتب فالشّوارع بدون أسماء والبيوت بدون أرقام والقرية بدون كهرباء وبدون تلفون. وتابع الاعلاميّ: حينما وصلت الى القرية ساعدني أحد الفتيان بالوصول الى بيت الأديب فوجدت مجموعة من الأولاد يلعبون في ساحة منزله فسألته: لماذا يوجد عندك عدد كبير من الأولاد؟ فأجابني لا يأتي الى قريتنا مهاجرون جددٌ وأمّا زيادتنا الطّبيعيّة فهي من أرحام نسائنا.

استغرب الاعلاميّ التّل أفيفي كيف نعيش بدون كهرباء وبدون تلفون فحدّثته عن قصة لي اسمها «كتاب في القرية» كتبتها بعد صدور مجموعتي القصصيّة الأولى «لكي تشرق الشّمس» في العام ١٩٦٤ وفيها فقرة عن قرويّ عانى من مرض البواسير، وبعد آلام قاسية وزيارات لعيادة الطّبيب في المدينة قرّر الطّبيب أن يحرق له البواسير بالكهرباء وهي عمليّة مؤلمة جدًّا تجعل المريض يصرخ عاليًا من شدّة الوجع وأمّا القرويّ فكان يقهقه كلّما مسّت الكهرباء مؤخّرته فاستغرب الطّبيب لأنّ جميع المرضى الذين يعالجون بهذه الطّريقة يصرخون من الألم فسأله: لماذا تضحك؟ فأجاب: أضحك.. لأنّ الكهرباء وصلت الى طيزي قبل أن تصل الى قريتنا يا حضرة الحكيم !

ومعذرةً على استعمال هذه الكلمة التي تبدو نابية فقد حاولتُ أن أستعيض عنها بكلمة مؤخّرة أو شرج أو إست فوجدتُ أنّها لا تفي بالمعنى.

وبعد سنوات من نشر قصّتي في احدى الصّحف في البلاد ثمّ في مجموعتي القصصيّة الثانية «سلامًا وتحيّة» سمعت القصّة أو الطّرفة بحذافيرها في مسرحيّة ساخرة قدّمها الفنّان السّوريّ المشهور دريد لحّام المعروف بغوّار الطّوشة وكتب نصّها الشّاعر والأديب السّوريّ محمّد الماغوط وتساءلت: هل قرأ الأديب السّوريّ قصّتي أم أنّ الأمر توارد خواطر؟ أم أنّ الشّعوب تتشابه في الهمّ والوجع والفكاهة؟ قريتنا تكاد تكون حارة قديمة في دمشق والنّاس يعرفون دمشق منذ كانت عاصمة للأمويّين مرورًا بمعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك وأبنائه حتى مروان الحمار ويعجبون من الشّام ويغنّون في الأعراس «شاميّة وجاي من الشّام، من الشّام جاي الشّاميّة، عيونها عيون الغزلان، خدودها وردة جوريّة، حواجبها جوز أقلام، مثل السّيوف المحنيّة، يا صديرها كواز الرّمان، قطف قطف بيديّة» ويزعم الخبيرون بمجال النّساء أنّ المرأة الشّاميّة هي أجمل نساء الأرض ولا تنافسها في هذا المجال سوى

غريمتها المرأة الايطاليّة. وأقول كلّ هذه الثّرثرة كي أؤكّد على أنّه لا يصحّ لي أن اربط قرية نائية مجهولة لا ذكر لها في الخرائط والأطالس بمدينة كبيرة كانت وما زالت عاصمة الثّقافة والفنّ على الرّغم من أنّ قريتنا مذكورة في كتاب «العهد القديم».. في سفر «الملوك» بعد أن أهداها الملك سليمان بن داود مع منطقتها الى ملك حيرام الذي اهداه الخشب اللبنانيّ القويّ والثّمين لبناء الهيكل في القدس ويقال أنّ حيرام عندما زار المنطقة لم تعجبه فأعادها الى سليمان بلا أسف. لماذا فعلتها يا حيرام فقد قالت الهدهد لسليمان عندما اهدته جرادة " إنّ الهدايا على مقدار مهديها، ولو كان يهدي للإنسان قيمته، لأهديت لك الدّنيا وما فيها « !!

راحت عليهم نومة

ويبدو أنّ عمل حيرام أدّى الى الّا تقع عيون أولاد عمومتنا على قريتنا بعد النّكبة فأبقوها كما هي مع قرى أخرى في قضاء مدينة عكّا فلم يهجّروا أهلها ولم يصادروا ارضها، وطالما تساءلت: كيف بقيت هذه القرية ولم يهجّر أهلها في حين دمّر الجيش القرى المجاورة: الدّامون والرّويس وميعار ؟ بحثت عن الأسباب فلم أجد مثلا أنّ مختارها كان متعاونًا مع " الهجناه « أو أنّ أهلها كانوا اكثر وعيًا من اهل الدّامون وميعار أو أنّ القوّات اليهوديّة التي احتلّت الدّامون فميعار في ١٨ تموز نسيتهم أم حدث لهم ما جرى للصّبية المقدسيّة التي حضرت صباحًا الى شارع صلاح الدّين في القدس العربيّة (بعدما احتلّتها إسرائيل في العام ١٩٦٧ وكبر الأسير الفلسطينيّ) كي تقابل أصحاب «دار نشر صلاح الدّين» وهم مجموعة شبّان مثقّفين وطنيّين من الجليل فوجدت مكتبهم مقفلا فاحتارت ماذا تفعل وكيف تتصل بهم فنصحها أحد جيران المكتب أن تعود في ساعات الظّهر بعد ان يستيقظوا من النّوم ويحضروا الى مكتبهم فعادت في السّاعة الواحدة ظهرًا فوجدت المكتب ما زال مقفلا فسألت الجار وهي محتارة فأجابها: ما زالوا نائمين يا أختي، عودي بعد ساعة او ساعتين! فقالت: الآن عرفت لماذا بقي عرب ال ٤٨ في فلسطين، لقد راحت عليهم نومة!!

فهل راحت نومة على أهل كابول؟

لا أظنّ كما لا اعتقد أنّ السّبب يعود الى ما زعمه باحث اكاديميّ عربيّ بأن المسؤولين الإسرائيليّين هجّروا ودمّروا القرى العربيّة التي تقع في القسم اليهوديّ من قرار التّقسيم في حين ابقوا القرى الواقعة في القسم العربيّ فقرى الدّامون والرّويس وميعار والبروة مثلها مثل طمرة وكابول وكوكب أبو الهيجاء وسخنين تقع في الدّولة العربيّة، كما لا اتّفق مع باحث آخر ادّعى أنّ القوّات اليهوديّة هجّرت ودمّرت القرى التي قاوم أهلها فلم تطلق رصاصة من الرّويس والدّامون وميعار في حين بقيت سخنين وشعب على الرّغم من المقاومة وتبادل اطلاق النّيران لعدّة اشهر بين شبّان سخنين المرابطين في موقع الجميجمة

وبين موقع القوّات اليهوديّة المرابطة في جبل برّاد من أراضي ميعار المحتلّة .

هذا السّؤال لغز عنيد أصعب من سؤال ابي الهول للعابرين في طريق المدينة .

وبقيت قريتنا كابول يعيش أهلها كما كانت زمن الملك سليمان بلا كهرباء وبلا تلفون وبلا خدمة برقيّات، وبقيت أنا بدون عنوان خاصّ فعنواني هو عنوان ايّ كابوليّ أو ايّة كابوليّة لا اسم للشّارع ولا رقم للبيت ولا علامة ولا إشارة!

الحاجّ الضّائع

في خريف العام ١٩٧٨ سمحت المملكة العربيّة السّعوديّة والمملكة الأردنيّة الهاشميّة لعدّة آلاف من مسلمي هذه الأقليّة الباقية في الوطن بتأدية الرّكن الخامس من اركان الاسلام وهو حجّ البيت الحرام ولا ادري ماذا كتبوا في نصّ قرارهم واتّفاقهم. هل اسمونا الحجّاج المسلمين من دولة إسرائيل المزعومة كما كانوا يسمّون هذه الدّولة التي جاءت الينا. هكذا كانت تسمّيها إذاعة القاهرة وصوت العرب وإذاعة عمّان وإذاعة سوريّا، وبما أنّ الشّيء بالشّيء يذكر فإنّ مختار احدى قرى الجليل القى خطابًا بحضور وزير الدّاخليّة، وهو يهودي ابن عرب، في حفل تدشين ربط القرية بشبكة المياه القطريّة فقال فيما قاله: "شكرًا لوزير داخليّة دولة إسرائيل المزعومة"، فاحتجّ معالي الوزير اليهودي ابن العرب على وصف الدّولة بالمزعومة فاستغرب المختار وقال: على ماذا الاحتجاج يا صاحب المعالي؟ هل أنتم أقدر باللغة العربيّة من صوت العرب؟!

وعلى ذمّة جريدة الشّيوعيّين أنّ ملك العربيّة السّعوديّة وملك الأردن ورئيس منظّمة التّحرير الفلسطينيّة عقدوا اجتماعًا طارئًا في جدّة في تلك الأيّام وبحثوا خطر انتشار الفكر اليساريّ الشّيوعيّ بين أبناء الجماهير العربيّة في إسرائيل وقرّروا فتح بوّابة الحجّ لهم وتشجيع انتشار الدّين الاسلاميّ الحنيف لمقاومة خطورة هذا الوباء .

في خريف العام المذكور سافرت برًّا عن طريق الأردن مجموعة من اهل قريتنا الى الحجاز لتأدية الرّكن الخامس من اركان الإسلام. وكان هذا السّفر حدثًا هامًّا بعد انقطاع منذ العام ١٩٤٧. ولما عاد الحجّاج، بعد حجّهم المبرور، وسعيهم المشكور، تبيّن أنّ حاجًّا مسنًّا من حجّاج قريتنا لم يعد مع العائدين. وانتشر الخبر كالنّار في الهشيم. أذاعته إذاعة إسرائيل بالعبريّة وبالعربيّة عدّة مرات، ونشرته الصّحف العبريّة على صفحاتها الأوائل وجاء الى قريتنا صحافيّون ومراسلون وعشّاق اخبار فوجدوا اهل قريتنا، كبارًا وصغارًا، رجالًا ونساءً قلقين حول مصير الحاجّ الذي لم يعد، وقابل مراسل الإذاعة العبريّة ابن الحاجّ المفقود فقال الشّابّ: لا اعرف ما جرى لأبي، ولكنّي اظنّ أنّه قدم الى المطار فسمع مناديًا ينادي: الى

كابول.. الى كابول. فتقدّم الى الطّائرة المسافرة الى كابول عاصمة أفغانستان وصعد اليها.

ونشر المراسل الخبر في المساء في الإذاعة بعنوان «من كابول في الجليل الى كابول في أفغانستان» وردّدته الصّحافة العبريّة وتناقله النّاس في المدن والقرى وصار الحاجّ الضّائع مشهورًا. ولم يسأل أحد من النّاس: هل يعقل أن ينادي المنادي المسافرين في المطار كأنّهم في محطة تاكسيّات النّاصرة؟ وهل في مكّة مطار؟ وهل يصعد الى الطّائرة من يشاء من المسافرين بدون تذكرة طيران وبدون جواز سفر وبدون فيزا؟ وما علاقة الحاجّ الكابوليّ بالسّفر في الطّائرة في حين سافر من قريته في الجليل الى الحجّ في حافلة؟ وعلى الرّغم من هذه التساؤلات الافتراضيّة فانّ النّاس صدّقوا سفر الحاجّ الكابوليّ الى افغانستان لأنّ القصّة فيها طرافة ودعابة وخيال شرقيّ ساذج. وتبيّن بعد اسابيع أن الحاجّ كان مصابًا بضربة شمس حجازيّة وكان يرقد في مستشفى مكّيّ فلما شفي سفّرته السّلطات السّعوديّة الى الاردنّ وسفّرته الأخيرة الى جسر اللنبي وعاد الى قريته واهله سالمًا. وربحت قريتنا شهرة واسعة في الوطن فهي قرية الحاجّ الضّائع. وفي سهرة في عمّان، عاصمة الأردنّ، مع عدد من الأدباء والفنّانين سألني احدهم: من أيّة بلدة انت من بلدات الوطن؟ فابتسمت وأجبته: من بلدة الحاجّ الضّائع، فضحك المحفل وقال احدهم: ذلك الذي طار الى كابول في افغانستان!

وحدث لي ايضًا، في مرّات عديدة، وفي دول عديدة، عربيّة واجنبيّة ما أن أقول "أنا من كابول" ردًّا على سؤال مستفهم عربيّ عن اصلي حتى يبتسم السّائل وهو يحدّق بي ويقول: من بلدة الحاجّ الضّائع. هو عنوان طريف لن ينساه صديق أو رجل ساخر!

صرتُ مواطنًا أفغانيًّا

وحدث أنّني كنت اقود سيّارتي الصّغيرة ذات صباح متّجهًا الى مدينة عكا لأتناول صحن حمّص من أحد مطاعمها، وجميع مطاعم عكّا تقدّم للطّاعم حمّصًا جيّدًا وشهيًّا، وفيما أنا سائر واستمع الى الفنّانة فيروز تغنّي «زهرة المدائن» رنّ هاتفي الجوّال، ولم تكن يومئذ رقابة شرطيّة على استعمال الجوّال في اثناء القيادة، واذا بصوت انثويّ ناعم يسألني: هل اتحدّث مع شاؤول؟ فأجبتها بأدب: الرّقم خطأ يا سيّدتي، وأقفلت الجهاز، وما كادت تمرّ ثلاث دقائق واذا الجوّال يرنّ ثانية فتناولته واذا بالصّوت نفسه: هل اتحدّث مع شاؤول؟ فأجبتها بصوت فيه تذمّر: الرّقم خطأ يا سيّدة. واستعذت بالله من الشّيطان الرّجيم ولولا أنّها سيّدة وصوتها ناعم جميل لأقفلت الخطّ بفظاظة ولم أجبها ولكنّ الهاتف رنّ مرّة أخرى بعد لحظات واذا بالصّوت نفسه وبالسّؤال ايّاه فقلت: أنت تتحدّثين مع كابول يا سيّدة، فصرخت: كابول ؟! فقلت: نعم. كابول، طالبان، قندهار، تورو بورو، أفغانستان. فصرخت السّيّدة مستغيثة: أوي فأفوي. أي. ويلاه؟!

وأمّا أنا فضحكت وانا أهمس في سرّي: والله صرتُ أفغانيًّا. نعم صرت افغانيًّا ذا لحية بيضاء طويلة وعمامة ودشداشة ومحتذيًا صندلًا بسيطًا مثل احذية اهل الجليل في زمن سيّدنا نوح وأحمل على كتفي بندقيّة عصريّة وأسير في الوديان في الجبال الشّاهقة وأقاتل الرّوس الكفّار الذين احتلّوا أفغانستان ليبيعوا شعبها الفكر البلشفيّ والمطرقة والمنجل واللون الأحمر القرمزيّ فعلقوا علقة ساخنة ولم يعرفوا من أين يأتيهم الموت فصاروا مثل مالك الحزين حينما سأله ابن اوى: ماذا تفعل اذا هبّت الرّيح من الغرب؟ فحدّد مالك الحزين أين يخفي رأسه، فعاد وسأله: وماذا تفعل اذا هبّت من الشّرق؟ ومن الجنوب؟ ومن الشّمال؟ ومن كلّ الجهات؟ فدفن رأسه فانقضّ ابن اوى عليه وافترسه.

وولّى الرّوس يحملون هزيمتهم وجاء الأميركان بكبريائهم وعلومهم واختراعاتهم ودخلوا بحيرة الماء الآسن فصرت أصرخ: "الله اكبر. الله اكبر" واقطع رؤوسهم بسيفي البتّار. أنا فارس من طالبان الذين دوّخوا الرّوس فالأميركان.

أرسل لي الشّاعر الإسرائيلي المقدسيّ دافيد عصمون بالبريد المسجّل مجموعته الشّعريّة «معوراف يروشلامي» مرفقًا بها رسالة مؤرّخة ب ١٩٩٠/١٠/١٠ أي فيها ثلاثة أصفار، وهذا فأل حسن، ولكنّ موظّف البريد الاسرائيليّ اختار بذكاء نادر أن يرسل الطّرد الى كابول عاصمة أفغانستان ولا سيما أن "دافيد" كتب اسمي واسم قريتي بحروف اللغة الانجليزيّة ظنًّا منه أن موزّع البريد في قريتي لا يعرف العبريّة وظنًّا منه أيضًا أنّ الرّسالة سوف تصل بسرعة وبخاصّة أن شعار دائرة البريد في إسرائيل هو الغزال وأنّ شاعرنا الشّابّ يعشق الغزلان.

الطّرد الغريب

اضطرب الشّابّ جمال الدّين الأفغانيّ وهو يفحص الطّرود في غرفته التي خصّصها له الجهاز منذ ثلاث سنوات لمراقبة بريد العاصمة مراقبة دقيقة .

مسح جمال الدّين لحيته السّوداء وتحسّس شفته العليا حليقة الشّاربين كما تنصّ السّنّة النّبويّة عندما وقع نظره على الطّرد العجيب ذي العنوان الغريب واسم المرسل الذي يستدعي الشّكوك فقرّر أن ينقل الطّرد الى رجل الأمن الكبير الشّيخ الرّائد مسعود ليتعامل معه .

حدّق الرّائد مسعود بالطّرد الذي أمامه باحثًا عن سرّ هذا اللغز الذي وصفه جمال الدّين قائلًا: "طرد غيرعاديّ يا سيدي الشّيخ. طرد مشبوه" !!

اعتاد الرّائد مسعود التّحقيق في طرود عديدة وصلت من بلدان الكافرين، أعداء الله واعداء الدّين، كما اعتاد على فحص أوراق وشهادات وملابس المتّهمين. وحقّق إنجازات عديدة في عمله الأمنيّ مما دعا

المسؤولين عنه الى منحه شهادة تقدير وضعها في برواز زجاجيّ وعلّقها على جدار الغرفة فوق رأسه ليراها كل من يدخل اليها !!

للرّائد مسعود هيبة، ووصلت سمعته الشّديدة القاسية الى احياء عديدة في العاصمة فهو مخلص وفيّ للنّظام يعمل بالآية الكريمة «أطيعوا الله والرّسول واولي الأمر منكم» ويسعى بنشاط كي يُرضي اولي الأمر فيترقّى في عمله. وعرف الموظّف الشّابّ جمال الدّين بذكائه الفطريّ هموم الرّائد مسعود كما شمّ نقطة ضعفه فصار يحضر له ملابس النّساء المتّهمات او ملابس الرّجال المتّهمين كي يتحسسها بأنامله الغليظة وبخاصة الملابس الداخليّة، وقد ضبطه ذات مرّة وهو يشمّ بأنفه الضّخم الملابس الدّاخليّة لمتّهمة شابّة. وكسب جمال الدّين رضا الرّائد مسعود بما قدّمه له من مستمسكات عن المتّهمين وعن زوجاتهم وعن بناتهم.

للطّرد لون قشرة الجوز وأمّا الطّوابع فغريبة لم يعهدها من قبل. والطّرد ليس كبيرًا وليس ثقيلًا بل يكاد يكون رسالة كبيرة من شخص ثرثار.

تحسّس الرّائد مسعود الطّرد للمرّة العاشرة وشمّه بأنفه الكبير للمرّة الخامسة. وتأكّد الا وجود لمواد متفجّرة. لا مساحيق ولا موادّ صلبة.

قرأ الرّائد مسعود سورة الإخلاص فالمعوذتين ثلاث مرّات ثمّ استعاذ بآية الكرسيّ ودعا الله أن يحميه ويحفظه من شرور أبناء وبنات الغرب الكافرين الملحدين العراة السّكارى أبناء وبنات الزّنى وآكلي لحم الخنزير الذي جعلهم لا يغارون على أعراض نسائهم ولا على شرف العائلة فالخنزير لا يغار على انثاه لأنّه فاقد للشّرف وكلّ من يتناول لحمه الدّنس يفقد قيمة الشّرف!!

بحث الرّائد مسعود في سجلّاته القديمة والحديثة مستعينًا بحاسوبه العصريّ الغربيّ عن اسم الشّخص المسجّل على الغلاف فوجد مئات الآلاف يحملون اسم محمّد صلّى الله عليه وسلّم كما وجد عشرات الآلاف يحملون اسم الامام عليّ كرّم الله وجهه ووجد آلافًا يحملون اسم طه ولكنّه لم يجد من يحمل هذا الاسم الثّلاثيّ سوى خمسة أشخاص، ثلاثة منهم فارقوا الحياة في غارات الرّوس وأمّا الاثنان الآخران فواحد منهم فلّاح عجوز لا في العير ولا في النّفير ولا يميّز حرف الطّاء عن ثمرة الباذنجان السّوداء وأمّا الثّاني فهو مدرّس متقاعد ولا بد من استدعائه، فأمر جمال الدّين أن يلقي القبض عليه ويحضره على جناح السّرعة!!

وفيما هو ينتظر حضوره فكّر أنّ هذا الاسم لا يدلّ على مذهب حامله فقد يكون سنيًّا شافعيًّا او حنبليًّا او مالكيًّا او حنفيًّا وقد يكون شيعيًّا وقد يكون من احدى الفرق المتعبة وهنا المعضلة. هنا يصعب الاهتداء على هذا العميل. وتوعّد أن يكسر عظامه وعظام والديه وجدّيه حينما يقع بين يديه.

ما معنى أن يتراسل هذا الشّخص مع صهيونيّ غربيّ عميل لأميركا الملحدة؟ ما معنى أن يصل اليه طرد من جيروزاليم؟ وردّد كلمة جيروزاليم مرّتين او ثلاث مرّات ثمّ همس كأنّ احدًا يراقب أنفاسه: من الكيان الصّهيونيّ؟ من القدس المغتصبة؟ هنا تكمن الخطورة. من صديقة أميركا. ربيبة الاستعمار الغربيّ الكافر!!؟

وضرب بقبضته على الطّاولة السّوداء التي امامه. لا بدّ من القضاء على عملاء أميركا وعملاء الاستعمار الذين يخدمون الكفّار الملحدين أعداء الله واعداء الدّين الاسلاميّ. علينا أن نطهّر البلاد منهم، من الدّنس الغربيّ. علينا أن نعتقل كلّ افغانيّ له علاقة بالغرب وكلّ من يستمع الى إذاعة أميركا. ويبدو أنّ هذا الصّهيونيّ الذي ارسل الطّرد واثق بنفسه فيكتب اسمه واسم عائلته وأنّه من جيروزاليم. ما شاء الله. ولا يكتب، من باب الحذر، اسم الشّارع الذي يقع فيه بيته ولا رقم البيت بل يكتب رقم المنطقة البريديّة ورقم صندوق بريده. وهذا دليل على أنّه يعمل في الجهاز.

عاد جمال يرافقه المدرّس المتقاعد الذي بدأ عليه التّعب ويبدو اكبر من سنّه الحقيقيّ بسبب لحيته البيضاء الطّويلة التي خضّبها الاصفرار وبسبب ظهره المحنيّ.

كشّر الرّائد مسعود تكشيرة مخيفة تزرع الرّعب في ساقي الرّجل وسأله بنبرة غاضبة: ما اسمك؟

- محمود.

فصفعه على وجهه وهو يرغي ويزبد ووبّخه: تغيّر اسمك من محمّد الى محمود يا عكروت؟

١-

قسما بالله، اسمي محمود يا سيّدي الشّيخ.

عاد الرّائد مسعود وصفع المدرّس العجوز وهو يقول: وتقسم بالله يا كذّاب. قلنا أنّ اسمك محمّد.

- نعم. نعم يا سيدي الشّيخ.

- ووالدك اسمه عليّ..

- كما تشاء سيّدي الشّيخ.

- وجدّك ؟

- جدّي أنا.

- نعم. جدّك يا جاهل.

- كما تشاء

- جدّك يا حمار

- جدّي اسمه إبراهيم.

- وما علاقتك بدافيد؟

- داهود ؟

- ايوه. ديفيد ؟

- داهود كان زميلًا لي في العمل وكنّا نناديه «أبو سليمان».

- ويسكن في القدس؟

- أي قدس يا سيّدي الشّيخ. كان يسكن في قرية بجوار العاصمة، قرية بدون شارع معبّد.

- بدأت تطعن بالنّظام يا عكروت!!

- لا يا سيّدي الشّيخ. النّظام على رأسي!!

- طيّب. والآن أين داود؟

- رحمه الله. مات في غارة أميركية.

- اختفى ويعيش في القدس.

- نحن لا نؤمن بتناسخ الأرواح!!

- تتواقح يا عميل؟

- أبدًا سيّدي الشّيخ. كلّ الاحترام والتّبجيل لك وللدّولة. عاشت الدّولة. عاش الشّيخ الرّئيس. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد!!

- يا جمال الدّين. تعال. خذوه. هذا العجوز المعتوه لا يفيدنا!!

جرّ الشّابّ جمال الدّين الرّجل العجوز وخرجا من غرفة الشّيخ مسعود بينما بقي الرّائد الشّيخ وحده غاضبًا قلقًا حائرًا!!

وكان الأمر المثير للدّهشة والعجب العجاب عندما فتح الرّائد الطّرد بحذر كبير فيما رأسه تحت الطّاولة، ووجد كتابًا صغيرًا مكتوبًا بحروف غريبة إلّا أنّها تسير من اليمين الى اليسار مثل اللغة الافغانيّة واللغة العربيّة وليس مثل كتابة لغة الكفّار!!

حروف هذه اللغة تشبه حروف اللغات القديمة؟!

بحث الشّيخ مسعود عن الدّيناميت بين حروف الكلمات وعن المخدّرات فلم يجد شيئًا. ولكنّ المرسل اسمه دافيد. وهذا يشير إلى أنّه نصرانيّ أو يهوديّ. هذا اسم رجل غربيّ. اسم رجل من الكفّار. اسم لعدوّ.

ولا بدّ أنّ له أصدقاء او أقارب او عملاء في عاصمة الدّولة الاسلاميّة.

لا بدّ من اعتقال كلّ شخص اسمه دافيد أوديفيد او داود او داهود او سليمان او موسى او يعقوب. يا جمال الدّين. هل سمعت الأوامر ؟

إذا كان هذا المرسل اسمًا حقيقيًّا وليس تمويهًا فهو يهوديّ صهيونيّ غربيّ عميل لأميركا وللاستعمار ومن الطّبيعيّ أنّ له علاقة مع المرسل اليه. وهذا الكلام الغريب شيفرة. كلام سرّيّ. وأمّا المرسل اليه فمن الواضح أنّه عربيّ. يجب التّحقيق مع كلّ عربيّ في العاصمة يحمل اسم محمّد أو عليّ أو كلّ اسم حُمِّد أو عُبّد!!

وضغط على الجهاز الذي امامه على الطّاولة السّوداء فدخل ثلاثة جنود شبّان فأمرهم أن يبحثوا عن كلّ عربيّ يحمل اسمًا مشابهًا حتّى لو كان موظّفًا في سفارة دولة اسلاميّة.

انتقل المرسوم من غرفة الى غرفة ومن خبير الى خبير ومن ضابط الى شرطيّ عاديّ ومن شرطة الحدود الى شرطة الجنايات ومن مؤسّسة المخابرات المحلّيّة الى دائرة المخابرات الاجنبيّة ومن مكتب محاربة المخدّرات الى مكتب تهريب الأسلحة.

وانشغلت العاصمة الأفغانيّة من أقصاها إلى أقصاها!!

وبعد عدّة أيّام وبعد لأي شديد وبدون نتائج مرضية قرّر الرّائد الشّيخ مسعود أن يستدعي استاذًا جامعيًّا من جامعة كابول خبيرًا باللغات السّاميّة.

بحث رجال المخابرات في جامعة كابول في أسماء الأساتذة والمساعدين فوجدوا اسم الأستاذ خالد بن حسين مدرّس اللغة العبريّة واللغة الآراميّة فأسرعوا الى الحرم الجامعيّ واعتقلوا المدرّس واحضروه الى مكتب الشّيخ مسعود وهو يرتجف هلعًا!

تناول الأستاذ خالد بن حسين الكتاب ذا الحروف الغريبة من على طاولة الشّيخ وهو يرتجف.. وتصفحّه وابتسم وقال: «والشّعراء يتّبعهم الغاوون». صدق الله العظيم.

وكان الشّيخ مسعود ينظر اليه دهشًا!

وباشر الأستاذ خالد بالقراءة. ولا أحد يفهم ما يقرأه. وبعد ان قرأ عدّة صفحات والشّيخ مسعود على احرّ من الجمر قال: رحم الله جلال الدّين الرّوميّ الذي لم يترك رغيفًا لشاعر بعده. لا خطر يا سيدي الشّيخ في هذا الكتيّب!!

وعندما اطمأنّت الأجهزة العلنيّة والأجهزة السّريّة في العاصمة الاسلاميّة - كتب احد الخبراء على مغلّف الطّرد: «أدرِس ما مكمل .. أدرِس مجهول !!» وأمر الرّائد الشّيخ مسعود بإعادة الطّرد إلى مرسله الصّهيونيّ الغربيّ في مدينة القدس.

وأكاد أتخيّل الشّاعر دافيد عصمون ينظر برهبة ودهشة الى الطّرد البريديّ الذي وقع بين يديّ قادة طالبان ثم عاد اليه بعد شهرين تقريبًا فآرتأى أن يرسل المجموعة الشّعريّة هذه المرّة بتاريخ ١٩٩١/١/١ مع الغلاف الأوّل والرّدّ الأفغاني بالحروف العربيّة وأن يكتب لي رسالة جديدة: ها أنا أرسل إليك الكتاب مع المغلّف الأوّل العائد من أفغانستان كما هو وأرجو أن يصل إليك الكتاب هذه المرّة. وأنا على يقين أنّك ستبدع قصّة هامّة من هذا الحدث.

وهذه هي القصّة يا أيّها الشّاعر، ولا أدري مدى أهميّتها!!

صار لي عنوان

وفيما أنا أقود سيّارتي الصّغيرة وأستمع إلى أغنية ناعمة رأيت لافتة بارزة على الدّوار الأوّل في شارع قريتي. أقول، وأنا مبتسم، الدّوّار الأوّل تقليدًا لأهلنا في عمّان الذين يقولون ويحدّدون الأماكن في عاصمتهم الجميلة بالدّوار الخامس أو بالدّوّار السّادس وهكذا. ومكتوب على اللافتة بخطٍّ واضح باللغتين العربيّة فالعبريّة «شارع القدس». الشّارع الرّئيسيّ في قريتي يحمل اسمًا جميلًا. وهل هناك مدينة في الدّنيا أجمل من مدينة القدس؟

درْتُ في السّيّارة مرّتين حول الدّوّار بتأنٍّ وتمهّل ولولا أنّ سيّارة حمراء قدمت من الغرب باتّجاه القرية لدرت المرّة الثّالثة ولكنّني خفت أن يغضب السّائق منّي، وقد يكون شابًّا حمسًا حمشًا لا يعرفني ولا يحترم شيخوختي، والمثل العربيّ يقول بصراحة: ابعد عن الشّرّ وغنٍّ له ! وهذا المثل انهزاميّ وكيف يمكن أن أغنّي للشّرّ؟ ما هربت يومًا من واقع أو من معركة. ولكنّ عددًا لا بأس به من شبّان هذه الأيّام يتصرّفون بعنف، وكثيرًا ما حدثت جرائم قتل بسبب حق المرور في الشّارع أو بسبب موقف لسيّارة ومنذ سنوات عندما اقود سيّارتي في قريتي أو في أي بلدة أو مدينة عربيّة في وطننا الصّغير وأجد سائقين اثنين قد أغلقا الشّارع بسيّارتيهما وهما يتبادلان الحديث غير عابئين بالسّائقين الآخرين أقف بدون ملاحظة وبدون استعمال الزّامور لتنبيههما كي لا ازعجهما حتّى يتمما كلامهما واسأل الله السّلامة.

يبدو أنّ السّائق، وهو شابّ، لم يهتمّ باللافتة ولا بأنّ الشّارع يحمل اسمًا جميلا، لعلّه مهموم، ولعلّه عاشق، ولعلّ رصيده في البنك يقلقه.. ولعلّ دائرة الضّرائب تلاحقه. وقدت سيّارتي على مهلي. وأنا اتخيّل أحدًا من اجدادنا لعلّه اسعاف النّشاشيبيّ أو روحي الخالديّ أو عبد القادر الحسيني. يقف وسط الدّوّار الأوّل ويقول: اهلا وسهلا بكم في القدس. أقول: شكرًا للجنة الأسماء في المجلس المحلّيّ التي اختارت اسم القدس للشّارع الرّئيسيّ للقرية!!

اظنّ، وأرغب بأن أحسن ظنّي وأقول:"أعتقد" بدلًا من "أظنّ"، أن هذا الاختيار النّاجح والثّاقب ما جاء من

باب الصّدفة. لعلّه جاء من دافع دينيّ فالقدس مدينة الأنبياء منذ سيدنا آدم كما تقول الأسطورة ومنها ايضًا كان معراج الرّسول العربيّ الى سدرة المنتهى، وفي القدس حائط البراق والصّخرة الشّريفة وفيها كنيسة القيامة والقبر المقدّس. ولعلّ الاختيار نبع من دافع قوميّ: فالقدس عاصمة فلسطين ومهد الحضارة العربيّة. والقدس حاضنة الفكر القوميّ العربيّ الفلسطينيّ. وسيّارتي تتهادى في الشّارع، في شارع القدس، والسّيّارات تجتازني مسرعة والسّائقون، شبّانًا وصبايا ينظرون إليّ شزرًا ويتمتمون، ولا يهمّني ما يقولون فأنا في شارع القدس وفي الدّوّار الثّاني يتفرّع منه شارع ابن رشد. هذا العالم الكبير الذي يحترمه مثقفو العالم في الشّرق والغرب. ولكن لماذا اختارت اللجنة المحترمة اسم ابن رشد ولم تختر اسمًا له علاقة بالقدس الشّريف؟ مثلا صلاح الدّين الأيوبيّ أو عبد القادر الحسينيّ أو فيصل الحسينيّ؟ هذا الأمر يحتاج إلى شجاعة وإلى تحدّ. ولماذا اطلب منهم ما فوق طاقتهم في زمن حكومة الوزير أبي رغيف الذي أصدر فرمانًا يمنع الأسرى الفلسطينيّين من خبز أرغفتهم البلديّة عقابًا لهم على نضالهم. يا له من وزير غبيّ وعنصريّ. لو كنت في اللجنة لاخترت اسم صفرونيوس البطريرك الذي استقبل الخليفة عمر بن الخطّاب يوم فتح المدينة. ولن يعارض مسؤول حكوميّ على ذلك كما أظنّ. من يقول؟ هناك أغبياء في كلّ مكان. وهناك عنصريّون وهناك أبو رغيف وأبو صابون وأبو فجلة وأبو خ.. معاذ الله. وسيّارتي تتهادى، تسير على بيض وأنا فرح. وأصل الى دوّار آخر. ومفرق يحمل اسم "شارع الشّافعيّ". الامام الشّافعيّ. الامام والعالم الفلسطينيّ الكبير. ابن غزّة هاشم. مؤلّف مئات الكتب. شاعر وأديب. ومرّة أخرى اشاهد لافتة ناصعة تحمل اسم شارع القدس باللغتين، وبالعربيّة أوّلا. يا زهرة المدائن، يا عروس المدن التي تشدّ اليك الرّحال. ما هذا يا ربّ؟ من هنا يتفرّع شارع خليل السّكاكينيّ؟ مرحبًا أبا سريّ. كبيرا كنت "كذا أنا يا دنيا" وكبيرًا بقيت، وتقول بتواضعك الانسانيّ "انسان ان شاء الله" يا لك من مربٍّ عظيم، وانسان كبير. ما اصعب أن يكون المرء انسانًا في هذه الأيّام يا معلّم خليل!!

وفي ذروة هذه الأفكار انتبهت الى أن البيوت تحمل أرقامًا. فوضعت يدي على صدري. أيّ رقم يحمل بيتي؟ هذه الأرقام هامّة. وجدت المنازل الواقعة في الجهة الشّماليّة لشارع القدس تحمل ارقامًا فرديّة وأمّا المنازل الواقعة في الجهة الجنوبيّة فتحمل أرقامًا زوجيّة.. وبيتي شماليّ. بيتي يساريّ. وهذا يؤكّد لي أنّه لن يحمل الرّقم ٤٨ الذي يذكّرني بطفولتي المسروقة. الحمد لله. ولكن..ها.. ماذا لو بالصّدفة حمل بيتي رقم ٦٧؟ رقم اغتيال الفرح من شبابي. يا ريّس! يا لجنة! عندكم ما شاء الله تعالى من الأرقام الفرديّة فأرجو أن ترحموني. ما طلبت في يوم ما أمرًا أو شيئًا من مجلسكم المحترم. ارجوكم. أتوسّل اليكم ابعدوني عن الرّقم المشؤوم. وفكّرت أن اوقف سيارتي جانبًا.. أنا قلق. قلق. يا ربّ سهّل امري. وأصل الى ساحة بيتي وأشاهد على جدار البيت «شارع القدس ٧٧» الحمد لله. ٧٧. رقم السّعد .سبعتان. الحمد لله صار لي عنوان. وليس «أدرِس ما مكمل» بل «أدرِس مكمل" يا طالبان، ويا أبا رغيف.

باق هنا. باق في وطني الصّغير الجميل. باقٍ!!

كتب وتقارير

سماء وسبعة بحور عمل ملحمي ينتصر لقضية فلسطين

د. زينات أبوشاويش

ربما يكون للأدب الفلسطيني خصوصية الزمان والمكان معا «الزمكان» هذه الخصوصية أو الفرادة التي جاءت نتيجة حتمية لخصوصية القضية الفلسطينية ذاتها، فنحن عندما نتحدث عن عمل إبداعي فلسطيني نتحدث عن عمل متجاوز للحدود البينية الزمانية والمكانية جامعاً ما بين الماضي والحاضر، ومتجاوزا لهما في بعض الأحيان، فالأدباء الفلسطينيون في غالبيتهم يتحدثون عن وطنهم الذي لم يعيشوا فيه، وهذا ما تناوله ادوارد سعيد بالتفصيل عند حديثه عن "Between Cultures" الثقافات البينية أي أن يمتد العمل الابداعي ليشمل عدداً من الثقافات وهذا ما سنجده في هذا العمل الابداعي الذي نحن بصدده والذي نحن بصدد الحديث عنه في رواية سماء وسبعة بحور للروائي الفلسطيني ناجي الناجي، الذي استطاع ببراعة الكاتب وروح الشاعر أن ينقل روح الهوية الفلسطينية في عدد من الدول، متجاوزاً معها الحدود والقيود في حالة سردية فريدة من نوعها، فرحلة المشاهد السردية انتقلت ببطل الراوية في رحلة الشتات ما بين سوريا ولبنان، مرورا بكوبا وتونس والقاهرة ثم اللقاء الأهم في احتضان الوطن للمرة الأولى في نابلس ورام الله والقدس ويافا، حيث جاء الراوي متجاوزاً ومتحرراً من كل معاني الغربة في مشهد سردي يجمع بين اللاجيء العائد في زيارة لوطنة للمرة الأولى وصور جنود الاحتلال حيث نجد أن الحبكة الدرامية في هذا المشهد استنطق فيها ناجي الناجي الدموع في مآقي الأحداق ورسخ فبها فكرة الهوية مع حق العودة في لغة سردية فريدة من نوعها.

استطاع ناجي الناجي أن يخلق حالة من الحوارات السردية لبطل الراوية زياد في مشاهد سينمائية حيث يعيش القارئ مع الحكاية بحواسه فينتقل ويتحرك ويغضب ويثور ويمشي ويصفق ويبكي، وهنا تتجلى الحكاية بكلياتها ويعيش القارئ كليات الحدث متجاوزا الزمن والمكان في مراحلها التاريخية الممتدة من الأربعينات حتى ٢٠١٧م ومتنقلا بين ذلك بخاصية ال Flash Back

وإذا كنا نذكر القضية الفلسطينية، إلا ويتداعى إلى الذهن عدد من الأعمال الروائية المتميزة، التي استطاعت منذ وقتٍ مبكر أن تُعير القضية الفلسطينية اهتماما أدبيا وتعيدها إلى بؤرة الاهتمام، متجاوزة في ذلك أفكار الصراع والحروب للتعبير بواقعية عن أزمة الإنسان الفلسطيني ومأساته بطرقٍ مختلفة ومتعددة. فإن رواية سماء وسبعة بحور للروائي الفلسطيني ناجي الناجي استطاعت بمهارة شديدة أن تجمع ثنائية الوجع الفلسطيني بكلياته سواء في الشتات أو في الداخل الفلسطينيٍ حيث تناولت فترات تاريخية شائكة في تاريخ فلسطين شعباً وقضية، وطرحت من خلالها أسئلة ملحة في لحظتنا الراهنة متجاوزة بذلك كل الأعمال الروائية التي سبقتها، فيما يعنون بحالة سردية فريدة تلوح في الأفق وتشي بمخاض ميلاد إبداعي، يصحح الكثير من ترهات الموروثات الخاطئة التي التصقت بفلسطين شعبا وقضية وخاصة بعد ما آلت إليه الأمور بعد الإنقسام الآثم بين ضفتي الوطن المحتل.

ففي أحد الحوارات التي قام بها البطل زياد والتي تؤرخ من خلال هذا العمل السردي لدحض فكرة بيع الفلسطينيين لأراضيهم جسد الراوي هذا الحوار الذي وثق من خلاله كيف تصبح الراوية وثيقة إنسانية وسياسية وحقاً عضوياً يعضد مشروعية الأرض والحقوق ويدحض الأكاذيب.

يا أبا سائد، هل ممكن أن تخبرنا عن عروض شراء البيت؟

نظر إليه!

لن يصدق؟!ٍ

قل له.

بل سأريه.

دخل إلى بيته وجلب أوراقا ناولني إياها، كانت مكتوبة بالعبرية والعربية.

اقرأ

لا يهم، قل لي.

اقرأ فقط اقرأ.

كانت صورة عقد بيع للبيت موقعاً من الطرف الأول بقيمة عشرين مليون ديناراً أردنياً،ٍ بينما خانة الطرف الثاني فارغة، ناولني أوراقا ممزقة :

هذا هو العقد الذي صورته قبل تمزيقه وإلقائه في وجوههم.

وجمتُ ولم أقو على فتح فمي.

وبالرغم من كثرة الأعمال الروائية التي تناولت القضية الفلسطينية في أبعادها المختلفة بيد أن هذا العمل يختلف كثيرا عن غيره حيث يجمع ما بين السيرة الذاتية بامتداداتها الإنسانية وبين القضية العامة بخصوصيتها الاستثنائية، فهذا العمل الروائي يحمل موتيفات المنفى بكل تجلياتها واغترابها وأوجاعها.

حملت رواية سماء وسبعة بحور موتيفات أدب المنافي إن جاز التعبير حيث السمات الدلالية تدور حول هذه التجربة الوجودية للشتات أو اللجوء، والتي هي جزء من هذه الطبيعة المعقدة لأدب المنفى.

حيث أن الأدب الفلسطيني من الممكن أن يكون من بين أكثر الآداب العالمية التي تكونت وتطورت داخل بوتقة المنفى، وعلى حوافه؛ فلا يمكن النظر إلى الأدب الفلسطيني إلا بوصفه أدب منفى واغتراب في حالة للمحاولة منه للحفاظ على الهوية الفلسطينية الممتدة بين الداخل الفلسطيني والشتات. وهذا ما نجده جلياً في رواية « سماء وسبعة بحور « والتي صدرت عن دار ابن رشد بالقاهرة في ديسمبر ٢٠٢٠م وأحدثت صدى بالغ الأثر في الأوساط الأدبية والثقافية حيث أقرت هذه الراوية لتكون ضمن مقررات المناهج الدراسية لبرامج الدراسات العليا لطلبة لكلية التربية في جامعة عين شمس بمصر.

تتناول الراوية حاله سردية لقصة أحد اللاجئين الفلسطينيين، الراوية تروي من خلالها قصة لاجئ فلسطيني وُلد في المنافي وهو يحمل فلسطين في قلبه مرورا بعدد من دول الشتات في حالة من الترحال الإنساني والمعاناة، عبر لغة أدبية وحالة سردية كشفت عن مكامن الضعف الإنساني والسمو الروحي لأصحاب القضية فقد استطاع أن يرسم لوحة فنية يعزف بكلماتها من خلالها على أوتار قلب القارىء عندما يحكي قصة احتضانه لوطنه للمرة الأولى في حياته وكيف تمكّن من الوصول إليها رغم الاحتلال وكل الصعوبات ليحكي قصته مع هذا اللقاء كاشفاً لنا عن حقيقة مرارة اللجوء، راوياً قصة اللقاء الأول مجسداً حكايا الأسلاف والخرائط واللاجئين في شخوص وفي حجر وشجر، معيداً النص إلى طوره الأول في تداخل وتجلّيات وتجارب المنافي وتأثيراتها في التكوين النفسي للفلسطينيين.

وربما يأخذنا هذا إلى ما قاله جورج لوكاتش أن السارد هو شخصية فاعلة في الراوية حتى وإن لم ينص المتن على ذلك, مثله في ذلك مثل المسرود له أو المتلقي الذي هو قائم جوهرياً لأنه هو الذي يمنح السرد (من حيث كونه خطاباً) مشروعيته التي تتطلب بالضرورة وجود مخاطب وإذا كانت العلاقة بين السارد والمسرود له يحكمها المتن الحكائي أو الموضوع.

لذا من الضروري فهم إطار مفهوم الوحدة الجدلية بين الشكل والمضمون أو بين الصياغة والمحتوى,

وهو ما يؤدي إلى أن يصبح الشكل عنصراً إجتماعياً من حيث كونه يحمل طابعاً أيديولوجياً, أو إنه يحمل منظوراً أو عنصراً لاختيار محدد كصياغة فنية لرؤية محددة للعالم يمكن من خلاله أن تختار ما هو جوهري وتطرح ما هو غير جوهري في سياقات متناوبة بين الحكايات السردية التي ينقلها فيها هذا العمل عبر عوالمه الكثيرة.

جدلية المنفى والهوية

تقوم الراوية بعمل حالة من السرد الحداثي للمنفى للمزاوجة ما بين فكرة الهوية والشتات، والهوية وحق العودة، وهنا لابد أن نؤكد أن الهوية الفلسطينية هي هوية متشابكة في تراكيبها بامتداداتها الحضارية وتفاعلاتها الإنسانية حيث أن الهوية الوطنية لا تكتسب مقدراتها على البقاء فضلا عن مصداقيتها الا بمقدرتها على التطور والتفاعل مع المعطيات الإنسانية في البيئة التي تتواجد فيها.

حيث أن فلسطين بالنسبة للكاتب الفلسطيني هي الذاكرة الحية التي لا تغيب بماضيها وحاضرها بل ومستقبلها أيضا وهذا ما دفع غسان كنفاني إلى أن يقول "مستقبلنا هو أن يعود إلينا ماضينا".

وكما يقول المفكر المغربي محمد عابد الجابري»:

" ان الهوية "كيان يصير، يتطور، وليست معطى جاهزا ونهائيا، هي تصير وتتطور، إما في اتجاه الانكماش وإما في اتجاه الانتشار، وهي تتغني بتجارب أهلها ومعاناتهم، انتصاراتهم وتطلعاتهم، وأيضا باحتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما".

لذا تبقى علاقة الأديب الفلسطيني بفلسطين الهوية والوطن هي علاقة جوهرية يسعى فيها للبحث عن الذات في ظل حالة الاستلاب اليومي الذي يمارسه الاحتلال فهي تعتبر فردوسه الأبدي يكتب فيها وعنها ويشتد عوده الأدبي بتجسيده لمأساتها وهذا ما نجده في رواية سماء وسبعة بحور التي اعتمد فيها على الراوي والسرد كوجهين لنقل الحالة الإنسانية التي يسردها أبطال الراوية حيث استطاع تصوير شخوص عمله الروائي بشكل لافت ولامع لتجسيد حالة المعاناة التي عاشها الفلسطينيون عبر تاريخهم الممتد في سردية روايته أعاد من خلالها تشكيل الهوية عبر تراجيديا إنسانية مستمرة في مسيرة حياة شخصية متقطعة على نحو شديد العمق والتأثير من خلال معاناة الفلسطينيين سواء في حرب لبنان ومروراً بحياة اللجوء في الشرق والغرب أو من خلال زيارة زياد الأولى لوطنه الذي استطاع أن يشرح فيها عمق الاحساس بالمنفى والانكشاف والضعف الذي يشعر به الفلسطيني عند سطوة عناقة لوطنه بعد غياب طويل في سنوات المنافي وهنا نرى أن حياة المنافي لم تكن دوما عائقاً للفلسطيني بل على العكس كانت دافعا للتوهج والانتماء والحيلولة دون ذوبان

القضية/ الوطن أو نسيانها.

أراد الكاتب في هذه الراوية أن يختبر فكرة الهوية والمنفى ونجح باقتدار في تجسيد ذلك في عمله الروائي فهو يقدم هجائية للوجود الفلسطيني ومعاناته في الخارج والحنين الدائم للوطن ومشروعية هذا الحنين الوجودي الذي ترك ندوباً في الروح تصدعت مع النفس في أحيانٍ كثيرة ذلك الصدع الذي يصعب شفاؤه ويفصل بصورة قسرية بين المرء ووطنه أي بين الروح والجسد، وهذا وجه من أوجه المعاناة التي لا يمكن تجاوزها أو التغلب عليها في حياة كل فلسطيني على حد سواء، وربما يتجلى ذلك في أحد حوارات زياد مع صديقه عند زيارته الاولى لفلسطين حيث يقول «مجيئي إلى هنا حلمان لا حلم واحد، الأول هو حلم كل لاجيء بأن يتيقن بأن الخارطة التي طالما زينت جدران المخيم ليست سرابا، بل أرضٌ تهتز إن دبك لويحٌ في عين الحلوة واليرموك، وأن الثوب المطرز ليس لباسا تقليديا ترتديه النسوة في المناسبات الوطنية والاجتماعية، بل زي الأمهات والجدات اليومي، وأن الزعتر لسد الرمق لا للحنين، وأن الميرمية حقيقة لا نوستالجيا".

الكتاب هنا يوثق مفردات الحياة اليومية الفلسطينية في تداعيها السردي عبر مواقف حياتيه في حياة الراوي ليؤكد على أحقية الحلم وواقعية الوطن.

الزمان والمكان

للزمان خصوصية في رواية سماء وسبعة بحور؛ لأنه أخذ منذ البداية يؤرخ للمقاومة الفلسطينية في لبنان ثم الخروج منها حتى أوسلو وما بعدها فيمتد زمن الراوية منذ عام ١٩٨٠م، إلى ما بعد النكبة الثانية ٢٠٠٠م، ثم يعود بنا إلى مفردات الحكاية الأولى في المقاومة منذ الأربعينات وينقل القارئ في حالة درامية من المعاشية تتجلى في مشاهد مقاومة القرويين من أهل المنشية ودير ياسين وغيرها من القرى الفلسطينية لعصابات الاحتلال الأولى.

أما بالنسبة للحكاية أو الزمان أو الأحداث فقد جاءت منسجمة مع متطلبات البيئة الروائية شكلاً ومضموناً، فمن ناحية الشكل يشير عنوان الراوية « سماء وسبعة بحور « إلى مكانة القضية الفلسطينية وسموها وفكرة الشتات التي لازال يعاني منها الشعب الفلطسيني الذي ربما يبعد عن وطنه مسافة سبعة بحور أو أكثر وهنا تأتي الرمزية الواقعية إن جاز التعبير في لغة شعرية يستخدمها الكاتب في روايته بين الحين والآخر من خلال أحداث قد وقعت بالفعل، ثم الإحساس بهذه الأحداث التي تتطلب وجود عامل الزمن المتتابع، وقد جعل الكاتب روايته تدور عبر فترات زمنية واسعة ، فهي تمتد على مساحة عام ١٩٤٧م، إلى وقت الانتهاء من كتابة هذه الراوية عام

٢٠٢٠م، والزمن لا ينتهي إلى هذا الحد لأن الكاتب هنا يحاول أن يجعل القارئ في نهاية الراوية أن يستمر ويتابع معه في البحث عن فكرة الوطن والهوية معا.

وربما تتضح خصوصية الزمان والمكان في رواية سماء وسبعة بحور في أنها جاءت تؤرخ لعملية التسوية الفلسطينية – الاسرائيلية وتبعاتها على الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج" فهي تتحدث عن الزمان والمكان الفلسطيني، وهنا تداخل الأدبي مع السياسي وفق تصوري، حيث أن الرؤية الفنية، في هذه الراوية لم تختف وراء السياسي، فقد امتلك الكاتب الكثير من الحنكة الأدبية مع الوعي والخبرة والممارسة والحساسية الفنية ما أهلَه لأن يقدم نصاً أبداعياً فريداً متجاوزا السياسي ومنتصرا عليه بإسلوب فذ وواقعي، بل ومكنه ذلك من تحديد ملامح بطله بدقة وتركه يعيش زمانه ومكانه، ويتحرك في أرض الواقع مصوراً قوته وضعفه، بعد أن وضعه في دائرة الضوء أمام تجربته الأولى في الولوج للوطن، وترك له حرية التصرف، ولم يتدخل في حركة بطله الداخلية، بل ظل بطله إنساناً حتى الرمق الأخير، وقد استطاع الكاتب هنا أن يعيد وطنه وهموم هذا الوطن المفصلية في كافة المواقف الحياتية التي مر بها بطل الراوية زياد إلى دائرة الضوء وهذا ما تحتاجة فلسطين القضية في هذا التوقيت الصعب الذي تمر به.

أما التقنية السردية التي استخدمها الكاتب والتي فرق فيها بين عدة أساليب سردية في الكتابة مثل: التداعي والمنولوج. حيث تمثلت في مواقف كثيرة جاءت على لسان البطل زياد والتي يحدث فيها نفسه في حوارٍ داخليٍّ فظهر هذا الأسلوب السردي بلسان المتكلم، ولكنه جاء بأسلوب ساخر، حالة التمايز ما بين السخرية والجدية تم عرضها في قالب سردي وفني بديع وأرى أنه يرسخ لأسلوب جديد في الراوية الفلسطينية والأدب الفلسطيني بشكل عام مستخدماً الضدين الأسلوب الساخر والجاد في آن واحد، تجلى ذلك في الكثير من مشاهد الراوية التي تعاني كما عانى الشعب الفلسطيني ولازال يعاني من وطأة الأحداث التي ألمت به وبقضيته الوطنية.

لذا نحن نقف أمام نموذج أدبي واقعي في شكله وواقعيته، ولكنه جاد وساخر في مضمونه فشخصية زياد هي الشخصية المحورية، إنها شخصية جادة في تركيبها، ولكنها قادرة على السخرية من هذا الواقع الصعب فزياد عاش واقعاً مأساوياً شهد أحداثاً درامية متتالية، شغلت حيزا هاما في حياته بل وحياة من معه سواء داخل فلسطين أو خارجها في فترات زمنية متلاحقة وطويلة، ضمن سلسلة من الأحداث المتوالية التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل هوية حياة اللاجئين الفلسطينيين سواء في الداخل أوالخارج على حدٍ سواء.

أما المكان : فنجد للمكان حيزا هاما في العمل الروائي على وجه العموم وأهمية أكبر في الراوية الفلسطينية على وجه الخصوص، وهذا نتيجة طبيعية لوجود للاحتلال والبعد عن الوطن والشتات

في بلاد كثيرة عاش فيها الفلسطينيون حيواتهم البعيدة بتفاصيل فلسطين وهويتها وعاداتها وتراثها وكافة مفراداتها الحياتية.

وكثيرا ما يقال أن الراوية تعتبر في المقام الأول فناً زمانيا يضاهي أحيانا كثيرة الموسيقى في بعض تكوينات خضوعه لمقاييس معينة مثل: الإيقاع ودرجة السرعة، فإنها من جانب آخر تشبه الفنون التشكيلية من رسم، ونحت في تشكيلها للمكان ورمزيته في العمل الروائي، وسنجد في هذا العمل أن علاقة الزمان والمكان علاقة وطيدة الصلة فلا يمكن تناول أحدهما بمعزل عن الآخر.

استطاع هذا العمل الروائي أن يحمل تفاصيل الزمان والمكان الفلسطيني، ورحلة اللجوء ومعاناة المخيم في الداخل والخارج فهذا الفضاء الإنساني يحمل في أحشائه قصص اللجوء والترحال، التي ليست بمعزل عن الهوية الفلسطينية المتجذرة في تلابيب هذا الشعب أينما حل أو رحل حيث استطاع الكاتب أن يشتبك بين الماضي والحاضر مستخدما في ذلك تقنية الفلاش باك السينمائية في عرض فريد يجعل القارئ يعيش المأساة الفلسطينية بتفاصيليها الماضية والحاضرة الجغرافية والبشرية السياسية والانسانية.

ظهر هذا الاشتباك في اللقطة السردية التالية:

هل سمعت بعيون الحرامية؟!

ياه!!!

عيون الحرامية!

هذا الحاجز الذي أقيم بين قرى سلواد ويبرود وسنجل وعين سينيا، وذاع صيته بالتمعن في إذلال الكهول والنساء والأطفال خلال تحركهم بين قراهم ومدنهم المجاورة، وكذلك كان يفصل الحركة حال إغلاقه بين مدن رام الله وجنين وطولكرم ونابلس.

يمكن قياس هذا النموذج على الكثير من المشاهد الروائية المتجلية في هذا العمل والتي تعكس قدرة الكاتب على استنطاق الأزمنة والأمكنة لكي يصل إلى مبتغاه في عمله الروائي.

الشخصيات

إن أي عمل روائي من حيث كونه في الأصل حكاية حيث تقدم أحداثاً تستند إلى شخصيات، وقد تشتبك بتقديم حدث واحد كما في حالة الراوي في بعض الاعمال الروائية وقد يقوم بعدة أحداث متشابكة يشبك معها البطل والراوي وبعض الشخصيات، وهذا ما حدث فعليا في سماء وسبعة بحور إذ أن هناك علاقة ارتباطية بين الشخصية والحدث حيث أنها تجمع في مجمل بنيتها السردية

بين واقع الإنسان الفلسطيني في مخيمات الشتات قبل عمليات التسوية السلمية، وفي مخيمات فلسطين ومدنها وقراها بعد اتفاقية أوسلو ودخول السلطة الفلسطينية إلى بعض أراضي فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧م، هذا الواقع الذي انعكس سلباً على الأبعاد السياسية للواقع الفلسطيني في الداخل والخارج، فجعل منها علاقات نفعية مادية في ظاهرها وجوفاء محترقة في باطنها، فقد اتصفت الشخصيات بالثنائية الضدية من حيث القبول والرفض، الظلم والإذعان، وهذه الثنائية قد سيطرت على شخصيات الراوية بشكل أو بآخر .

شخصية بطل الرواية زياد تشير إلى رؤية الكاتب حول الواقع الذي يعيشه وهو الذي يمثل واقع الشعب الفلسطيني، ومن خلال هذه الشخصية يحاول أن يجد طريقة للخلاص من هذا الواقع ومقاومته بشتى السبل وتجلى ذلك في أحداث كثيرة وحوارات متعددة داخل أروقة هذا العمل الروائي.

وإذا كانت الكتابة الروائية والسرد القصصي شاهداً أساسياً على أحداث الحياة وتجسيد معاناتها، فمشهد واحد في رواية سماء وسبعة بحور يمكن أن يختصر لنا كل إشكاليات الحياة في حياة اللاجئين الفلسطينيين داخل وطنهم وخارجه، حيث استطاع ناجي الناجي أن يجمع من خلال روايته حالة سردية موغلة في الوجع والفرادة، وقد تجلى ذلك في كافة التفاصيل المتعلقة بالقضية الفلسطينية والناتجة عن الاحتلال سواء داخل فلسطين من اعتقال وانتهاكات وجدار.... الخ أو خارجها مع معاناة حالة اللجوء والشتات الفلسطيني.

لم يغفل ناجي الناجي أدنى التفاصيل وأدقها في شخوص روايته، بل والأكثر غرابة أن ناجي برغم عمله الدبلوماسي انتقد المشروع الأوسلوي وهذه فرادة أخرى تحسب له حيث انتصر هنا الأديب على السياسي في لغة بلاغية جمعت ما بين السرد والشعر وأوقفت القارئ في حالة دهشه وشغف لا يستطيع الفكاك منها حتى ينتقل لغيرها، ليس هذا فحسب بل استطاع ناجي الناجي أن يضخ حالة جديدة من المونولوج الذي ينقل فيه المتحدث من حالة إلى حالة بل وينقل معه إرث الحكاية ورائحة المكان وشواهد الزمن انظر حينما تحدث عن السخرية وقال فيها كلاما نفيسا للغاية.

" السخرية يا صديقي هي سلاح قليلي الحيلة، حشيش الفقراء، ومخدر المهمشين، وهي ما يهون الطرائق والبلايا، ويصير الشدائد هباء، السخرية تهدهد البحر الهائج لتحيله موجاً غراً، على شاطئ منسي، لكنها تؤلم، وفي أحايين تجرح، السخرية تراكم أنيناً لا أحد يعلم وقت بوحه".

آخيراً وليس أخراً نحن أمام عمل ملحمي، وليس روائي فحسب، عمل يجسد كل اشكاليات القضية ويعيدها إلى جذورها الأولى في رحلة تاريخية وجغرافية يتلبس فيها الراوي روح من رحلوا ومن جاءوا ومن سيأتوا بعدهم، رحلة كاشفة للكثير من ملامح القضية وتحدياتها، ومتحلية بروح

الصمود والتحدي كعادة أهل هذه الرحلة وأصحاب الأرض، هذه الراوية كاشفة للكثير من ملامح القضية منذ بدايتها الأولى في نكبة ١٩٤٨ وما قبلها، وفارقة في طريقة السرد وتكثيف لغة الحوار، حيث لم يكتفِ الراوي بأن يكون كاشفاً وسارداً فحسب، ولكن كان مغامراً في كافة التحديات التي سخرها ليخرج لنا هذا العمل الأدبي الفريد بهذه الروح المفعمة بالحياة والنضال والتحدي، ما يقرب من سبعين عاماً هي فترة رصد فيها الكاتب رحلة اللجوء باحًثا فيها عن الهوية وباعثاً الأمل في تساؤلات وجودية حول ماهية الوطن والمنافي مستبصرا بتجارب إنسانية متتالية مرت على الراوي ذاته وأبطال روايته، أحالته إلى حالة من الرؤى الإستشرافية في خلق حالة من الحضور الفعلى للماضي من خلال حس سردي يتسق مع سياقات الأزمنة والأمكنة التي يسردها.

"الترويدة" برنامج تلفزيوني تحيي موسى من خلاله الرسائل المُشفرة في الحب، الثورة، والحرية..

فارس صقر

هُنالك من يعتبر الفن للترفيه فقط، وهنالك من يعتبره تجسيداً للواقع الذي نعيشه ولتطلّعاتنا وأفكارنا وأحاسيسنا، وبالرغم من أننا نميل إلى السهل دائماً، ولكن هنالك من يميلون إلى البحث العلمي الدقيق الذي يستند للحقائق التاريخية، والاسترشاد من ذوي الاختصاص.

فقد قام الكثير من المهتمين بأدوار كبيرة لتوثيق هذا التراث والحرص عليه من الضياع، لذلك اجتهدت د. سناء موسى ببرنامج تلفزيوني حمل اسم "الترويدة"، سهلاً ممتنعاً، رشيقاً حاداً وممتعاً، عكست من خلاله الصورة الحقيقية والتاريخ الصادق للفلكلور الفلسطيني.

وبرنامج "الترويدة" الذي يُبث عبر شاشة تلفزيون فلسطين عند الثامنة وخمس دقائق من مساء يوم الخميس مرة كل أسبوعين، سنتعرف على معنى كلمة "الترويدة" في البداية.

"الترويدة" وهي نوع من الفلكلور الفلسطيني كلماته مُشفرة وتبدو غير مفهومة للغريب، ولكن في حقيقة الأمر أن تلك الكلمات هي لغة اخترعها أهل منطقة جغرافية ما حتى لا يستطيع المستعمر البريطاني، الذي يفهم بعضًا من كلمات اللغة العربية، أن يفهمها.

واشهرت الترويدة قبل مئات السنين، ولكن في الفلكلور الفلسطيني بداية ثلاثينات القرن الماضي، مطلع الثورة العربية الكُبرى عندما عمد الانتداب البريطاني إلى قطع كل أساليب التواصل بين الثوار وبين القرى ومحيطها، عندئذ ابتكرت النسوة طريقة لإيصال الأخبار إلى الثوار بتشفير الغناء وكانت تلك الطريقة تعرف باسم "الترويدة"، وتقوم على قلب أحرف الجملة أو قلب الحرف الأخير من

الكلمة، فقد عبرن عن السجن، الحرية، الفرح، الحزن، الخوف، الأمل، الوطن، والغربة.

استمر التعامل بها حتى بعد النكبة وبعد إنطلاقة الثورة الفلسطينية في الخارج، فكانت النساء عندما يمر شاب من الثوار يبدأن بالغناء بتلك الطريقة لإعطائه الأخبار وإيصال الرسائل، وهي رسائل تتضمن أسرار الحب والشوق، وأسرار الحرب للثائرين، ورسائل تحذيرية للأسرى من هجوم محتمل على السجون.

لذلك وضحت د. سناء أنّ النساء هن حارسات نارنا الدائمات، وحارسات هذا التراثِ فقد ساهمن في حفظ ونقل هذا النوع من الأغاني على مرّ السنين.

برنامج «الترويدة»

تعودُ فكرة برنامج "الترويدة" إلى عام ٢٠٠٥ حين انتبهتْ الفنانة سناء إلى نمط معين خاطبَ فيهَا الذاتَ الباحثة في علوم الدماغ، فقررت أن تغوصَ أكثرَ في هذه الموسيقى.

وبرنامج "الترويدة" ثمرة بحث وتعب امتدت لما يقارب عشرين عاماً، تسعَى موسى من خلاله لتنميط وقولبة الأغاني المختلفة من التراثِ الفلسطيني عبر البحثِ المستمر، ويبحث في جذورها وسياقاتها الإنسانية والاجتماعية والحضارية.

ويأتي البرنامج ضمن البرامج البحثية، إذ تستقي الفنانة المعلومات من حواراتها مع- مختصين، فنانين، كبار بالسن، حافظي التراث-، ومن أصول المنابع في القرى والمخيمات والمدن الفلسطينية، إذ تستضيف في كل حلقة باحثاً متخصصاً بالإضافة إلى ثلاثة من حافظي التراث، وتقدم مثالين إثنين من هذا القالب، ومن خلال فيديو تصويري.

ويعمل في البرنامج طاقم متخصص من حيث البحث والإعداد، والتصوير والإخراج، لنراه بالصورة النهائية على الشاشة، ليعكس صورة المنطقة سواء كانت في القرية أو المدينة في الساحل أو في الصحراء أو في الجبل أو السهل فهي الحاملة لصفات بيئتها.

وعن تفاصيل الحلقات التي تم بثها عبر تلفزيون فلسطين، أتت بالعناوين التالية، الحلقة الأولى، قالب التراويد والأغاني المشفرة في التراث الفلسطيني، والحلقة الثانية والثالثة قالب الزجل الشعبي الفلسطيني، وفي الحلقة الرابعة قالب التهاليل (التهاويد- أغاني المهد)، والحلقة الخامسة كانت عن قالب الأغنية السياسية في التراث الفلسطيني"السفربرلك"، وفي الحلقة السادسة عن الأغنية الثورية الفلسطينية وتطورها ما بين)١٩١٧-١٩٣٤)، كما أن الحلقة الثامنة تناولت الأغنية الثائرة الفلسطينية منذ النكبة (١٩٤٨-١٩٦٥)، وفي الحلقة التاسعة كانت عن المنابر التي أتاحت فرصة

لتشكيل الأغنية الثائرة، وتطور الإذاعات الفلسطينية وتداخلها بذلك، وفي الحلقة العاشرة تناولت موسى قالب الأغنية السياسية في التراث الفلسطيني، وتناولت "الصوفية" في الحلقة الحادية عشرة، وذهبت في الحلقتين الثانية والثالثة عشرة الى المواسم الخاصة بالفلسطينيين (قطف الزيتون، الحصاد).

وتجدر الإشارة إلى تفاعل المتلقي، والمتابع مع هذا البرنامج لما يمثله في حفظ التراث وإحياء الثقافة والإبداع.

يعيش الفلسطيني على أرض غير صلبة ومهددة دائماً بالجلاء، فكانت على مر السنين مطمعاً للجميع، مما جعل هذا الشعب يستخدم جميع أدواته المتوفرة للدفاع عن بقائه، وكانت "الترويدة" من هذهالأدوات.

وتهدف موسى من خلال البرنامج إعادة تجميع الأغاني وقولبتَهَا وتقديمها في حلة جديدة مع المحافظةِ على خصوصيّتِهَا، كما تُعد موسى متمكنة من هذا الفن لأنها تمتلك المعلومة والتقديم والآداء.

وعبرت موسى على أهمية برنامج "الترويدة" قائلة: "حتى لا تموت الكلمة مع موت صاحبها ولتبقى شاهدة على الزمان والمكان التي ولدت فيه، نجوب البلاد".

وأكدت د. سناء أن أهمية هذا البرنامج تكمن بالحكاية والرواية الفلسطينية، لأن من يمتلك الحكاية يمتلكالأرض.

أوراق المؤسسة

مؤسسة ياسر عرفات تعقد الاجتماع الرابع عشر لمجلس أمنائها في القاهرة

عقدت مؤسسة ياسر عرفات، الاجتماع الرابع عشر لمجلس أمنائها، في مقر أمانة جامعة الدول العربية في العاصمة المصرية القاهرة، يوم الأحد الموافق ١٩/٢/٢٠٢٣، بحضور غالبية أعضاء المجلس، والذي يضم شخصيات عربية وفلسطينية بارزة.

وافتتح الاجتماع، د. ممدوح العبادي رئيس مجلس أمناء المؤسسة، مُرحباً بالضيوف الحاضرين، والوقوف دقيقة صمت وقراءة الفاتحة على روح الرئيس المؤسس ياسر عرفات، وأرواح شهداء فلسطين والأمة العربية والإسلامية، مؤكدين على المضي قدماً على ما بدأ به.

ومن جانبه ألقى ممثل الأمين العام لجامعة الدول العربية د. سعيد أبو علي الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية، كلمة بدأها بالترحم على روح الرئيس ياسر عرفات وشهداء فلسطين وعلى الذين قدموا أرواحهم من أجل فلسطين، مشيراً إلى أن هذا الاجتماع الرابع عشر للمجلس يأتي وفاءً واجلالاً وتكريماً لروح ياسر عرفات، والتي يتابعها رفيق دربه الرئيس محمود عباس .

وقال: «من القاهرة عاصمة العروبة التي أحبها ياسر عرفات، وبيت العرب جامعة الدول العربية التي رعت نضال الشعب الفلسطيني، نؤكد على دعم مؤسسة ياسر عرفات لما لها من مساهمات كبيرة ودور بارز في خدمة القضية الفلسطينية، والمجتمع الفلسطيني بمختلف شرائحه".

وألقى كلمة جمهورية مصر العربية السفير حسام خضر مساعد وزير الخارجية المصري لقطاع فلسطين، ناقلاً فيها تحيات وزير الخارجية المصري سامح شكري، مؤكداً على أن خيار العرب الاستراتيجي هو حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية، وإقامة دولة فلسطينية على حدود ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشرقية.

وثمن السفير حسام دور المؤسسة الهام في تخليد وإحياء إرث الشهيد الراحل ياسر عرفات، وترسيخ الهوية الفلسطينية من خلال العديد من النشاطات التي تدعم الطفل والمرأة والشباب بشكل خاص.

وفي سياق آخر نقل سفير دولة فلسطين في جمهورية مصر العربية دياب اللوح تحيات الرئيس محمود عباس للحضور، مباركاً الاجتماع السنوي لمجلس أمناء المؤسسة، مؤكداً على أن المؤسسة وطنية جامعة وحاملة لإسم أبو عمار، وتسير بكل مكوناتها ومخرجات أعمالها وفقا لتلك الصورة السامية والوطنية والنضالية.

وبعد انتهاء الجلسة الافتتاحية، قدم القائم بأعمال رئيس مجلس إدارة المؤسسة أ. علي مهنا عرضا لتقرير المؤسسة الإداري السنوي، الذي يتضمن تفاصيل عملها وفروعها ومتحفها خلال العام ٢٠٢٢،

كما وعرض تقريرها المالي، وتم توزيع الكتاب السنوي للمؤسسة.

يذكر أن مؤسسة ياسر عرفات تعقد الاجتماع الاعتيادي لمجلس أمنائها سنويا في مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة، ويضم المجلس ما يقارب الثمانين شخصية عربية وفلسطينية بارزة ويرأسه د. ممدوح العبادي، وينبثق عنه مجلس إدارة المؤسسة المكون من أحد عشر عضوا من مجلس الأمناء، ويقوم بأعمال رئيس مجلس الإدارة أ. علي مهنا.

مؤسسة «ياسر عرفات» تعقد ملتقى الحوار السادس بعنوان «الحكومة الإسرائيلية والتحديات الجديدة» في القاهرة

عقدت مؤسسة ياسر عرفات، في القاهرة، مساء يوم الأحد الموافق ٢٠٢٣/٢/١٩، ملتقى الحوار السادس تحت عنوان «الحكومة الإسرائيلية والتحديات الجديدة»، برئاسة رئيس مجلس الأمناء د. ممدوح العبادي، وذلك بالتزامن مع انعقاد الدورة الرابعة عشرة لمجلس أمناء المؤسسة.

وأدار الحوار، رئيس مجلس أمناء المؤسسة د. ممدوح العبادي، وتحدث فيه عدد من أعضاء مجلس الأمناء، وهم: رئيس المجلس الوطني الفلسطيني روحي فتوح، والوزير الأردني الأسبق سمير حباشنة، ورئيس لجنة المتابعة العليا للجماهير العربية في الأراضي المحتلة محمد بركة، وعضو مجلس النواب المصري د.سمير غطاس.

وتلخصت المداخلات حول الحكومة الإسرائيلية الحالية باعتبارها الأسوأ على الإطلاق، مشيرا إلى اتخاذها لخطوات سريعة في التوسع الاستيطاني الإستعماري، وستتسبب بتفجير الوضع فلسطينياً واقليمياً، موجهين التحية لمصر والجزائر وجنوب أفريقيا لمواقفها ضد الخطوات الإسرائيلية المتخذة.

وطالبوا بدعم صمود الشعب الفلسطيني على أرضه في مواجهة الإحتلال وسياساته وإجراءاته، ونادوا بضرورة التمسك بمبادرة السلام العربية، ورفض محاولات الإلتفاف عليها عبر محاولة فرض التطبيع والحلول الإقليمية بمعزل عن الحل العادل لفلسطين.

وحضـر الملتقى: الأمين العام المساعد لشؤون فلسطين والأراضي العربية المحتلة السفير د. سعيد أبو علي، وسفير دولة فلسطين لدى مصر ومندوبها الدائم بالجامعة العربية دياب اللوح، بالإضافة إلى عدد من الشخصيات العربية والدولية، وأعضاء مجلس أمناء مؤسسـة ياسر عرفات.

مسابقة المعرفة الوطنية في موسمها السادس ٢٠٢٣/٢٠٢٢

أنهت مؤسسة ياسر عرفات الموسم السادس ٢٠٢٣/٢٠٢٢ من مسابقة المعرفة الوطنية، وقد حصلت

مدرسة بنات جينصافوط الثانوية من مديرية تربية قلقيلية على المركز الأول في المسابقة بحلقتها الختامية التي جرت يوم الثلاثاء الموافق ٢١/٣/٢٠٢٣، في قاعة المسرح البلدي- بلدية رام الله.

جاء ذلك بحضور أعضاء من مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات، ومدير عام المؤسسة د. أحمد صبح، والوكيل المساعد للشؤون الطلابية في وزارة التربية والتعليم صادق الخضور، ومدير دائرة النشاط الثقافي في «التربية» حامد أبو مخو، ومدير متحف ياسر عرفات محمد حلايقة، وممثلون من المؤسسة والوزارة وأهالي الطلبة المشاركين.

وحازت مدرسة الصحابة الأساسية للبنات من تربية شمال الخليل على المركز الثاني ضمن التصفيات، كما حصلت مدرسة الحسين بن علي الثانوية من تربية الخليل على المركز الثالث.

ويجدر الإشارة إلى أنه تم تكريم مدرسة مريم بنت عمران للبنات من تربية محافظة الوسطى بالمركز الأول، في مكتب المؤسسة (بيت الرئيس/غزة) على مستوى مديريات التربية والتعليم في قطاع غزة.

ويأتي هذا التكريم بعد رفض وتعنت الاحتلال الإسرائيلي بالسماح للطلبة الفائزين ومعلميهم من القدوم إلى مدينة رام الله، لخوض غمار المنافسة في الحلقة الختامية.

واختتم الحفل بتكريم الفائزين والمشاركين، وتسليم الجوائز للفرق الفائزة، ويذكر أنه تم عرض فقرة من الفلكلور الشعبي الفلسطيني، أقامتها فرقة دبكة مدرسة بنات بيتونيا الأساسية العليا.

يُذكر أنه تم إضافة سؤالين أحدهما للجمهور داخل القاعة، والآخر للمتابعين من خلال شاشة تلفزيون فلسطين، أو مواقع التواصل الاجتماعي، ويأتي ذلك لزيادة التفاعل مع المسابقة وإشراك الأهالي مع أبنائهم.

الإجتماع الخامس والخمسون لمجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات

عقد مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات اجتماعه الخامس والخمسين، يوم الخميس الموافق ٢٠٢٣/٥/١١، وجاهياً للمقيمين في أرض الوطن وعبر الاتصال المرئي لمن هم في الخارج، وترأس الاجتماع أ. علي مهنا القائم بأعمال رئيس مجلس الإدارة، وبمشاركة د. ممدوح العبادي رئيس مجلس أمناء المؤسسة، ومدير عام المؤسسة ومدير متحف ياسر عرفات.

واستمع المجلس لتقرير حول فعاليات ونشاطات وبرامج المؤسسة، خاصة مع قُرب اطلاق السنة الثانية من برنامج في الذاكرة الوطنية، رفاق الدرب، واطلاق حملة واسعة للترويج لإعلان جائزة ياسر عرفات للإنجاز للعام الحالي وللسنة السابعة عشرة على التوالي، وانتهاء مسابقة المعرفة

الوطنية في عامها السادس على التوالي والعمل الجاري لتطويرها، وكذلك التحضيرات لاطلاق مُخيمات ياسر عرفات الصيفية للعام السابع على التوالي.

وأيضاً استمع المجلس كذلك لتقرير عن سير العمل في متحف ياسر عرفات وعودة الزوار بكثافة له، وكذلك الأمر المعرض العاشر الحالي «إحلال» حول النشاط الإستعماري الإستيطاني.

وترحم الإجتماع على روح الرئيس المؤسس ياسر عرفات وأرواح الشهداء في قطاع غزة والضفة، ووجه التحية للأسرى الأبطال وخاصة المرضى والأطفال والمضربين عن الطعام، وتوجه أيضاً بالتحية لأبطال المقاومة والتصدي للإحتلال في جنين ونابلس والقدس وأرضنا المحتلة كافة.

مؤسسة ياسر عرفات تفتح باب الترشيح لـ «جائزة ياسر عرفات للإنجاز» للعام ٢٠٢٣

أعلنت مؤسسة ياسر عرفات عن فتح باب الترشيح لـ»جائزة ياسر عرفات للإنجاز» للعام ٢٠٢٣، يوم الأربعاء الموافق ٢٠٢٣/٥/٣ خلال مؤتمر صحافي عقدته في مقرها بمدينة رام الله.

ورحب د. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات بالصحافيين، مشيراً لدورهم الهام في نقل ونشر إعلان فتح باب الترشيح للجائزة لأكبر شريحة ممكنة، مضيفاً أن الجائزة لها قيمة مادية ومعنوية كبيرة.

وقالت د. علا عوض رئيسة لجنة الجائزة يأتي هذا المؤتمر كي نؤكد على استمرارية العمل على نشر جائزة ياسر عرفات للإنجاز للسنة السابعة عشرة على التوالي ومنحها لشخصيات ومؤسسات وهيئات وأفراد قدمت إبداعاً وإنجازاً متميزاً له أثره ومردوده.

وأضافت أن الجائزة تمنح سنوياً لفرد، أو فريق عمل، أو مؤسسة، تقديراً للإنجاز في مجالات العمل الوطني، الثقافي، الاجتماعي، الاقتصادي، والعملي/الأكاديمي، من خلال لجنة خاصة تقوم بدراسة الترشيحات المقدمة لاختيار الفائز بالجائزة والتي تشمل براءة الجائزة ومجسما رمزياً ومبلغ ٢٥,٠٠٠ دولار أميركي.

يُشار إلى أن هنالك وفد من المؤسسة برئاسة مديرها العام د. أحمد صبح يزور مُحافظات الوطن للتعريف بعمل وأنشطة وبرامج المؤسسة على رأسها جائزة ياسر عرفات للإنجاز، ويأتي ذلك ضمن حملة ترويجية للجائزة أقرتها لجنة الجائزة.

في الذاكرة الوطنية.. رفاق الدرب

في العام الثاني على التوالي ٢٠٢٣، تُطلق مؤسسة ياسر عرفات برنامجها في الذاكرة الوطنية.. رفاق الدرب والذي من خلاله تُحيي ذكرى ميلاد شخصيات ورموز وقادة من المؤسسين ورفاق درب

الرئيس الراحل ياسر عرفات ورافقوه في مسيرة الثورة الفلسطينية.

وبرنامج «في الذاكرة الوطنية»، يُسلط الضوء على رفاق درب الرئيس الراحل ياسر عرفات، ويروي جزءًا من تاريخهم في مراحل مختلفة من رحلتهم السياسية والفكرية والثورية، إذ تحيي المؤسسة هذا العام ٢٠٢٣ ذكرى ميلاد كُل من: أحمد أسعد الشقيري بتاريخ ٢٠٢٣/٥/٢٨ والذكرى التاسعة والخمسين لتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، د. حيدر عبد الشافي بتاريخ ٢٠٢٣/٦/١١. فيصل الحسيني بتاريخ ٢٠٢٣/٧/١٧. سعد صايل (أبو الوليد) بتاريخ ٢٠٢٣/٩/٣٠.

كما نشير أيضاً إلى أن المؤسسة تُنتج فيلماً عن الشخصية المُراد إحياء ذكرى ميلادها، ومعرض صور من أهم محطات حياتهم، وتوزيع السيرة الذاتية لكل منهم.

مخيمات ياسر عرفات الصيفية:

ستطلق مؤسسة ياسر عرفات في ٢٠٢٣/٧/٥ مخيمات ياسر عرفات الصيفية، والذي تُنظم مع المؤسسات الشريكة في خمسة مواقع من محافظات الضفة الغربية، وموقعين في قطاع غزة، وستستمر المخيمات إلى تاريخ ٢٠٢٣/٧/٢٠.

ويشارك في المخيم ٥٠٠ طفل من كلا الجنسين تتراوح أعمارهم بين (١٣/٨) سنة، ويركز المخيم على تنمية الثقافة الوطنية لدى الأطفال المشاركين من خلال نشاطات لا منهجية مثل الدراما والرسم والغناء والدبكة الشعبية وغيرها، واحاطتهم بسيرة الرئيس المؤسس ياسر عرفات، وتعزيز وترسيخ الثقافة الوطنية الفلسطينية عند الأطفال.

وتُنظم المؤسسة مخيمات ياسر عرفات الصيفية ٢٠٢٣ للسنة السابعة على التوالي، وهي أحد البرامج الرئيسية السنوية للمؤسسة.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤسسات الشريكة للمؤسسة لهذا العام في تنظيم المخيمات، هي

مكتبة البلدية في محافظة أريحا، وجمعية سلفيت للسيدات في محافظة سلفيت، وجمعية سيدات عين عريك في محافظة رام الله، ومركز لاجئ في مخيم عايدة محافظة بيت لحم، وجمعية كفر جمال النسائية في محافظة طولكرم، وفي قطاع غزة ستكون المخيمات في كل من البيت الصامد، وجمعية الحق في الحياة.

متحف ياسر عرفات:

يعمل المتحف بنفس الوتيرة المعتادة منذ بداية العام حيث يتسم ذلك بالموسمية من حيث أعداد

الزوار حيث تشهد الفترة الأولى (تشرين الثاني- آذار) تراجعاً في عدد الزوار لعدة عوامل منها:

الحالة الجوية (فصل الشتاء)، الوضع الأمني وما له من تأثير على حرية الحركة بين المحافظات، شهر رمضان مع تقليل عدد ساعات الدوام الرسمية، اضراب المدارس وانقطاع الرحلات المدرسية هذا العام والعام الماضي حيث كانت أعداد الطلاب تشكّل حوالي ربع عدد الزوار.

وفي كل الأحوال فإن عدد الزوار يرتفع بشكل ملحوظ ومتزايد اعتبارا من بداية الربيع حتى نهاية الصيف حيث الذروة في عدد الزوار.

الزوار:

بلغ عدد الزوار الذين زاروا المتحف خلال الفترة المشار لها حوالي ٦٠٠٠ زائر أي حوالي ١٥٠٠ زائر شهريا ٦٠٪ منهم من الأجانب ومن ضمنهم ٢٤١ عربي في حين لم تتجاوز نسبة الطلاب ٤٪.

الأنشطة:

افتتاح معرض إحلال بتاريخ ٢٠٢٣/٢/١٤ والذي يُلقي الضوء على الممارسات والسياسات العنصرية لدولة الاحتلال المتعلقة بالإستعمار الإستيطاني في فلسطين من العام ١٩٦٧ حتى اليوم باعتباره استمرارا للمشروع الإستعماري الإستيطاني الذي بدأ في نهاية القرن التاسع عشر. وقد لقي المعرض اهتماما كبيرًا من الزوار والمهتمين ومن الهيئات الدبلوماسية والوفود الرسمية التي زارت المتحف.

كتاب المتحف:

تم الانتهاء من إعداد ومراجعة وتدقيق كتاب المتحف والذي كلف بالقيام به د.حمدان طه بالتعاون مع فريق المتحف و قد تم تقييم الكتاب وسينتهي العمل به مع نهاية شهر آيار/ مايو، على أن يُحال إلى الطباعة لإصداره .

تم اعداد مقترح تفصيلي لإقامة معرض حول الثقافة والهوية الفلسطينية في الصين ويجري العمل على متابعة تنفيذ هذا المعرض مع السفارة الفلسطينية في بكين وبالتشاور مع وزارة الخارجية والسياحة والاثار والثقافة

كا أنه تم اعداد مقترح تفصيلي لنقل معرض «إحلال» الى جنوب افريقيا وذلك بناءً على طلب سفير دولة جنوب افريقيا لدى فلسطين وتتم ترجمة المقترح لإرساله بداية الأسبوع القادم إلى السفارة لتقديمه الى وزارة الخارجية لديهم.

وتجري كافة أعمال الصيانة والتحديث والمتابعة بشكل منتظم في فضاء ياسر عرفات بما في ذلك الضريح والمسجد ومنذ بداية شهر رمضان تم إعادة فتح المسجد لإقامة الصلاة بعد انقطاع دام خلال فترة جائحة كورونا.

افتتاح معرض «إحلال» في متحف ياسر عرفات

افتتح د. محمد اشتية رئيس الوزراء ممثلاً عن السيد الرئيس محمود عباس، معرض «إحلال»، في قاعة المعارض بمتحف ياسر عرفات، يوم الثلاثاء ٢٠٢٣/٢/١٤، بحضور انتصار الوزير (أم جهاد) رئيسة لجنة متحف ياسر عرفات، وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير صالح رأفت، وأمين سر المجلس الثوري لحركة فتح ماجد الفتياني، ود. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات، ومحمد حلايقة مدير متحف ياسر عرفات، وأعضاء مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات وأعضاء من لجنة المتحف وشخصيات سياسية وثقافية واعلامية فلسطينية وأجنبية، كما شارك أيضاً سفراء بعض الدول المعتمدة في فلسطين.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المعرض العاشر الذي ينظمه متحف ياسر عرفات لتسليط الضوء على واحد من أهم التحديات التي تواجه حاضر ومستقبل الشعب الفلسطيني بكل مكوناته وأطيافه ألا وهو النشاط الإستعماري الإستيطاني، فالشعب الفلسطيني بصموده ومقاومته قادر على مواجهة هذه التحديات وتحقيق أهدافه المشروعة في الحرية والإستقلال.